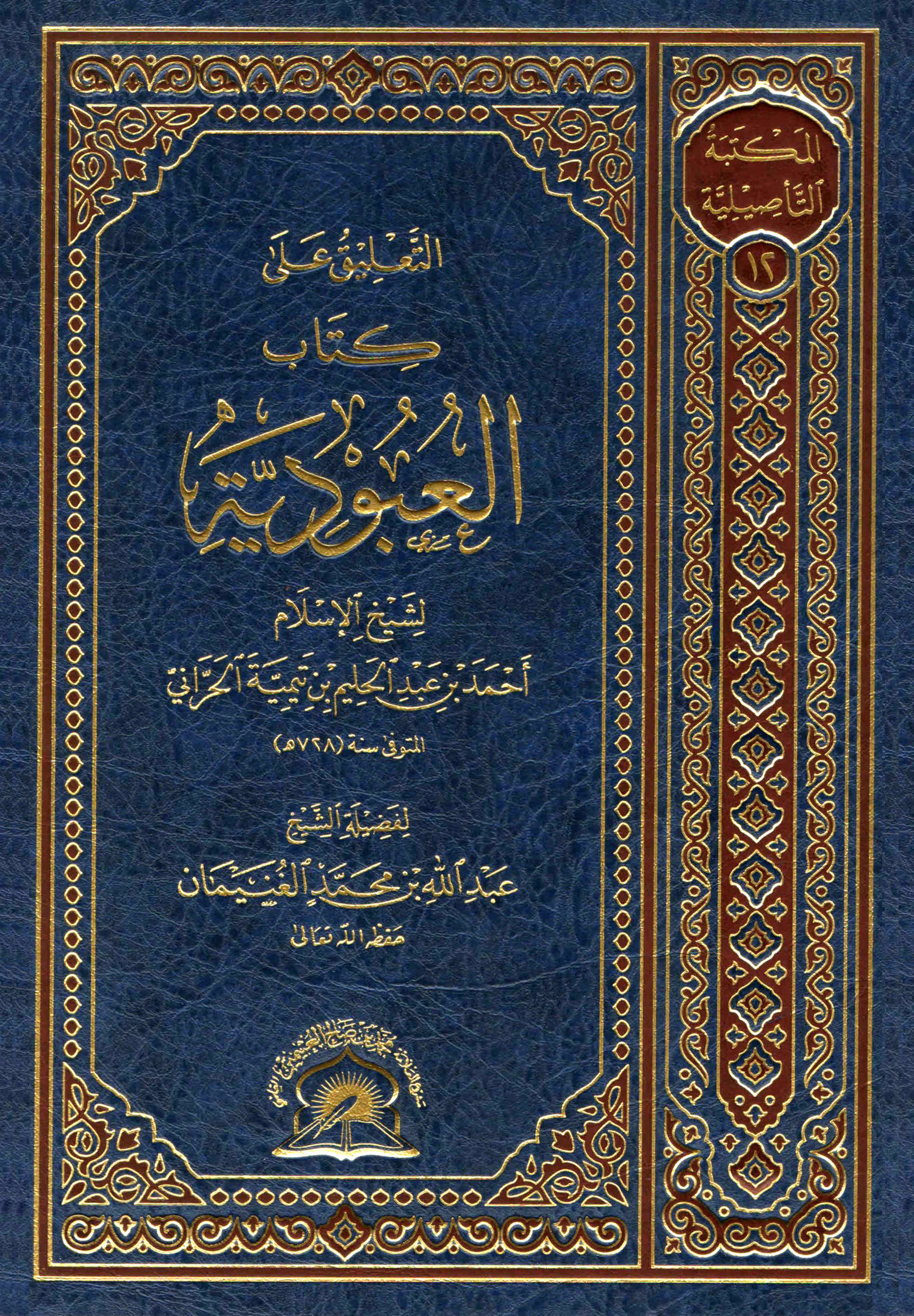


المكتبة التأصيلية
١٢
التعليق على
كتاب
العبودية
لشيخ الإسلام
أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني
المتوفى سنة (٧٢٨هـ)
لفضيلة الشيخ
عبد الله بن محمد الغنيمان
حفظه الله تعالى

التَّعليقُ على كتاب

العُبُودِيَّة

الطبعة الأولى

١٤٤٣هـ - ٢٠٢٢م

ردمك : ٠-١٨٩٥-٠-٩٩٢١-٩٧٨





مشروع العلامة
محمد بن صالح العثيمين
العلمي
دولة الكويت

الموزع الرسمي





rakaezkw.com rakaez.kw@gmail.com
@dar_rakaezkw t.me/rakaezkw
+٩٦٥ ٥٠٦٧٤٥٣٣






مقدمة الناشر

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسلام على المبعوث رحمةً للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين.

أما بعد:

فيسرُّ مشروع العلامة محمد بن صالح العثيمين العلمي بدولة الكويت أن يقدم لطلبة العلم الكرام **الإصدار الثاني عشر** من «المكتبة التأصيلية»، وهو تعليق على كتاب «العبودية» لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتوفى سنة (٧٢٨هـ).

حيث قام فضيلة الشيخ **عبد الله بن محمد الغنيمان** ـ حفظه الله ـ بالتعليق على هذا الكتاب، من ضمن دروس الدورة العلمية التاسعة، والتي عُقِدتْ في مسجد فهد الزبن بمنطقة «بيان» بعد صلاة العصر، وذلك بتاريخ ١٥ ـ ٢٤ من شهر رجب سنة ١٤٣١هـ، الموافق ٦/٢٦ إلى ٥/٧/٢٠١٠م، فقمنا بتفريغ المادة الصوتية وترتيبها وتنسيقها وتهذيبها بما يناسب إخراج الكتاب.

وكان المنهجُ العامُّ المتبعُ في إخراج هذا الكتاب ما يلي:

١ ـ تفريغ الدروس الصوتية إلى مكتوبة، ثم مقابلة النصِّ المكتوب على المسموع مرةً أخرى.

٢ ـ صياغة النصِّ وتهذيبه، وربطُ المتن بالشرح مع تمييز المتن بلون مختلف.

٣ ـ خدمةُ النصِّ، وذلك بعزو الآيات القرآنية إلى مواضعها في المصحف، والتخريج المختصر للأحاديث المرفوعة، وبيان غريب الألفاظ، وتوثيق الأقوال وعزوها إلى مصادرها.

٤ ـ تدقيق النصِّ من الناحية اللغوية والإملائية، وضبطُ علامات الترقيم، وضبط ما يُشكل من الألفاظ.

وبعد ذلك تكرَّم الشيخ ـ حفظه الله ـ بمراجعة الكتاب، وتعديل ما يلزم تعديله، وإضافة ما يحتاج إلى إضافة وتوضيح، ثم أذِن بطباعته، فجزاه الله خيراً، وشكر سعيه، وبارك في عمُره ووقته، وأجزل له المثوبة.

وختاماً نسأل الله تعالى أن يجعلَ هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، ونشكر كلَّ مَن أسهم في إخراج هذا العمل، وأن يَعمَّ نفعه للإسلام والمسلمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

مشروع العلامة
محمد بن صالح العثيمين
العلمي
دولة الكويت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينا محمد
وبعد سبق أن ألقيت دروساً في دورة الشيخ محمد
بن عثيمين رحمه الله وقد أذنت للقائمين عليها
في طباعة تلك الدروس وفوضت إليهم التصرف
فيها والله ولي الجميع بالتوفيق وصلى الله وسلم على
نبينا. قاله وكتبه عبد الله بن محمد الغنيمان في ٢/١٢/١٤٢٨هـ




مقدمة الشارح

نحمد الله ونستعينه، ونعوذ به من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته، وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد، فموضوع العبودية من أهم ما ينبغي لطالب العلم أن يعتنيَ به، بل لكل مسلم، لأن هذا الذي يترتب عليه سعادة المرء، إذا حققه وعمل به، وجاء به كما أمر الله جل وعلا به، في الدنيا والآخرة، وسعادة الآخرة مرتبة على سعادة الدنيا، وحقيقة السعادة في الدنيا أن يحظى المرء بعبادة الله جل وعلا، ويكون عبدًا لله، فتكون عبادته لله جل وعلا هي الجنة في الدنيا، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: «إن في الدنيا جنةً من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة»[١]، مقصوده بهذا الحظوة بعبادة الله تعالى والتلذذ بها.

ولْيتأمل الإنسان بعض النصوص التي جاءت في هذا، كقوله ﷺ: «إذا كان أحدكم في الصلاة فإنه يناجي ربه»[٢]، تأمل كيف مناجاة الرب جل وعلا أكبر سعادة، لو قيل لإنسان: إنك سوف تناجي الأمير لاستعد وأصلح حاله غير حالته العادية، وغبطه الناس، فكيف إذا كان يناجيه

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى ١/ ١٥٣، مدارج السالكين ١/ ٤٥٤، الوابل الصيب ١٠٩.

(٢) أخرجه البخاري (٤٠٥) ومسلم (٥٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

رب العالمين!

والعبادة كلها مناجاة لله جل وعلا، والصلاة لها خصوصية في هذا، والسؤال الذي طُرح في هذه الرسالة إنما هو عن معنى العبادة.

وكُتُبُ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ ـ كما هو معلوم ـ نكاد نقول: إنها كلها أجوبة عن أسئلة، حتى الكتب الكبار، مثل: منهاج السنة، ودرء التعارض، وغيرهما، يُسأل فيجيب، وكان وقته كله مشغولًا بإرشاد الناس والرد على المخالفين في عبادة الله جل وعلا، سواء كانت العبادة عبادةً تصدر من المرء بالفعل المطلوب منه، كما في هذه الرسالة، أم عبادة تتعلق بصفات الله جل وعلا وبمعرفته، وهذا أكبر ما كان شيخ الإسلام يجاهد فيه رَحِمَهُ اللهُ.

ولا حاجة إلى ذكر شيء من تأريخه، فهو معلوم ومعروف.



التعليق على كتاب العبودية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

إن الحمدَ لله نحمَدُه ونستعينُه ونستغفرُه، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسِنا ومن سيئاتِ أعمالِنا، مَن يَهدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له، ومَن يُضلِلْ فلا هاديَ له. وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنّ محمداً عبدُه ورسوله.

أما بعد، فقد سُئل شيخُ الإسلام، وعَلَمُ الأعلام، ناصرُ السُّنّة، وقامعُ البدعة، أحمدُ بنُ عبدِ الحليمِ ابنِ تيميةَ رَحِمَهُ اللَّهُ، عن قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البَقَرَة: ٢١]، فما العبادة؟ وما فروعُها؟ وهل مجموعُ الدِّينِ داخلٌ فيها أم لا؟ وما حقيقةُ العبودية؟ وهل هي أعلى المقاماتِ في الدنيا والآخرة؟ أم فوقَها شيءٌ من المقامات؟ وليُبْسَطْ لنا القولُ في ذلك.

فأجاب رَحِمَهُ اللَّهُ: العبادةُ هي اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحبُّه الله ويرضاهُ، من الأقوالِ والأعمالِ الباطنةِ والظاهرة، فالصلاةُ والزكاة، والصيامُ والحج، وصدقُ الحديث، وأداءُ الأمانة، وبِرُّ الوالدين، وصِلةُ الأرحام، والوفاءُ بالعُهود، والأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكَر، والجهادُ للكفارِ والمنافقين، والإحسانُ للجار واليتيم والمسكين وابن

....

السبيل، والمملوكِ من الآدميينَ والبهائم، والدعاءُ والذكرُ والقراءةُ وأمثال ذلك: من العبادة.

وكذلك حبُّ الله ورسولِه، ....

بدأ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ جوابَه بتعريف العبادة، ثم أخذ يمثّل، فبدأ أولًا بالأعمال الظاهرة، فبدأ بالصلاة والزكاة والصيام.. إلى آخره.

ثم مثّل للأعمال الباطنة فقال: «**وكذلك حبُّ الله**»، بدأ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ بالحب الذي هو أصل التأله، والحب يقصد به الحب الخاص، الذي يتضمن الذل والتعظيم والخضوع، أما مجرد الحب فليس بعبادة، ولهذا قسم العلماء الحب إلى قسمين:

قسم مشترك بين الخلق، لا لوم على الإنسان فيه، فهو يحب ولده، ويحب والديه، ويحب زوجته، ويحب أخاه، ويحب من يشاركه في العمل، أو في السفر أو ما أشبه ذلك، أي حب إلف ومودة، وتبادُلِ منافع.

وقد يكون الحب: حبَّ طبع، أي طبعه الله هكذا، كحب الجائع للأكل، وحب الظمآن للماء، وحب ما يحتاج إليه في بدنه، وليس فيه ذل ولا خضوع، فهذا لا لوم على الإنسان فيه، ولهذا سمي حبًّا مشتركًا.

خلافًا لما قاله ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ، فإنه أخطأ في هذا الموضوع، وقال: «الحب شيء واحد، فإذا أحببتَ الله فهو حب، وإذا أحببت ابنك فهو حب»، هذا خطأ، فحب الله جل وعلا يجب أن يتميز، لأنه حب عبادة، والله جل وعلا يقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥]، فكونهم يحبونهم كحب الله صار ما يسمى حب السر، وهو الحب الغيبي، يحبه وهو غائب، أي

. . . .

يخاف منه أو يرجوه، فهذا حب عبادة، لا يجوز أن يكون إلا لله جل وعلا. أما أقسام الحب الأخرى فلا ضير على المرء فيها.

فالمقصود: أن الحب هو أصل التأله، ولهذا بدأ شيخ الإسلام به، وهو عمل القلب، وأعمال القلوب هي الأساس في كل عمل، فلا يمكن أن يصدر من العاقل عملٌ من دون ارتباط بقلبه، وإنما يصدر من السكران أو النائم أو المجنون، أما إذا كان عاقلًا فلا بد أن يبعث القلبُ الجوارحَ على العمل.

ولهذا لما عرف أهل السنة الإيمانَ عرفوه تعريفًا دقيقًا مطابقًا لما جاء به الرسول ﷺ، فقالوا: الإيمان عقيدة وعمل، ومنهم من يفصل فيقول: الإيمان يكون في القلب، ويكون في الجوارح، ويكون باتباع السنة أيضًا، فجعلوا الإيمان أمورًا ثلاثة يتكون الإيمان منها، كل واحد منها جزء من الإيمان، ولا بد من اجتماعها.

فمنه الحب، فالحب هو الأصل، والحب هو التأله، لكونه يَأله ربه جل وعلا، ولهذا لا يجوز أن يكون فيه اشتراك، لا يجوز أن يكون في حب الله اشتراك مع مخلوق.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**حبُّ الله ورسولِه**»، يجب أن نفرق بين حب الله وحب رسوله، فحب الرسول ﷺ تابع لحب الله، فمحبة الله جل وعلا خاصة به، لأنه حب تأله وعبادة وذل وخوف، وهذه أركان العبادة.

أما حب الرسول ﷺ؛ فهو يُحَب لأن الله يحبه وأمر بحبه، وجعله سببًا في إنقاذنا من العذاب، فالذي يحب ربه يتعين عليه أن يحب ما يحبه، ويكره ما يكرهه، فهذه من لوازم الحب، وليست هي الحب، ولهذا إذا كان في الحب اشتراك فهو يقال له: حبٌّ معه، والحب مع الله

وخشيةُ الله والإنابةُ إليه، وإخلاصُ الدِّينِ له، والصبرُ لحُكْمِه،

شرك بالله جل وعلا، ولكن إذا كان الحب لله، ومن أجله، فتحب من يطيع الله، ومن يتولى الله، ومن يتولاه الله، فهو تبع لمحبة الله جل وعلا.

فمحبة الرسول ﷺ تتعين، ويجب أن يكون حبه مقدمًا على حب النفس، فضلًا عن حب الولد والوالد والناس كلهم.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وخشيةُ الله، والإنابةُ إليه**»، والخشية قريبة من الخوف، ولكنها أبلغ منه، لأن الخشية ليست خوفًا فقط، بل خوف يكون معه إنابة ورغبة، ولهذا عطف شيخ الإسلام الإنابة على الخشية فقال: «**والإنابةُ إليه**»، والمقصود بالإنابة الرجوع إلى الله.

وللإنسان أعداء، وعنده صوارفُ وأمور يحتاج فيها إلى جهاد، وهذا من حكمة الله جل وعلا، فالدنيا لا يتحصل عليها الإنسان إلا بعمل، والآخرة كذلك، لا بد من العمل لها، فلا بد من الإنابة إلى الله والرجوع إليه.

ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وإخلاصُ الدِّينِ له**»، وهذا يشمل كل عمل، سواء القلبي والظاهري الذي يكون بالجوارح، لا بد أن يكون خالصًا، ليس فيه شائبة اشتراك مع الغير، لأن الله جل وعلا لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**والصبرُ لحُكْمِه**»، الحكم يكون شرعيًا، كالأمر بالصلاة وأداء الزكاة والصوم والحج وما أشبه ذلك، ويكون حكمًا قدَريًا كونيًا، وكلاهما يجب الصبر عليه.

والصبر كما هو معلوم على أقسام ثلاثة: صبر على الطاعة، وصبر عن المعصية، وصبر على الأقدار التي تقع، والإنسان الذي لا صبر له لا

والشكرُ لنِعَمِه، والرِّضَا بقضائه، ....

دين له.

وهذه الأمور كلها لا بد فيها من الاحتساب والإخلاص، ومعنى الاحتساب: رجاء الثواب ودفع العقاب.

ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **«والشكرُ لنِعَمِه»**، والشكر يكون بالجوارح، باللسان وبالأركان، أي بالعمل. والنعم لا حصر لها، فخلق الإنسان وإيجاده نعمة، وتسخير والديه نعمة، وإدرار لبن الأم نعمة، وعطفها عليه نعمة، فلا حصر لنعم الله جل وعلا على العبد، وأكبرها وأعظمها أن يجعله الله مسلمًا، لأنه لا قوة له في ذلك، وإنما الأمر لله جل وعلا، ومن تمام هذه النعمة أن يموت على الإسلام، لأنه سيكون في الجنة، فالجنة لها ثمن، وثمنها عبادة الله جل وعلا.

والشكر يتطلب الثناء على المنعِم باللسان، ثم استعمال النعمة في الطاعة، فتثني عليه بلسانك، وتستعمل جوارحك في طاعته، وإلا فتكون داخلًا في كفر النعمة، وكفر النعمة ليس من الكفر المخرج من الدين الإسلامي، ولكنه قد يكون طريقًا إلى ذلك.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: **«والرِّضَا بقضائه»**، أما الرضا فليس واجبًا، وإنما الواجب الصبر على القضاء، والرضا درجة عليا، لا يتحصلها كل أحد، بل هي للخاصة من المؤمنين، ومعنى الرضا: أن لا يتبرم بشيء أو يتمنى أن يكون على خلاف الواقع، بل يكون راضيًا به ومسلمًا ومنقادًا له، وهذا ليس واجبًا، وإنما هو فضل، إذا حصل الرضا فهو درجة عليا، وإذا لم يحصل فيجب الصبر.

ومعنى الصبر: حبس النفس على هذا الشيء، وكذلك حبس الجوارح بأن لا يفعل ما يفعله أهل الجهل، إذا وقع أحدهم في مصيبة يتكلم

والتوكلُ عليه، ....

بخلاف ما أمر الله به، بل بما يدل على السخط، وقد يفعل ما يدل على ذلك، مثل خمش الوجه، وضرب شيء من البدن، أو دعوى الجاهلية، وأعظم من هذا أن يتبرم بأمر الله أو يرى ـ ولو في قلبه ـ أن الله ظلمه! نسأل الله العافية.

إذا سألته عن حاله قال: أنا أُصلّي وأزكي، ولكن ما أدري ما الذي أصابني! فما معنى كلامه؟ معناه أن الله ظلمه! وأنه ما يستحق هذا الشيء الذي وقع به! وكثير من الناس إذا وقع أحدهم في مصيبة قالوا: واأسفا! فلان ما يستاهل! أي ما يستحق أن يقع في هذه المصيبة، ومعنى كلامهم أن هذا ظلم! وأن الله ظلمه!!

فيجب على الإنسان أن يحفظ نفسه في هذا، ويكون متأدبًا مع الله جل وعلا، ويحاسب نفسه في ذلك، ويعلم أنه إذا أصيب بمصيبة فربما يكون هذا خيرًا له، بل هو خير له على كل حال، فإن المصائب تكفّر الذنوب، بشرط أن لا يكون هناك اعتراض على الله وتسخّط، وإلا فتكون مصيبة على مصيبة! نسأل الله العافية.

فالمقصود أن الرضا ليس واجبًا، وإنما الواجب الصبر، والرضا درجة عليا.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «**والتوكلُ عليه**»، التوكل هو اعتماد القلب على الله جل وعلا بعد فعل السبب .

والأسباب تنقسم إلى قسمين:

الأول: أسباب شرعية، جعلها الله جل وعلا أسبابًا، فعلى المسلم أن يفعلها ولا يتخلى عنها.

الثاني: أسباب ممنوعة، مثل أكل الربا والسرقة وما أشبه ذلك، فهذه

والرجاءُ لرحمته، والخوفُ من عذابِه، وأمثالُ ذلك: هي من العبادةِ لله.

وذلك أن العبادةَ لله هي الغايةُ المحبوبةُ له، والمَرْضيّةُ له، التي خَلَق الخلقَ لها، ....

أسباب لتحصيل المال أو لتحصيل المرادات، ولكنها أسباب محرمة، فإذا وقع فيها وفعلها فقد وقع في محرمات قد تكون متعددة.

فعلى المسلم أن يمتثل أوامر الله تعالى، ويفعل السبب المباح، ثم يعتمد قلبه في حصول المراد على ربه، هذا هو حقيقة التوكل، أن يتوكل على الله، ولا يتوكل على صنعته أو وظيفته أو على مخلوق قد يبذل له شيئًا، بل يتوكل على ربه جل وعلا، ويعرف أن هذه كلها أسباب، جعلها الله جل وعلا أسبابًا، وإلا فالتصرف كله لله.

وإذا حصل له شيء على يد مخلوق، يشكره على ذلك، إذ هو صار سببًا، ولكن يعلم أن هذا كله من الله جل وعلا، فالله هو المالك لكل شيء، ولا يقع في الكون من حركة ولا سكون، ولا شيء من الأشياء إلا بإذنه وإرادته جل وعلا، فهذا حقيقة التوكل.

ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «**والرجاءُ لرحمتِه، والخوفُ من عذابِه**»، وهذان أيضًا من العبادة، بل هما ركنا العبادة، فالرجاء والخوف لا بد منهما.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «**وأمثال ذلك**»، يعني أن أعمال القلوب كثيرة، والأمور التي ذكرها إنما هي تمثيل.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «**التي خَلَقَ الخلقَ لها**»، المراد بالخلق هنا: المخلوق الذي هو محل للأمر والنهي، فأما المخلوقات الأخرى فهي مسخرة لهذا المخلوق الذي كرمه الله جل وعلا على كثير ممن خلق، وهو ابن آدم، يقول الله جل وعلا: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

....

﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ [لقمان: ٢٠]، فكل ما في السماوات وما في الأرض مسخَّر لنا، لمنافعنا ومصالحنا، فضلًا من الله جل وعلا، وليس استحقاقًا على الله جل وعلا.

ولهذا، فإذا عصى ابن آدم وكفر يكون جزاؤه جهنم، نسأل الله العافية، خالدًا فيها ما دامت السموات والأرض. وكثير من الناس الذين عقولهم قريبة من المحسوسات يُشكل عليهم هذا الأمر، ويقولون: ما ينبغي أن يكون هذا عقاب الإنسان! بل عقابه أن يبقى في النار يومًا أو يومين ونحو ذلك، ثم يخرج من النار ولو أن يُعدَم!

وهذا حكم على الله جل وعلا! وهو من ظلم ابن آدم، ومن أوصاف ابن آدم أنه ظلوم جهول، وإذا اجتمع الظلم والجهل فكيف يكون؟! ومن صفاته أيضًا أنه جزوع ومنوع! فهذه أخلاقه التي طبع عليها، فلا بد لابن آدم أن يتهذب ويتخلق بما جاءت به الرسل، وإلا عاد إلى طبعه وأصله، إلى كونه ظلومًا جهولًا! ولهذا كان بعث الرسل من أعظم النعم من الله جل وعلا، لمن وفقه الله جل وعلا لاتباعهم.

وقوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**هي الغايةُ المحبوبة**»، أي العبادة التي يرضاها الله جل وعلا ويأمر بها، والمقصود بأمر الله تعالى: الأمر الشرعي، فأمره جل وعلا ينقسم إلى قسمين: أمر كوني، وأمر شرعي.

فالأمر الكوني لا يلزم أن يكون مرضيًا، ولا يلزم أن يكون موافقًا للأمر الشرعي، وهذا من حكمة الله جل وعلا، ولهذا وُجدت المتضادات، ولولا هذا ما حصل الجهاد والقتال في سبيل الله، وما حصل جهاد الأعداء والمنافقين والشياطين من الإنس والجن، هذا الجهاد الذي يحبه الله جل وعلا.

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]. وجَعَل ذلك لازماً لرسولِه إلى الموت، كما قال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝٩٩﴾ [الحجر: ٩٩].

ثم ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ الدليل على هذا فقال: «**كما قال الله تعالى:** ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾»، وبعدها قوله تعالى: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨]، والآيات يرتبط بعضها ببعض، وإذا أكملت ظهر المعنى تامًّا.

وقد أشكلت هذه الآية على بعض المتكلمين الذين ينظرون إلى ما تقتضيه عقولهم، فقالوا: قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ خبرٌ، وهذا الخبر جاء على خلاف الوقع! فالواقع أن العبادة لم تحصل من أكثر الناس! فأين مقتضى الخبر الذي يكون صدقًا؟!

فجاء إشكالهم من هذه الناحية، فأجاب شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ على هذا فقال: «**العبادةُ لله هي الغايةُ المحبوبةُ له، والمَرْضيّةُ له**»، أي هذه هي الحكمة التي من أجلها خلق الخلق، ولا يلزم من خلق الله لهم أن يجعلهم عابدين، إنما هذا إليهم، أعطاهم عقولًا وأفكارًا وآياتٍ تحيط بهم من فوقُ ومن تحت، ومن يمينٍ وشمال، وقال: الأمر إليكم، إن عبَدتم الله واتبعتم أمره، فلكم الجزاء الأوفى، وإن أبيتم واتبعتم مراداتكم، فالجزاء أمامكم: عقاب الله جل وعلا.

فيكون الجزاء مطابقًا للعمل، إلا أن الله تفضل، فجعل جزاء الحسنة عشر أمثالها، هذا أقل ما يكون، وقد يتضاعف، وأما السيئة فلا يجزى إلا بمثلها، وهذا من فضل الله جل وعلا.

فالمقصود أن الإشكال الذي أورده بعض المتكلمين لا محل له في الآية.

وبها أُرسِلَ جميعُ الرسل، كما قال نوح لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [هُود: ٥٠]، ....

قول شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وبها**» يعني بالعبادة التي هي الغاية المحبوبة لله، والتي هي الحكمة من خلق بني آدم والجن، لأن الجن عقلاء، وهم أهل للتكليف، من أطاع منهم جُوزي أفضل الجزاء، ومن عصى فهو في النار.

فهي حكمة الله جل وعلا، وأرسل الرسل بها، فالرسل جاؤوا ليبينوا أمر الله جل وعلا، لأن الله غيب، ليس بينه وبين خلقه اتصال بالكلام والمشاهدة، ولهذا لم يقع الإيمان من كل أحد، بل من سبقت له الحسنى آمن بالغيوب وبالأخبار التي جاءت بها الرسل عن الله، واستحق الجزاء الكبير.

ومن كان نظره نظرًا حيوانيًا قريبًا، استولت عليه الشياطين من الجن والإنس فصرفته عن هذا الأمر، وكل ذلك بتقدير الله جل وعلا.

وعلى الإنسان أن يكون سببًا في هداية نفسه، بأن يقْبل ما جاء عن الله جل وعلا، ومن قَبِلَ من أول وهلة فإنه يُجزى عن الحسنة حسنةً بزيادة العلم وزيادة الإيمان والعمل.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**كما قال نوح لقومه:** ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾»، ونوح أول الرسل. وهكذا كل رسول كان يقول لقومه: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [هُود: ٨٤]، لأن المشركين يعلمون أن الله خلقهم، وأنه الذي أوجد الأشياء كلها، لا إشكال عندهم في هذا، وإنما وقعوا في الشرك ـ الذي هو العبادة الصادرة منهم ـ توارثًا، فصار بعضهم يتبع بعضًا، ويوصي بعضهم بعضًا في اتباع الآباء والأسلاف الذين سلكوا هذا المسلك.

وهذه أكبر حجة يحتج بها المشركون على الرسل، ولهذا قال فرعون

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم.

لموسى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [طه: ٥١]؟ أي التي مضت، يعني أنهم خالفوك، وأنهم جاؤوا بخلاف ما قلتَ، وهذا مثل قول الكفار: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي على طريقة، وعلى ملة، ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

وهذا الذي يقوله كثير من الناس، إذا قلتَ لأحدهم: لا تفعل كذا ولا كذا، قال لك: كل الناس يفعلون هذا، وهذا نفس طريقة المشركين، ونفس حجتهم، لكن بأسلوب مختلف، يقول لك: أنت الذي تخالف، وإلا فغيرك من الناس يفعلون هذا. وقد يقول أحدهم مثلًا: هذا تزمّت، هذا تشدد، وغيرك لا يقول هذا!

فنقول: هذه حجة الكفار، قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾، ولكل سلف خلف.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم**» من الرسل «**لقومهم**»، وجاء خاتمهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين يقول للناس: قولوا لا إله إلا الله، وهو معنى: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [هود: ٥٠].

قال النبي ﷺ: «**أُمرتُ أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله**»[١].

ثم ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ دليلًا عامًّا في مهمة الرسل التي كُلفوا بها فقال:

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٩، ٢٩٤٦) ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في قصة قتال أهل الردة.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النّحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فكل رسول يقول لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، والطاغوت هو الشرك، وهو كل ما صد عن عبادة الله، وهو مأخوذ من الطغيان.

قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾، الهداية بيد الله، فمَنْ منَّ الله عليه بالهداية اهتدى واتبع الرسل، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾، فمن وُكِل إلى نفسه ووُكِل إلى نظره وعقله، ضلَّ ولا بد، فالفضل بيد الله جل وعلا، وإذا منّ على عبد فيجب أن يشكر ربه، وإذا شكر زاده الله جل وعلا خيرًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾، فدلَّ على أن دعوة الرسل واحدة، كلهم يدعون إلى عبادة الله وحده، فالأديان التي جاءت بها الرسل كلها: الإسلام، وهو الاستسلام لله جل وعلا بالطاعة واتباع الرسل وعبادة الله وحده، أما الشرائع فتختلف.

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، الأمة هنا مقصود بها الدين، أي إن دينكم واحد، وملتكم واحدة، وهي التي جاءت بها الرسل، وهي عبادة الله، ولذلك قال: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾.

كما قال في الآية الأخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢].

وجَعَلَ ذلك لازماً لرسولِه إلى الموت، كما قال: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩].

وقوله: ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ هنا، أي دينكم وشرعكم الذي جاءت به الرسل واحد، كما في الآية السابقة.

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أيها الناس، إن الله طيّبٌ لا يَقبلُ إلا طيّبًا، وإنّ الله أمَرَ المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١]»، وهذا أمر الرسل. «وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]»، فهذا أمر للمؤمنين كالأمر الذي للمرسلين، لا فرق، «**ثم ذَكَرَ الرجلَ يُطيلُ السفرَ أشعثَ أغبَرَ يمدُّ يديه إلى السماء: يا ربِّ! يا ربِّ! ومطعمُه حرام، ومشربُه حرام، وملبسُه حرام، وغُذِيَ بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك!**»[1]. فهو يدعو الله ولا يستجيب له، لماذا؟ لأنه يفعل هذه المحرمات، فهو يأكل من حرام، ويشرب من حرام، ويلبَس من حرام! والله تعالى أمر أن يؤكل من الطيّب. ودلّ الحديث على أن أكل الطيّب له أثر في العبادة، في قَبولها وردّها.

فالمقصود أن ما جاءت بها الرسل، هو طريقة واحدة، وهو دينهم، وهو الإسلام لله جل وعلا، والانقياد لله بالطاعة واتباع الرسل.

قوله: «**وجَعَلَ ذلك لازمًا لرسولِه إلى الموت...**» وإذا كانت العبادة لازمة

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

وبذلك وصَفَ ملائكتَه وأنبياءَه، فقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وذم المستكبرين عنها بقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

ونعَتَ صفوةَ خلقِه بالعبودية له، فقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الإنسان: ٦]، وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣] الآيات.

ولما قال الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٠]، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

للرسول ﷺ، فغيره أولى، والمراد باليقين هنا: الموت، أي استَمِرَّ في عبادة الله ما دمتَ حيًّا.

وبعض الصوفية يقولون: المراد باليقين هنا: العلم، أي إذا جاءك العلم سقطت عنك العبادة، وإذا وصل العبد إلى الحقائق صار غير مكلف! وهذا من قلب الحقائق!! بل هذا من الضلال الذي قد لا يظفر به الشيطان، فإذا ظفر به فرح فرحًا شديدًا.

قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾، معنى الاستحسار أن يقصّر في ذلك وتنعدم الرغبة، بل عندهم الجِدّ والاجتهاد في العبادة، ولهذا قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾، فهذا تفسير لقوله: ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾.

وقال في وصف الملائكة بذلك: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ٨٨-٩٠].

وهذه الآيات في الملائكة والنبي ﷺ هي من تمام المعنى الذي مضى، وهو أن العبادة لا يخلو منها مخلوق، حتى الملائكة، فهم أُمروا بعبادة الله جل وعلا، والخضوع والذلِّ له، فقاموا بذلك، كما أخبر الله جل وعلا عنهم.

والملائكة من الغيب الذي يخبرنا الله جل وعلا به، وإلا فهم لا يُشاهَدون، ولما اقترح الكفار أن يكون الرسول ملَكًا، أخبر الله أن الملائكة غير مرئيين، وأنه لو قُدِّرَ أن يأتيهم رسولٌ ملَكٌ من الملائكة، لَجُعل بشرًا ولكان التبس عليهم الأمر، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام: ٩]، يعني: لقالوا: هذا ليس بمَلَك، بل هذا بشر! لأنهم لا يستطيعون مخاطبة الملَك.

بل حتى رسول الله ﷺ لم ير الملَك جبريل على صورته الحقيقية سوى مرتين فقط، الأولى في الأرض، فأُصيب النبي بالرعب وأُغمي عليه، صلوات الله وسلامه عليه، والمرة الثانية عند سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج(١).

---

(١) روى البخاري (٣٢٣٤) ومسلم (١٧٧) واللفظ له، عن مسروق بن الأجدع قال: فقلت يا أم المؤمنين، ألم يقل الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾ [التكوير: ٢٣]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [النجم: ١٣]؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك =

. . . .

والوحي أنواع، أشده كصلصلة الجرس، فكان إذا جاءه الملَك لتلقي الوحي يصعب على النبي جدًّا، ويغشاه أمر شديد، ويتصبب منه العَرَق في اليوم الشاتي شديد البرد صلوات الله وسلامه عليه(١).

أما إذا جاءه الملَك في صورة بشر، فهو أسهل أنواع الوحي، يخاطبه كما يخاطب البشر.

وكذلك غير الملائكة من الخلق، كلهم كُلفوا بالعبادة.

ووصفُ العبودية على نوعين: عبودية قسرية، ليس للعبد فيها اختيار.

وعبودية اختيارية، والاختيارية التي يفعلها العبد عن اختياره وعن مقدوره هي التي تنفع العبد، وهي التي يُجزى عليها. وأما القسرية فهي صفةٌ تشمل جميع الخلائق: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾﴾ [مَريَم: ٩٣]، يعني عبدًا ذليلًا تجري عليه أقداره وأوامره الكونية، ولا حيلة له في ذلك، وهذه العبودية لا تنفع العبد، وإنما ينفعه العبودية التي تصدر منه باختياره ومقدوره.

ومعنى ذلك أن معنى «العبد» ينقسم إلى قسمين:

= رسول الله ﷺ فقال: (إنما هو جبريل، لم أره على صورته التي خُلق عليها غيرَ هاتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء سادًّا عِظَمُ خَلقِه ما بين السماء إلى الأرض).
وروى البخاري (٣٢٣٢) ومسلم (١٧٤) أن زِرَّ بنَ حُبيش سُئل عن قول الله ﷻ: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ٩ ـ ١٠]، فقال: أخبرني عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى جبريل له ستُّمئةِ جَنَاح.

(١) روى البخاري (٢) ومسلم (٢٣٣٣) عن عائشة رضي الله عنها... أن الحارثَ بنَ هشام رضي الله عنه سأل رسولَ الله ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: (أحيانًا يأتيني مثلَ صلصلةِ الجَرَس، وهو أشدُّه علي، فيَفصِمُ عني وقد وَعَيتُ عنه ما قال، وأحيانًا يتمثَّلُ لي المَلَكُ رجلًا، فيكلِّمني فأَعِي ما يقول). قالت عائشة رضي الله عنها: ولقد رأيتُه ينزِل عليه الوحيُ في اليوم الشديدِ البَرْد، فيَفصِمُ عنه وإنّ جبينَه لَيَتفصَّدُ عَرَقًا.

وقال تعالى عن المسيح الذي ادعيت فيه الإلهيةُ والبُنُوّةُ[(١)]: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الزخرف: ٥٩].

عبد بمعنى مُعبَّد مذلَّل مسخَّر، وهذا يشمل كل الخلق، ولا يخرج عنه أحد، وهو لا ينفع العبد.

وعبد بمعنى عابد ذالّ خاضع يتبع أوامر الله جل وعلا، وهو الوصف الذي ينفع العبد، هذا يشمل الملائكة والعقلاء من البشر والجن، والعبودية بهذا المعنى هي المراد بأمر الله، ولأجلها كان إرسال الرسل إلى الناس.

الإلهية: معناها التأله والتعبد، أي ادُّعِيَ أنه إله. وإذا جاءت كلمة الإلهية أو الربوبية مفردةً دخل فيها معنى الثانية، وإلا فلكل واحدة منهما معنًى، كما سيأتي إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ [الزخرف: ٥٩]، أي جعلناه آيةً لهم، فالله جل وعلا نوَّع خلق بني آدم على أربعة أنواع:

فخَلَق أصلَهم وأباهم آدم من التراب، وهذا لبيان قدرته جل وعلا على كل شيء.

وخَلَق حواءَ زوج آدم من أحد ضلوعه، فهي بَضعة منه، نام نومة،

---

(١) البُنوّة، بتقديم الباء، أي ادُّعِي أنه ابنُ الله، عياذًا بالله، وقد جاءت هذه اللفظة «البُنوّة» على الصواب في رسالة العبودية طبعة المكتب الإسلامي ص٤٢. وفي شرح رسالة العبودية للشيخ عبد العزيز بن عبد الله الراجحي ص١٣.
ووردت هذه اللفظة مصحّفة إلى «النبوة» بتقديم النون، في مجموع الفتاوى طبعة ابن قاسم، وعنها طبعة مجمع الملك فهد ١٠/ ١٥١، وفي طبعة دار الوفاء بعناية عامر الجزار وأنور الباز ١٠/ ٩٢، وفي الفتاوى الكبرى تحقيق محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ٥/ ١٥٦، وفي رسالة العبودية تحقيق خالد عبد اللطيف العلمي ص٢٢، وفي طبعة علي حسن عبد الحميد ص٢١.

. . . .

فلما استيقظ إذا هي جالسة عنده، خُلقت من بَضعة منه زوجةً كاملة. وهذا أيضًا من آيات الله العجيبة.

وخَلَق عيسى عليه الصلاة والسلام من أنثى بلا ذَكَر، ولهذا ادَّعى فيه أهل الضلال والمحال أنه الله، أو أنه ابن الله، أو أنه شريكٌ لله، أو أنه ثالث ثلاثة، الله وعيسى وأمه! تعالى الله وتقدس عن قولهم. ولا يزال كثير من أهل الضلال يعتنقون هذا الباطل المحال، الذي لا تستسيغه عقول ولا فِطَر.

وقد ذكر الله مبدأ عيسى وعبوديتَه في سورة مريم: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] أي جبريل عليه السلام، ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۝﴾ [مريم: ١٧ ـ ١٨]، استعاذت بالله منه، لأنها ظنته بشرًا، وأنه يريد بها شرًّا، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ۝﴾ [مريم: ١٩]، يعني جئتُكِ بأمر من الله، ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۝﴾ [مريم: ٢٠]، تعجَبَتْ: كيف يكون لي ولد وليس لي زوج؟! ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۝﴾ [مريم: ٢١]، أي هذا أمرٌ قضاه الله جل وعلا.

﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝﴾ [مريم: ٢٣] تمنَّت الموتَ لأن الأمر شديد الغرابة، والناس لا يصدّقونها.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ أي عيسى ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ۝ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا

ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا تُطْروني كما أطْرتِ النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله ورسولُه**»[(١)].

فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ أي شديدًا عظيمًا، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ وما تكلمت بكلمة، بل أشارت نحوه أنْ كَلِّمُوه، ﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

انظروا إلى أول كلمة نطق بها أمامَهم: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠]، ومع ذلك كله يقولون: هو الله! لأنهم لا يتبعون الوحي الذي جاءت به الرسل.

فالمقصود أنه ادُّعيت فيه الإلهية والبُنوّة، فيقول الله جل وعلا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾ [الزخرف: ٥٩]، يعني تعبَّده الله جل وعلا بالعبودية وكلفه بها، فليس هو مشاركًا لله، وليس هو ابنًا لله، وليس هو الله، تعالى الله وتقدس، هو الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

قول الرسول ﷺ: «**لا تُطْرُوني**»، يعني لا تمدحوني بالباطل، والإطراء هو الزيادة في المدح والثناء، وهذا لا يزال في لغة الناس، يقولون: فلان أَطْرَى فلانًا، يعني زاد في مدحه، «**فقولوا: عبدَ الله ورسولَه**»، هكذا عبدَ، بالنصب، لأنه مقول القول، ويجوز أن يكون بالرفع، يعني هو عبد الله، أو أنا عبد الله ورسوله.

فكيف بمن يقول مثلًا يخاطب الرسول يقول:

يا أكرمَ الخلق ما لي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العَمِمِ

ما هو الحادث العمم؟ هو الذي يعم الناس، يعم كل أحد، أي يوم القيامة.

إن لم تكن في مَعَادي آخِذًا بيدي   فَضْلًا وإلّا فقُلْ يا زَلّةَ القَدَمِ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥، ٦٨٣٠)، عن عمر بن الخطاب ﷺ.

وقد نعَتَه الله بالعبودية في أكمل أحوالِه، فقال في الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١].

وقال في الإيحاء: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠].

وقال في الدعوة: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩].

ثم يقول:

ولنْ يَضِيقَ رسولَ اللهِ جاهُكَ بي إذا الكريمُ تَحَلَّى باسمِ مُنْتَقِمِ

فإنّ مِن جُودِكَ الدنيا وضَرَّتَها ومِن عُلومِك عِلْمَ اللَّوْحِ والقَلَمِ

ماذا بقي لله؟! إذا كان من جملة جُوده الدنيا والآخرة، ومن جملة علومه علمُ اللوح الذي حُفظ فيه كل شيء، وعلمُ القلم الذي خُط فيه كل شيء؟! نسأل الله العافية. فهذا من الإطراء الذي حذر منه الرسول ﷺ، وهذا كثير جدًّا في الشعراء، صار حظُّهم من رسول الله ﷺ الكذبُ! والمدحُ الذي يَرضَى به الشيطانُ ويَغضب منه رسولُ الله ﷺ.

فالمقصود: أن العبادة يجب أن تكون لله وحده، لا يشاركه فيها نبي ولا ملَك ولا ولي ولا مَن دونَهم من الخلق، فمن شرّك أحدًا من المخلوقين مع الله جل وعلا في العبادة فقط ظلم وتعدى واستحق عقاب الله جل وعلا.

قوله رَحِمَهُ اللهُ: «**وقد نعَتَه الله**»، يعني نعت رسولَه الذي هو خاتم الرسل محمد ﷺ، «**بالعبوديةِ في أكملِ أحوالِه**» التي يُثني الله جل وعلا بها عليه، مثل إنزال الوحي، قال جل وعلا: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠]، وإضافته إليه لأن له عبوديةً خاصة، قد كمّل النبيُّ ﷺ مقامها لربه جل وعلا، فهذا من أفضل خطاب الله جل وعلا له وأكمله، وكذلك في النعم التي ينعم بها عليه، فالوحي نعمة كبرى حين خصه به ليبلغها إلى عباده.

وقال في التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣].

فالدِّينُ كلُّه داخلٌ في العبادة.

وكذلك الإسراء، هو من الأمور العجيبة التي اقتضت التسبيح: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ [الإسراء: ١]، أسرى به يعني حمله في وقت قصير وجيز، ثم صَعِدَ من بيت المقدس إلى السماء بصحبة جبريل عليه السلام، حتى وصل إلى السماء السابعة، وهي مسافة طويلة جدًّا، لا يعلم مقدارها إلا الله تعالى، يقول الله جل وعلا: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة: ٥]، وقد جاء ما هو أكثر من هذا، قال الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾﴾ [المعارج: ٤]، وهذا على حسب السير في أحد أقوال المفسرين، والله أعلم.

والمقصود أنّ هذا من أشرف المقامات التي يقومها عبد الله ورسوله ﷺ.

وكذلك مقام الدعوة، ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩]، ومقام التحدي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، فهذه المقامات الأربع من أشرف مقامات الرسول ﷺ ذكره الله جل وعلا بلفظ العبودية، لأنه قام بعبودية ربه جل وعلا فكمّلها، وهي أفضل مقامات العباد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: «**فالدِّينُ كلُّه داخلٌ في العبادة**»، ومن زعم أنه يمكنه أن يخرج عن العبادة التي جاء بها الرسول ﷺ فهو كافر بالله جل وعلا، مفارق لما عليه المؤمنون.

وقد ثبت في الصحيح أنّ جبريلَ لمّا جاء إلى النبي ﷺ في صورةِ أعرابيّ، وسألَه عن الإسلام، قال ﷺ: «**الإسلام: أنْ تشهَدَ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنّ محمداً رسولُ الله، وتُقيمَ الصلاةَ، وتُؤتيَ الزكاةَ، وتصومَ رمضانَ، وتَحجَّ البيتَ إنِ استطعتَ إليه سبيلاً**». قال: فما الإيمان؟ قال ﷺ: «**أنْ تُؤمنَ بالله وملائكتِه وكُتبِه ورُسلِه والبعثِ بعدَ الموت، وتُؤمنَ بالقَدَر خيرِه وشرِّه**». قال: فما الإحسان؟ قال ﷺ: «**أنْ تعبُدَ اللهَ كأنّك تراهُ، فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنّه يراك**». ثم قال في آخر الحديث: «**هذا جبريلُ جاءكم يُعلّمُكم دِينَكم**»[١]، فجعَلَ هذا كلَّه من الدِّين.

قوله: «**فجعل هذا كله من الدين**» يعني أن الدين أنواع، فالإسلام والإيمان والإحسان هو الدين، ومعناه أنها درجات، بعضها أعلى من بعض، فالإسلام فسره في هذا الحديث بالأعمال الظاهرة بالجوارح، من الصلاة وأداء الزكاة والحج والصوم، وهذه أعمال تعمل ظاهرًا، ولا بد من مزاولتها بالبدن.

وفسر الإيمان بالأعمال التي تكون في القلب، وهي العقائد، قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر وبالقدر خيرد وشره**».

وكذلك الإحسان فسره بغاية ما يمكن أن يأتي به المرء من إحسان العمل، يعني تزكيته وإتمامه بأكمل الوجوه، فالإحسان يشمل كل ما ذكر من أعمال القلوب والجوارح، وليس كل عبد يستطيع أن يأتي بهذا، ولذلك فعباد الله يختلفون في أداء أمر الله جل وعلا، ولهذا اختلفت منازلهم عند الله جل وعلا، اختلفت رتبهم في الآخرة في الجنة.

يقول النبي ﷺ كما في صحيح البخاري: «**إن في الجنة مئةَ درجة،**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١).

والدِّين يَتَضَمَّن معنى الخضوع والذل، يُقال: دِنْتُه فدَانَ، أي أذلَلْتُه فذَلّ، ويُقال: يَدِينُ اللهَ، ويَدِينُ للهِ، أي يعبدُ الله ويطيعُه ويخضع له، فدِينُ الله عِبادتُه وطاعته والخضوع له. والعبادة أصل معناها الذل أيضاً، يُقال: طريقٌ معبَّد، إذا كان مُذَلَّلاً قد وَطِئَتْهُ الأقدام.

أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[١]، هذه فقط للمجاهدين، وهناك درجات أخرى غيرها، فكون منزلة المجاهدين مئة درجة، ما بين كل واحدة والأخرى مثل ما بين السماء والأرض، يفيد أن هناك تفاوتًا، لتفاوت ما في القلوب وما في الجوارح، لأن الله جل وعلا يجزي عباده على أعمالهم التي يعملونها امتثالًا لأمره.

فالإحسان يشمل كل عمل يأتي به الإنسان مما كُلف به وأمر به، بأن يأتي به على الوجه الأحسن الأكمل الأتم، ولهذا جعله على درجتين قال: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**»، ومعلوم أن الإنسان إذا عبَدَ ربَّه وهو يشاهده، فما يمكنه أن يدخر وسعًا في إحسان العمل، فإذا لم يصل إلى هذه الدرجة جاءت الدرجة الأخرى: أن يعبده على العلم، فإن لم تكن تشاهده فتعبده على أنه يشاهدك، وينظر إليك، ومعلوم أيضًا أن الإنسان إذا تحقق هذا الشيء واستحضره، أنه أيضًا يُحسن العمل، لكن لا يكون كالدرجة الأولى.

إذن فالإيمان والإسلام والإحسان كلها دين لله جل وعلا، وهي مقامات، ومعلوم أنها تشمل كل ما جاء به الرسول ﷺ.

وقوله: «**هذا جبريل جاء يعلمكم أمر دينكم**»، يدل على أن جبريل عليه السلام إنما يأتي بأمر الله جل وعلا، وليس من نفسه.

قوله: «**والعبادة أصل معناها..**» هذا التعريف شرح للتعريف الماضي،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠) (٧٤٢٣).

....

ولكن قصد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أن يقول: الدين يتضمن معنى الخضوع والذل في اللغة، وكذلك ما ذكره بعد هذا، ومعلوم أن كتاب ربنا جل وعلا الذي أنزله علينا هو باللغة العربية، وكذلك خطاب رسولنا ﷺ لنا، وهذا من نعم الله التي مَنَّ بها علينا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، يعني قومه الذين بُعث بلسانهم، والمقصود بالذكر هنا الشرف، أي شرف لك وشرف لقومك أنه نزل بلسانكم.

والأعجمي يصعب عليه أن يتعلم اللغة، ثم كيف يفهم ما خوطب به؟ مع أن هذا أمر واجب، كما ذكر العلماء، أنه يجب على كل مسلم أن يتعلم لغة الرسول ﷺ، حتى يعرف أمره ونهيه، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

والناس الآن يتساهلون بأمر اللغة العربية كثيرًا، وقد يحتقرون من يتعلمها ومن يأمر بتعلمها! وكل ذلك من تأثير الكفار وأذنابهم الذين يدعون إلى نبذ الدين الإسلامي وأن يستبدلوا به الأديانَ الأخرى التي هي أديان الأوضاع والشياطين، شياطين الإنس وشياطين الجن، وهذه من البلايا التي يبتلى بها الخلق، حتى يتبين من يثبت على الحق ومن ينتكس أو يتأثر بالباطل، ولا بد في هذه الدنيا من الجهاد، ولا بد من الابتلاء والامتحان حتى يتبين الصادق من الكاذب، وإذا ثبت الإنسان في الامتحان ونجح، فإنه يكرم، أو يهان عند الرسوب والإخفاق.

فالمقصود أن الدين يتضمن الذل والخضوع، ومعناه كذلك أن العبادة هي الذل والخضوع، ولهذا يقال: طريق معبد، ولا تزال هذه اللغة موجودة عند الناس، فالطريق إذا كان مسلوكًا ذالًا تحت الأقدام، ليس فيه اعوجاج ولا صعوبة، سمي معبَّدًا، والعبادة أصل معناها الذل لله جل وعلا والخضوع، كما أن الدين معناه أيضًا أن يُجزَى بالعمل الذي

لكنّ العبادةَ المأمورَ بها تَتَضَمَّن معنى الذل ومعنى الحبّ، فهي تَتَضَمَّن غايةَ الذل لله بغاية المحبّة له.

فإنّ آخِرَ مراتبِ الحبّ هو التَّتَيُّم، وأوله العَلاقة، لِتَعَلُّقِ القلب بالمحبوب، ثمّ الصَّبابة، لانصبابِ القلب إليه، ثمّ الغرام، وهو الحبّ الملازم للقلب، ثمّ العشق، وآخِرُها التَّتَيُّم، يُقال: تَيْمُ اللهِ، أي عبدُ الله، فالمتيَّم المعبَّد لمحبوبه.

ومَن خضع لإنسان مع بُغضِه له لا يكون عابداً له، ولو أحبَّ شيئاً ولم يخضع له لم يكن عابداً له، كما قد يحب الرجل ولَدَه وصديقَه، ولهذا لا يكفي أحدُهما في عبادة الله تعالى، بل يجب أن يكون الله أحبَّ إلى العبد من كل شيء، وأن يكون الله عندَه أعظمَ من كل شيء، بل لا يَستحِقُّ المحبّةَ والخضوعَ التامَّ إلّا اللهُ، وكل مَا أُحِبَّ لغير الله فمحبته فاسدة، وما عُظِّمَ بغير أمر الله فتعظيمه باطل.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ

يعمله، ويطلق على نفس العمل.

قوله: «**فهي تتضمن غاية الذيل لله بغاية الحب**» أي لا بد أن يكون مع الذلّ: الحبُّ، أمّا ذل بلا حب فقد يكون الإنسان يذل لإنسان وقلبه يلعنه، فهذا لا يكون عبادة، وإنما يذل لأنه يخاف منه ومن بطشه وظلمه، وهو أبغض الناس إليه، فإذا جاء الذل مع الحب واجتمعا صار من العبادة، فلا بد من اجتماع الذل والخوف والحب في عبادة الله جل وعلا، والعبادة من خصائص الله جل وعلا وحقوقه التي يجب أن تُخلَص لله جل وعلا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ ..﴾ هذه الأمور التي ذكرت هي الدنيا كلها، أي إن كانت الدنيا أحبَّ إليكم من الله

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

ومن رسوله ومن جهاد في سبيله فأنتم فسقة، فتربصوا عقاب الله، هذا معناه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾، الاقتراف هو التحصيل، حصلتموها بالكد والعمل.

وقوله: ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾، الكساد هو عدم الرغبة فيها، وأيضًا ألا يكون لها أثمان مرغوب فيها.

وقوله: ﴿وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾، يعني مهيَّأة ومزوَّقة ومزيَّنة.

فهذه الأمور كلها، إذا كانت أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا، انتظروا ماذا يحل بكم، فتربصوا يعني انتظروا حتى يأتي الله بأمره، الذي هو عذابه العاجل.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، يدل على أن هذا خروج عن طاعة الله جل وعلا، لأن الفسق معناه الخروج عن طاعة الله جل وعلا.

فالمقصود أن محبة الله التي تتضمن الذل والتعظيم يجب أن تكون مقدمة على كل شيء، وليس في الكون شيء يُحَبُّ لذاته إلا الله تعالى وتقدَّسَ، أما المخلوقات كلها فإذا أُحِبَّتْ فإنما تُحَبُّ لِمَعَانٍ تتصف بها، وأمور ومنافع تتعلق بها، وليست لذاتها، فالمخلوق ما يُحَبُّ من حيث إنه دم ولحم وعظام، وإنما يُحَبُّ للصفات التي يتصف بها، فإذا كان عبدًا لله فيُحَبُّ لأنه يعبد الله، ولأن الله يحبه، وأنت تحب من يحب محبوبك، وإذا كان عدوًّا لله فأنت تُبغضه لأجل ذلك.

فجِنسُ الْمحبَّة يكون لله ولرسولِه، كالطاعة، فإنّ الطّاعةَ لله ولرسولِه، والإرضاءَ لله ولرسولِه، ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، والإيتاءَ لله ولرسولِه، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٥٩].

ولهذا يقول الله جل وعلا في خطابه لنبيه: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، فتميز ﷺ بالصفات الجليلة، بأنه يُوحِي الله جل وعلا إليه، وإلا فهو بشر من البشر، وُلد من ذكر وأنثى، يشرب ويأكل كما نشرب ونأكل، وإنما فضَّله الله جل وعلا بالوحي، وكونِه تعبَّد اللهَ تعالى بعبوديته الكاملة، فهكذا كل مخلوق يجب أن يكون على هذا المنوال.

قوله: «**فجنس المحبة يكون لله ولرسوله..**» قصد شيخ الإسلام رحمه الله: أن هذا يأتي مجموعًا، المحبة والطاعة والإرضاء، وليس المقصود أن المحبة التي تكون لله هي التي تكون للرسول ﷺ أو يكون جنسها للرسول، وسبق أن قلت لكم: إن المحبة تنقسم إلى قسمين: محبة تسمى المحبةَ الخاصة، وهي التي تتضمن الذل والتعظيم، فهذه من خصائص الله، لا يجوز أن تكون لرسولٍ ولا لغيره من الخلق، لأنها هي العبادة، أما مطلق المحبة فيجب أن تكون لله ولرسوله، والله يجب أن يُحَبَّ، ولكن محبته غير محبة الرسول ﷺ، فإن محبة الله محبة ذل وخضوع وعبادة، أما محبة الرسول فهي محبة لله وفي الله، فهي تابعة لمحبة الله وبها يكمل إيمان المرء، لهذا يقول جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمران: ٣١].

وكذلك الطاعة يجب أن يطاع الله جل وعلا وأن يطاع الرسول ﷺ، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، ومثل ذلك الإرضاء، يجب أن نرضيَ ربنا ونرضيَ رسولنا ﷺ، ولكن إذا أضيفت الصفة أو الفعل إلى الله

وأما العبادةُ وما يُنَاسِبُها من التَّوَكُّلِ والخَوْفِ ونحوِ ذلك، فلا تكون إلّا لله وحدَه.

يجب أن يكون خاصًا به، ولا يكون حقه كحق المخلوق، فحقه خاص به جل وعلا، وهو العبادة، والعبادة لا يجوز أن تصدر من العبد إلا لربه تعالى وتقدس.

وأما الطاعة فكأنها سواء، لأن الذي يطيع الرسول يطيع الله، لأن أمر الرسول هو أمر لله جل وعلا، وهذا معنى قوله: «**إنها جنس**»، أن جنس ذلك يكون لله ولرسوله.

قال: «**وأما العبادةُ وما يُنَاسِبُها من التَّوَكُّلِ والخَوْفِ ونحوِ ذلك، فلا تكون إلّا لله وحدَه**»، فالعبادة والتوكل والخوف والرجاء والإنابة والتوبة وما أشبه ذلك، فهذا لا يجوز أن يشرك فيه أحد مع الله، ولا يجوز أن تقول: توكلت على فلان، كما أنه لا يجوز لك أن تقول: صليت لفلان أو صلِّ لفلان، لأن التوكل عبادة يجب أن تخلص لله جل وعلا، وهذا قد يقع من بعض الناس يقول: توكلت عليك في كذا وكذا، وهذا خطأ يجب أن ينزِّه العبدُ لسانَه منه وإن كان لا يقصد بقلبه ذلك، ويجب أن يفرَّق بين ما لله وما لعباده.

أما الرسول ﷺ من ناحية الطاعة ومن ناحية الأمر ومن ناحية الرضا، فالذي يطيع الرسول يطيع الله، لأن الرسول لا يأمر إلا بأمر الله، ولا تكون طاعته خارجة عن ذلك، ولهذا صارت طاعته طاعة لله، كما قال جل وعلا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ﴾ [النساء: ٨٠]، لأنه كما قال الله جل وعلا: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم: ٣]، فالعبادة منها الطاعة، ولهذا تفسر العبادة أحيانا بالطاعة، امتثال الطاعة على وجه الخوف والذل، ولكن إذا كانت للرسول ﷺ فهي لا تخرج عن طاعة الله جل وعلا.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقوله جل وعلا: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾، يعني نستوي بها نحن وأنتم، وهي ألا نعبد إلا الله، فالعبادة في حق الخلق كلهم يجب أن تكون لله، وكلهم فيها سواء، ومعنى ﴿سَوَآءٍ﴾ أنهم كلهم يعبدون الله، ولا يجوز أن يجعلوا شيئًا منها لمخلوق، وليس معنى ﴿سَوَآءٍ﴾ أنهم يستوون في درجة العبادة، فهم يختلفون اختلافًا كبيرًا في هذا، ولكن معناه أن العبادة يجب أن تصدر منهم لله وحده، ولهذا قال: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، فهذا الذي يلزم العباد، يلزمهم أن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئًا، وهم في هذا كلهم سواء، لأن الأمر شَمِلَهم جميعًا.

ويجب أن تكون عبادتهم لله وحده، فلا يكون بعضهم عبيدًا لبعض، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهذه الكلمة ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، قد يتعلق بها أهل الباطل، يقولون: أنتم تقولون: إن التوحيد ينقسم إلى قسمين، توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية، وهنا عبر عن توحيد الإلهية بالربوبية، مما يدل على بطلان قولكم، هكذا يقولون! كما يقول الدجوي في رسائله وكتبه التي يردّ بها الحق، وهي مُظلمة لأنها دعوة إلى الشرك.

ولا تعلق لهم بهذه الكلمة، لأن هذا يأتي من الألفاظ التي تتعاقب، ومعنى تتعاقب أن كل واحد منها إذا جاء مفرَدًا يدخل فيه الآخر، مثل التقوى والبر، والإيمان والإسلام، والفقير والمسكين، وما أشبه ذلك، وهي كثيرة في اللغة، فهذه إذا اجتمعت افترقت، يعني افترق المعنى، وإذا تفرقت اجتمعت، يعني إذا جاء أحد هذه الألفاظ وحده دخل فيه

....

المعنى الآخر، أما إذا جاءت مجتمعة فلكل واحد معنًى.

ومثال ذلك أن الرسول ﷺ فسر الإسلام بشيء والإيمان بشيء لما جاءت مجتمعة، وكذلك لما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، صار المساكين غير الفقراء في هذا لأنها اجتمعت، ولهذا فسر العلماء الفقراء بأنهم هم الذين لا يجدون الشيء من الكفاية، وأما المساكين فهم الذين يجدون بعض الكفاية ولا يجدونها كلها، ككفاية نصف السنة مثلًا أو ما أشبه ذلك، بدليل أن الله جل وعلا أخبر في قصة موسى مع صاحبه الذي هو الخضر أن المساكين كان لهم سفينة، ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، فهم مساكين وعندهم سفينة، فدل على أن الفقير أشد حاجة من المسكين.

والمقصود أن هذا من الألفاظ التي إذا جاءت مجتمعة فلكل واحد منها تفسير ومعنًى، ومثلها الإله والرب، الله والرب، ولهذا جاء في الحديث أن الإنسان إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وهو يسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فأجلساه وسألاه، يقولان له: من ربك؟ وما دينك؟ وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟[1] فمعنى من ربك هنا: من الذي تعبده؟ من هو إلهك الذي تعبده؟ والأمثلة في هذا كثيرة، فلا يُشكِلُ علينا مثلُ هذا، أو يُشبِّه علينا مُشبِّهٌ في مثل هذه الألفاظ.

فقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾ [آل عمران: ٦٤]، لأن الرب هو الذي يستحق الطاعة والعبادة، وأن يكون هو الآمرَ الناهيَ، وهو الذي يشرّع، وهو الذي له الحُكم، أما إذا نازعه منازع في الحكم

(١) أخرجه مسلم (٢٨٧١) وأبو داود (٤٧٥٣) والنسائي (٢٠٥٧) والترمذي (٣١٢٠) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبة: ٥٩]، فالإيتاء لله وللرّسول، ....

وفي التشريع، فمعنى ذلك أن هذا صار شريكًا لله جل وعلا، تعالى الله وتقدس عن ذلك.

وقوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾، يعني ادعوهم إلى هذه الكلمة، فإن أبوا فأشهدوهم على أنكم مستسلمون لله، منقادون له، مخالفون لهم في نهجهم وفي دعواهم.

وقوله جل وعلا: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾، فجعل الإيتاء لله وللرسول، ومعلوم أن إيتاء الله غير إيتاء الرسول، ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾، فجعل الحسب خاصًا لله، قالوا: حسبنا الله، ولم يقل: حسبنا الله وحسبنا الرسول، بل حسبنا الله وحده، لأن الحسيب هو الكافي، والكافي هو الله جل وعلا، أما الإيتاء فيصح أن يكون أيضًا من الرسول، وكل واحد له إيتاء يخصه، فإيتاء الرسول وإيتاء المخلوق هو سبب، وإلا فالحقيقة أن الإيتاء من الله، ولهذا كان ﷺ يقول: «**وإنما أنا قاسم والله يعطي**»[1]، فالمعطي هو الله وإنما أقسم، يعني يقسم الشيء الذي أتاه من الله.

ويقول الله جل وعلا: ﴿وأنفقو مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت﴾، فهذا من فضل الله، يرزقنا ربنا، ثم يأمرنا أن ننفق من رزقه الذي رَزَقَنا، فيُثيبنا على هذا، هل يوجد مخلوق بهذه الصفة؟ يعطيك العطاء ثم يقول لك: تصدق منه حتى أثيبك على ذلك؟ فهذا فضل الله جل وعلا.

---

(١) أخرجه البخاري (٧١) ومسلم (١٠٣٧) من حديث معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.

كقولِه: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحَشر: ٧].

وأما الحَسْبُ ـ وهو الكافي ـ فهو الله وحدَه، كما قالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣].

فالإيتاء يصح أن يكون من الله ومن الرسول، وأما الحَسْبُ فيجب أن يكون لله وحده، لأن الحَسْب هو الكافي، وهو معنى التوكل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الآية تدل على العموم، آتاكم سواء كان من أمر الله ودينه وشرعه، أم كان شيء من أمور الدنيا أعطانا إياه فيجب علينا أن نأخذه، لأنه لا يكون إلا حقًّا، ولهذا أنكر النبي ﷺ على عمر رضي الله عنه حين أعطاه العطاء، فقال عمر: أعطه أفقر إليه مني، قال عمر: حتى أعطاني مرة مالًا، فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال رسول الله ﷺ: «**خذه فتموله، وما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تتبعه نفسك**»[1].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾، المعروف أن هذه الآية نزلت في قصة أحد، لما انصرف الكفار تلاوموا فيما بينهم في أثناء الطريق، قالوا: أَنْهَكْنا شوكةَ القوم ولم نُجهِزْ عليهم، ولم نأت المدينة فنسبيَ النساء ونأخذَ الأموال، فلنرجع، فلقيهم من لقيهم، فأتوهم، وكان أميرهم كما هو معروف أبو سفيان، فقال: بلغ محمدًا أننا أجمعنا الكرة إليهم لنستأصلهم، ونأخذ أموالهم ونسبي نساءهم، فلما بلغ الصحابةَ هذا الأمرُ قال الرسول ﷺ: «قولوا حسبنا الله ونعم الوكيل»، فقالوها: حسبنا الله ونعم الوكيل[2].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٧٣) ومسلم (١٠٤٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السيرة، ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة ٣/ ٣١٥، وابن سعد في الطبقات من طريق ابن إسحاق، وموسى بن عقبة وغيرهما، انظر الكافي الشاف للحافظ ابن حجر (٢٢٥، ٢٢٧).

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي حَسْبُك وحَسْبُ مَنِ اتَّبَعَك مِنَ المؤمنين: اللهُ، ومَن ظَنَّ أنّ المعنى: حَسبُك الله والمؤمنون مَعَه، فقد غَلِطَ غَلَطاً فاحِشاً، كما قد بسطناه فِي غير هذا الموضع، وقالَ تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٣٦].

ولهذا يقول ابن عباس: هذه الكلمة قالها الخليلان في أشد المواقف وأحرجها، إبراهيم قالها لما ألقي في النار، فأنجاه الله جل وعلا منها، ومحمد ﷺ قالها حينما قال له الناس: إننا راجعون إليكم وقاتلون بقيتكم وآخذين أموالَكم، فكفاهم الله جل وعلا ذلك[1]، ثم ندبهم ﷺ إلى الذهاب إلى القوم والمسير خلفهم وقال: «لا يخرج إلا من حضر الوقعة»، فخرجوا على ما فيهم من الجراحات، فألقى الله جل وعلا الرعب في قلوب الكفار وهربوا، فلهذا قال: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٤]، فهو نصر الله الذي إذا انقاد العبد لربه جل و علا وأطاعه وتوكل عليه كفاه.

وقال جل وعلا: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾، أي وحَسْبُ أتباعِك، وأنكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ على من يقول: إن المعنى حسبُك الله وحسبُك أتباعُك! فإن هذا منكر، لأن هذا من الشرك، فالحَسْبُ يجب أن يكون لله وحده، فلا يكون لا للرسول ولا لملَك ولا لغيره، وإنما هو لله جل وعلا، فهذا من الخصائص التي يجب أن يخص بها رب العالمين، فهو كما قال الله عز وجل: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، قل: بلى هو الكافي جل وعلا وحده.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

وتحرير ذلك أنّ العبدَ يُرَاد بِهِ المعبَّدُ الذي عبّده الله، فذَلَّلَه ودبّره وصرّفه، وبهذا الاعتبارِ فالمخلوقون كلهم عبادُ الله، الأبرارُ منهم والفجار، والمؤمنون والكفار، وأهلُ الجنة وأهل النَّار، إذْ هو ربهم كلُّهم ومليكُهم، لا يخرجون عن مَشِيئتِه وقدرتِه وكلماتِه التامات، التي لا يُجاوزُهن بَرٌّ ولا فاجر؛ فما شاءَ كان وإن لم يشاؤوا، وما شاؤُوا إنْ لم يَشَأْهُ لم يكن، كما قالَ تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ٨٣].

ثم قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وتحرير ذلك أنّ العبدَ يُرَاد بِهِ المعبَّدُ الذي عبّده الله**»، أي العبد المعبَّد المذلل المسخر الذي تجري عليه أقدار الله جل وعلا، فهذا لا يمكن أن يخرج عنه أحد، المؤمن والكافر، والبر والفاجر، أهل الجنة وأهل النار، كلهم عبيد مذللون مقهورون تجري عليهم أحكام الله جل وعلا وأقداره راغبين أو راغمين، فمن كان مثلًا يرضى ويصبر فله الأجر، ومن كان يأبى ويتسخط فله السخط وعليه الوزر، لأن الخلق كلهم عبيد الله، يتصرف فيهم كيف يشاء جل وعلا. أما إذا كان العبد بمعنى عابد فهذا الذي ينفع.

إذن فالعبد يكون عبدًا بمعنى معبَّد مذلل، ويكون عبدًا بمعنى عابد خاضع ذالّ، أي يجري الفعل منه وليس من الله، فإذا كان من الله فهذا يكون عامًّا على كل أحد، أما إذا كان العبد بمعنى أنه هو عبدٌ وذَلَّ وخضَع، وهذا لا بد أن يكون بامتثال الأمر الذي جاء به الرسول ﷺ، فهذا هو الذي ينفع، وهو الذي يكون مطيعًا لله جل وعلا، ويكون ناجيًا.

وهذا التفريق واضح بيّن، وبعض الناس الذي ضلوا في هذا، مثل فريق من أهل التصوف وغيرهم، زعموا أن الإنسان ما يخرج عن

. . . .

طاعة الله، فمن خرج عن طاعة الأمر فهو داخل في طاعة القدر، ولهذا يقول أحدهم:

أصبحت منفعلًا لما تختارُه   منّي ففعليَ كلُّه طاعات

وهذا مذهب أصحاب الوحدة أو الاتحاد، وهؤلاء أشر الناس نسأل الله العافية، وإن زعموا أنهم من العارفين.

فالوحدة هي وحدة الوجود، والاتحاد زعموا أن الخالق اتحد مع المخلوق، كما تقول النصارى: حل اللاهوت بالناسوت، فهؤلاء دينهم شبيه بدين النصارى، يزعمون أن الله في كل مكان، تعالى الله وتقدس، ثم يقولون: إننا لا نخرج عن الطاعة، حتى قال من يزعمون أنهم عارفهم وسيدهم ومقدَّمهم ـ لمّا أُنكِرَ عليه هذا ـ قال له رجل: قولك هذا يدل على أنه لا فرق بين الخمر والماء! قال: وهو كذلك، ولكن هؤلاء المحجوبون لما قالوا: هذا حرام، قلنا: عليكم، أما نحن فليس هناك شيء علينا حرام، لأننا وصلنا إلى الحقيقة، وعرفنا حقائق الأمور، فقال له: إذن ما الفرق بين الزوجة والأم؟ قال: لا فرق!

وصلوا إلى هذا الحد! نسأل الله العافية، فهو ضلال منتهٍ، والشيطان نفسه ما وصل إلى هذا الضلال، وهذا من عجائب بني آدم، فإن ابن آدم من أعجب الأشياء، في أفكاره وسلوكياته، قد يكون مثلًا في مصافّ الملائكة، وقد يكون الشيطان يقصُر عن عمله! وما يستطيع أن يصل إلى ما وصل إليه! فيأتي بدقائقِ كفرٍ ما استطاع الشيطان أن يعرفها، فهو من أعجب المخلوقات!.

ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٤-٥]، ليس معنى ﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾﴾ أنه

فهو سبحانَه ربُّ العالمين، وخالقُهم ورازقهم، ومُحيِيهِم ومميتُهم، ومقلِّبُ قُلوبِهم، ومصرِّفُ أُمورِهم، لا ربَّ لهم غيرُه، ولا مالكَ لهم سِواهُ، ولا خالقَ لهم إلّا هو، سواءٌ اعْتَرَفُوا بذلك أو أنكروه، وسواءٌ علموا ذلك أو جهلوه؛ لكن أهل الإيمان منهم عرفوا ذلك وآمنوا به؛ بخلاف من كان جاهلاً بذلك؛ أو جاحداً له مستكبراً على ربه، لا يُقر ولا يخضع له؛ مع علمه بأنّ الله ربُّه وخالقُه.

فالمعرفة بالحقِّ إذا كانت مع الاستكبار عن قَبُولِه والجحدِ له، كان عذاباً على صاحبِه، كما قالَ تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النَّمل: ١٤].

وقالَ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البَقَرَة: ١٤٦].

وقالَ تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعَام: ٣٣].

يرد في جهنم فقط، وجهنم هي أسفل سافلين، ولكن حتى في أخلاقه وفي سلوكياته، يكون أسوأ من الكلاب، وتكون الكلاب والحيوانات خيرًا منه، فإذا هداه الله جل وعلا وتولاه، فإنه يكون من أفضل المخلوقات، وإلا صار شر المخلوقات، ولهذا جعلت له النار، التي هي شر قرار! نسأل الله العافية.

قوله: «**فالمعرفة بالحق..**» المعرفة يجب أن تكون بالوحي، والتفريق بين نوعَي العبد يجب أن يكون بالوحي، والعبادة يجب أن تكون بالوحي، فيجب أن يكون الوحي هو الذي يُسترشَد به، ويُستدَلّ به، لا العقل ولا السلوك ولا المناهج التي يكون لها أرباب، ويكون لها قواعد تُقعَّد لبعض الناس.

فإذا عرف العبدُ أن الله ربُّه وخالقه، وأنه مفتقِرٌ إليه، محتاجٌ إليه، عرف العبوديةَ المتعلقةَ بربوبية الله، وهذا العبدُ يسألُ ربَّه ويتضرعُ إليه، ويتوكل عليه، لكن قد يطيع أمرَه وقد يعصيهِ، وقد يعبده مع ذلك، وقد يعبد الشيطان والأصنام، ومثل هذه العبودية لا تفرق بين أهل الجنة وأهل النار، ولا يصير بها الرجل مؤمناً، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يُوسُف: ١٠٦].

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فإذا عرف العبدُ أن الله ربُّه وخالقه، وأنه مفتقِرٌ إليه، محتاجٌ إليه، عرف العبوديةَ المتعلقةَ بربوبية الله**»، ويكون قد سلك الطريق الذي خُلق له، وسلك طريق السعادة، فالعبودية هي حاله، وهو لا يخرج عن العبودية، لا يمكن أن يقول: أنا حر لا تجري علي عبودية، هذا مستحيل، ولكن إذا خرج عن عبودية الله دخل في عبودية المخلوق الذي هو نظيره ولا بد، فيكون عبدًا لشهواته، عبدًا لبطنه وفرجه، أو عبدًا لرئيسه، أو قد يكون عبدًا لِلُعْبتِه التي يلعبها، ويذهب عمره فيها دون طاعة، فلا بد أن يكون عبدًا، ثم النتائج تختلف.

ففي صحيح البخاري[1] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «**تَعِسَ عبدُ الدينار، والدرهم، والقَطِيفةِ، والخَمِيصةِ، إنْ أُعطِيَ رَضِي، وإنْ لم يُعْطَ سَخِط، تعِس وانتَكَس، وإذا شِيكَ فلا انْتَقَش**»، فسماه عبدًا للدينار والدرهم، وعبدًا للملبوس، وبيّن معنى عبوديته لذلك بقوله: «إنْ أُعطِيَ رَضِي، وإنْ لم يُعْطَ سَخِط»، يعني أنه يعمل لهذه الأشياء، وليس المعنى أنه يصلي ويسجد للدينار، أو الدرهم أو القطيفة أو الخميصة، ولكنه يعمل من أجلها، ولا يعمل لله جل وعلا، ولهذا صار عبدًا لها.

---

(١) صحيح البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥).

فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم، وهم يعبدون غيرَه! قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٧].

وكثيرٌ مِمَّن يتَكَلَّم فِي الحقيقة، فيَشهدُها، لا يشهدُ إلّا هذه الحقيقةَ، وهي الحقيقةُ الكونيةُ التي يشتركُ فيها وفي شهودِها وفي مَعْرفتِها المؤمنُ والكافرُ، والبَرُّ والفاجر، بل وإبليسُ مُعترِفٌ بهذه الحقيقةِ وأهلُ النَّار.

فالمقصود أن الإنسان لا يخرج عن العبودية، ولكن من عدل الله جل وعلا أن العبد إذا خرج عن عبوديته جعله عبدًا لنظيره، لمن هو مثلُه أو أحقرُ منه، والله جل وعلا يقول: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، فالهوى يكون إلهًا مألوهًا للإنسان، إذا اشتهى شيئًا فعله! سواءٌ كان موافقًا للحق أم مخالفًا! لا يبالي، وهذا الذي يزعم أنه حر، وهو في الحقيقة ليس حرًّا، بل هو مكبل بالقيود، وسوف يرجع إلى ربه جل وعلا، ثم يحاسبه ويجزيه بعمله.

وقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فإن المشركين كانوا يقرون أن الله خالقهم ورازقهم**»، هذا قد تقدم أنهم إذا سئلوا: من الذي خلقهم؟ قالوا: الله، وهذا الأمر ذكره الله جل وعلا في آيات عدة، أنهم إذا سئلوا عن المخلوقات يقرون بأن الله هو الذي خلقها وهو المتفرد بخلقها.

قوله: «**وإبليس معترف بهذه الحقيقة**» المقصود بالحقيقة هنا: الوصولُ إلى حقيقة هذا الأمر بالنظر والعلم، وهذه لا تجعل الإنسان مسلمًا، فضلًا عن أن توصله إلى مصاف العارفين بالله جل وعلا وأهل

....

المقامات، لأن الكفار كلهم فيما ذكر الله جل وعلا في دعوة الرسل لهم كانوا يقرون بها، وكانوا يعترفون أن الله هو ربهم الخالق لهم، والرازق والذي خلق السماء وخلق الأرض، وهو الذي ينبت النبات.

أما الشذاذ من بني آدم الطغاة الكبار، مثل النُّمروذ وفرعون، فهم ينكرون هذا بألسنتهم ظاهرًا، ولكنهم في قرارة أنفسهم معترفون به، ولهذا فإن فرعون، وهو الذي يقول: أنا ربكم الأعلى، ما علمت لكم من إله غيري، لما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فقيل له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: ٩١]، الآن لا يفيدك إيمانك، لأنك الآن صرت في الموت، وإذا تحقق وقوع الموت فما يفيد الرجوع والتوبة.

كذلك النُّمروذ الذي قال له إبراهيم: ربي الله، ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، فقال النمروذ: ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ﴾، كيف يحيي النُّمروذ ويميت؟ يأمُرُ برجل فيُقتَل، ويعفو عن رجل فلا يقتله، فهذا عنده هو مفهوم الحياة والموت! وهذا من المغالطات، فلما رأى إبراهيم عليه السلام هذه المغالطة عدل عن هذا إلى شيء لا يستطيع أن يغالط فيه، ﴿قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾، فباءت دعوة النُّمروذ بالفشل وتبين كذبه في ذلك، وكان في كلام إبراهيم دليلٌ على عجزِه، وعلى أنه مقهور مسخر.

فالمقصود أن هذا أمر أجمع عليه أهل الأرض، أما الشذاذ الذين ينكرونه مثل هؤلاء فلا عبرة بهم، لأنه إنكار للواقع، ومعلوم أن كثيرًا من الناس إنما هم رَعاع، يتبعون كل ناعق، ولاسيما إذا كان عنده قوة، فلهذا لما قال لهم فرعون: أنا ربكم الأعلى، اتبعوه، ولما قال لوزيره: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ

قال إبليس: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [صٓ: ٧٩].

﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩)﴾ [الحجر: ٣٩].

وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [القَصَص: ٣٨]، لأن موسى عليه السلام أخبره أن الله في السماء، فهل يمكن أن يكون رجلٌ عاقلٌ ـ ولو كان عنده شيء من العقل لا العقل الكامل ـ يصدِّق أن رجلًا يبني بناء ثم يصل إلى السماء بهذا البناء! لولا المغالطات وقلب الحقائق وجعل الباطل بمنزلة الحق! ثم تراهم يصدّقونه!

والناس يدركون هذه الأمور ويعرفونها، يقال: رجل كان فقيرًا، كان له أصحاب، وكانوا يجتمعون على الطعام، فاعتذر لهم مرة لأنه لم يجد طعامًا، وقال: الطعام الذي أردت أن آتي به أكله الفأر، فزجروه ولم يصدقوه، وقالوا له: كذاب! فالفأر لا يأكله، ثم قُدِّر أن الرجل اغتنى، وصاروا يحترمونه، فأراد يومًا أن يبين لهم أن أفعالهم إنما هي حسب أهوائهم، فقال: عندي حديدة كبيرة أكلها الفأر، قالوا: هذا ممكن، الفأر قد يأكلها، قال: يمكن لما صار عندي المال! أما قبلُ لما قلت لكم: الطعام أكله الفأر قلتم لا، كذاب.

فالمقصود أن طبيعة الناس هكذا، يتبعون القوي، يتبعون الذي يكون له سلطة عليهم، وإن كانوا في قرارة أنفسهم لا يصدقون بعض ما يقوله.

قوله: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ يعني شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أنه حتى إبليس يعترف بالربوبية، لأنه قال: ﴿رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، يعني أن إبليس يطلب من ربه، فإبليس كان عارفًا بهذا، ولهذا يقول العلماء: إن إبليس هو أعرفُ من بعض الناس بربه جل وعلا.

قوله: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ نسب إبليس الإغواء إلى ربه جل وعلا،

وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].

وقال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢].

وأمثال هذا من الخطاب الذي يُقِرُّ فيه بأنّ الله ربُّه وخالقُه وخالقُ غيرِه.

والواقع أنه هو الذي غوى، وهو الذي اختار الضلال، لأن الله لما أمره بالسجود كان يستطيع السجود، ولكن أبى، سجدت الملائكة وهو أبى، لما سأله ربه: لماذا لم تسجد كما سجدت الملائكة؟ أي أن المفروض عند إبليس أن هذا الأمر ينعكس، أنه هو يسجد لي، فهو اعتراض على الله، فهو جعل نفسه حاكمًا على ربه! تعالى الله وتقدس، ولهذا باء بالخزي، والعياذ بالله.

وقوله: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هذا قسم من إبليس، يقسم بأنه سوف يزين لهم في الأرض ويغويهم أجمعين، وهو مثل قوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾، يعني أجعلهم تحت حنكي أتصرف فيهم، وقال الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ [سبأ: ٢٠]، فظنّه الذي ظنّ صَدَقَ به، فأكثرهم أطاعوه واتبعوه!.

وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ علم إبليس أن منهم من لا يطيعه، بل يكون مؤمنًا بالله، وأنه لا يكون له عليهم سلطان، وهم عباد الله الذين استثناهم، ولكن هذا فضل من الله، وفضل الله جل وعلا يطلب منه، وله طرق وله أسباب، فمن ترك الأسباب لم يتحصل على ذلك، وأسبابها أولًا: القبول عن الله جل وعلا، ثم الرغبة بما عند الله جل وعلا بالدعاء والخضوع والذل.

قوله: «**وأمثال هذا من الخطاب الذي يُقِرُّ فيه بأنّ الله ربُّه وخالقُه وخالقُ غيرِه**» يعني أن الربوبية لم ينكرها أحد، ومعنى الرب في اللغة:

وكذلك أهلُ النَّار قالوا: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦].

وقالَ تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ﴾ [الأنعام: ٣٠].

فمن وقف عندَ هذه الحقيقةِ وعندَ شُهودِها، ولم يقُمْ بما أمر الله به من الحقيقةِ الدِّينيّةِ التي هي عبادتُه المتعلّقةُ بأُلوهيّتِه وطاعةِ أمرِه وأمرِ رَسُولِه كان من جنس إبليسَ وأهلِ النّار.

الخالق المتصرف المدبر، أما «الله» فمعناه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين كما قال ابن عباس، قال: الله ذو الألوهية، يعني صاحب الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، يعني كلهم يجب أن يألهوه ويعبدوه. فهناك فرق بين الله وبين الرب، والإله مأخوذ من الله، فالله أصله إله، كما يقول أهل اللغة، حُذفت منه الهمزة، ثم أدخلوا عليه اللام، وفخموها، فصار: «الله».

قوله: «**وكذلك أهلُ النَّار قالوا..**» يعني أن أهل النار يعترفون بذلك أيضًا، والأمر ظاهر.

قوله: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾، الإشارة إلى ما هم فيه، فالحق في اللغة هو الشيء الثابت المستقر، يعني هذا الذي جاءتكم به الرسل وبأخباره فهو الحق الذي تشاهدونه، ولهذا قالوا: بلى وربنا هو الحق، ولكن لا تفيد اعترافات هذا اليوم.

قوله: «**فمن وقف عندَ هذه الحقيقةِ**»، يعني حقيقة الربوبية، حقيقة كون الأشياء كلها بتصريف الله جل وعلا وتدبيره لخلقه وإيجاده، هذه حقيقة، ولكن الاعتراف بهذه فقط لا يُجدي، مع أنه لا بد منها، بل لا بد أن يضاف إليها أيضًا المعرفة بالعبودية والإقرار بها، والعمل بها.

فإنْ ظنَّ مع ذلك أنه من خَوَاصِّ أولياءِ الله وأهلِ المعرفةِ والتَّحْقيق، الّذين سقط عنهم الأمرُ والنَّهْيُ الشَّرْعيّانِ، كان من أَشرِّ أهلِ الكفْر والإلحاد.

ومن ظنّ أنّ الخَضِرَ وغيرَه سقَط عنهم الأمرُ لمشاهدةِ الإرادةِ ونحوِ ذلك، كان قولُه هذا من شَرّ أقوالِ الكافرين بالله ورسولِه.

قوله: «**الذين سقط عنهم الأمر والنهي**» فلا يسقط الأمر والنهي عن أحد من الناس ما دام عقله مستقرًّا عنده، فالأوامر التي جاءت عن الله يجب أن تفعل، ويجب أن تمتثل حسب الاستطاعة، هذا من فضل الله حسب الاستطاعة، ويخطئ كثير من المسلمين، أقصد بذلك المرضى الذين يقعون في المرض وتُجرَى لهم عمليات، يقول أحدهم: لا أصلي حتى أبرأ، فلا يصلي! يقول: أنا لا أستطيع أن أتوضأ، ولا أستطيع أن أقوم، ولا أستطيع أن أسجد، وهذا كله خطأ، بل يجب عليك أن تصلي حسب استطاعتك، إذا لم تستطع أن تتوضأ فتيمم، وإذا لم تستطع أن تتيمم فتصلي حسب الاستطاعة، ولو بنيتك، فما دام العقل موجودًا فالصلاة لا تسقط بحال من الأحوال، فإذا غاب العقل فلا تكليف.

قوله: «**ومن ظنّ أنّ الخَضِرَ وغيرَه سقَط عنهم الأمرُ**» يقصد شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ، الذين استدلوا بقصة الخضر على أنه غير مكلف، لأن الخضر خرب السفينة، أزال منها لوحًا، وإذا أزال اللوح ودخلها الماء غرقت، وكذلك وجد صبيًّا يلعب مع الأطفال فقتله، وهذا معناه كما يقول هؤلاء: أنه سقطت عنه التكاليف، وإلا فما يجوز قتل الصبي، وقالوا أيضًا: إنه بنى الجدار الذي أراد أن ينقض، مع أن أهل القرية أساؤوا إليهما، ولم يضيفوهما، والضيافة حق يجب أن يقدم للضيف، فإذا لم تقدم ضيافته فله أن يأخذ بقدر حقه من أمواله، ولو لم يعلم ذلك، فهؤلاء قالوا: إن الخضر عكس القضية، قالوا: فكل هذا يدل

حتّى يدخُلَ في النّوْع الثّاني من معنى العَبْد، وهو العَبْدُ بِمَعْنى العابد، فيكون عابداً لله، لا يعبد إلّا إيّاه، فيطيع أمرَه وأمرَ رسلِه، ويوالي أولياءَه المؤمنينَ المتّقينَ، ويعادي أعداءَه.

على أنه سقطت عنه الأوامر!

وهذا ضلال واضح! فقد فسر الخضر لموسى عليهما السلام أفعاله هذه بأنها أمور لم تخرج عن طاعة الله، فقال: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، وهذا يدل على أنه نبي، وأنه يوحى إليه.

قوله: «**حتى يدخل في النوع الثاني من معنى العبد**»، ومن هنا يتبين أن التوحيد ينقسم إلى قسمين، توحيد عبادة، وتوحيد ربوبية، فتوحيد العبادة توحيد الله بفعل العبد، وفعل العبد يجب أن يكون بامتثال الأمر الذي جاء به الرسول، وتوحيد الربوبية يكون بعبادة الله بأفعاله هو، أي أنه متفرِّدٌ بالخلق والإيجاد والتصرف، والإحياء والإماتة، وأنه لا يشاركه أحد، وأنه واحد في هذا.

ولا بد أن يضاف إلى هذا توحيد الأسماء والصفات، لأنها خاصة به لا يشاركه فيها أحد، وهو واحد فيها.

فهذه الأقسام الثلاثة أمر ضروري، والأدلة عليها واضحة، كما قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ [النَّاس: ١-٣]، فرب الناس يدل على توحيد الربوبية، وملك الناس دليل على توحيد الأسماء والصفات، وإله الناس دليل على توحيد الإلهية، وهذا كثير في القرآن، ولكن هؤلاء الذين ينكرون هذا يريدون أن ينص على هذا الشيء، فيقال: توحيد الربوبية كذا وكذا، وهو واضح، والصحابة لم يكونوا يحتاجون إلى هذا، لأنهم أهل اللغة ويعرفونه، أما الذين بَعُدَ عهدُهم عن لغة الرسول ﷺ وعن بيانه للحق، فقد يشكل عليهم.

وهذه العبادةُ مُتعلّقةٌ بالإلهية لله تعالى، ولهذا كان عنوانُ التَّوْحِيد: لا إلهَ إلّا الله.

بِخِلافِ من يُقِرُّ بربوبيته ولا يعبُده، أو يعبد معه إلهاً آخر.

فالإلهُ هو الّذي يَألَهُه القلبُ بِكَمالِ الحبّ والتعظيم، والإجلال والإكرام، والخوفِ والرجاءِ، ونحوِ ذلك.

وهذه العبادةُ هي الّتي يُحِبّها الله ويرضاها، وبها وصف المصطَفَيْنَ من عبادِه، وبها بعث رسلَه.

قوله: «**وهذه العبادةُ مُتعلّقةٌ بالإلهية لله تعالى**» ومعنى «لا إله إلا الله» ـ كما هو معلوم ـ أنه لا يُؤلَهُ ولا يُعبد إلا الله وحده، وكلمة «إله» اسم جنس، وهذا باتفاق أهل اللغة ولا يخالف فيه أحد، ولهذا صح هذا النفي والاستثناء، ولو لم يكن اسم جنس لَمَا صح هذا النفي والاستثناء.

واسم الجنس هو الشائع في نوعه، فالإله يطلق على الإله الحق والإله الباطل، ولهذا صار النفي والإثبات للحصر، حصر التأله في الله جل وعلا، وإذا وجد هذا بطلت إلهية غيره.

فالمشركون كانوا يتخذون آلهة كثيرة، ولما قال لهم الرسول ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله»، أنكروا ذلك وقالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ [صَ: ٥]، والآلهة جمع إله، جعلها إلهًا واحداً، يعني جعلها لله وحده، ثم قالوا: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ [صَ: ٧]، يعني كذب، لأنهم يريدون أن يبقوا على ما كان عليه آباؤهم.

ثم لما أخبرهم أن هذا باطل، وأنه خلاف الحق، قالوا: سب آباءَنا وشتم آلهتَنا، وسفّه أحلامنا، والواقع أن أحلامهم سفيهة، والرسول لم يبعث شَتّامًا ولا لَعّانًا ولا طَعّانًا، ولكن هم جعلوا ذلك شتمًا وطعنًا، إذْ

وأمّا العَبْدُ بِمَعْنى المعبَّد، سواءٌ أَقَرَّ بذلك أو أنكرَهُ، فهذا المعنى يَشتركُ فيه المؤمنُ والكافرُ. وبالفرق بين هذَيْن النَّوْعَيْنِ يُعرَف الفرقُ بينَ الحقائقِ الدِّينيّةِ الدّاخلةِ في عبادةِ الله ودِينِه وأمرِه الشَّرْعِيّ، الَّتي يُحِبّها ويرضاها، ويُوالي أهلَها، ويُكرمُهم بجنته، وبينَ الحقائقِ الكونية الّتي يَشتركُ فيها المؤمنُ والكافرُ، والبَرُّ والفاجر، الّتي مَنِ اكْتفَى بها ولم يتبع الحقائقَ الدِّينيّةَ كان من أتباعِ إبليسَ اللعينِ، والكافرينَ بِرَبّ العالمين، ومَنِ اكْتفَى فيها بِبَعضِ الأُمُور دونَ بعض، أو في مَقامٍ دونَ مَقام، أو حالٍ دونَ حالٍ، نَقَصَ من إيمانِه وولايتِه لله بِحَسب مَا نَقَصَ من الحقائقِ الدِّينيّةِ، وهذا مَقامٌ عظيم، غَلِطَ فيه الغالِطون، وكثُر فيه الاشتباهُ على السالكين، حتّى زَلِقَ فيه من أكابرِ الشُّيُوخ المدَّعِين للتحقيقِ والتوحيدِ والعِرفان، ما لا يُحصِيهم إلّا الله الّذي يعلم السِّرَّ والإعلان.

بين لهم أنهم في ضلال. والمقصود أن الإلهية غير الربوبية.

قوله: «**حتى زلق فيه من أكابر الشيوخ المدعين للتحقيق والتوحيد والعرفان**» يقصد بذلك بعضَ أهل التصوف، الذين زعموا أنهم هم العارفون، ولكنهم في الواقع ضلوا في توحيد الله، ووقعوا في الشرك الظاهر البين، فصاروا يدعو بعضُهم بعضًا، ويقولون: إن هذه هي الحقيقة التي يجب أن يُوصَل إليها، وهي أن الله جل وعلا هو الذي يصرف العبد، فإذا لم يطع العبد الأمر الذي جاء به الرسول، فقد أطاع القَدَرَ الذي قدره الله، ونحن نتقلب في أقدار الله وفي طاعته.

وهذا الذي يرضاه الشيطان ويريده، لأن هذا الضلال إذا وصل إليه العبد يصعب إرجاعه إلى الحق.

وإلى هذا أشارَ الشَّيْخُ عبدُ القادر كَلَلهُ فيما ذُكِر عنه، فبَيَّنَ أنَّ كثيراً من الرِّجالِ إذا وصلوا إلى القضاءِ والقَدَر أمسكوا، إلّا أَنَا، فإنّي انفَتَحَتْ لي فيه روزنةٌ، فنازعتُ أقدارَ الحقِّ بِالحقِّ للحَقِّ، والرجلُ مَن يكون منازِعاً للقَدَر، لا من يكون مُوَافِقاً للقَدَر.

وقوله: «**الشيخ عبد القادر**» هو الشيخ عبد القادر الجِيلاني، وليس هو من العلماء الكبار، ولكن لما كان الناس يعظمونه، وقد جعلوا له هالة كبيرة، فصنفوا فيه مصنفات، وذكروا له كرامات كثيرة، فصار هذا دعوةً إلى عبادته، نسأل الله العافية.

وكثير من الناس لا يكتفي بالحق، ويكون الباطل مُعجِبًا له، وصار له بهذا المعنى من يعظّمُه ويذهب إلى قبره ويطوف به ويعبده، فقبرُه معبودٌ من أكبر المعبودات! وهو في العراق، ثم انتشر الأمر حتى وصل إلى أقطار شتى، ويعجب الإنسان، فإنه إذا كان معبودًا في العراق فإنه معبود في الهند والباكستان، وبعض بلاد إفريقيا، وفي الشام وفي غيرها من البلاد، وكل فريق يدعي أنه عندهم!

حتى قال لي بعض الذين ذهبوا للدعوة في الهند: التقيت بمشرك كبير، فأردت أن أدعوه فقال: أنا مقتنع بما أنا فيه، أنا من أتباع عبد القادر الجِيلاني، قلت: هذا شرك بالله! أنّك تدعوه وتستنجد به في الشدائد وغيرها، فقال: لا تكلمني، أنا مقتنع بما أنا فيه، لأني وجدت ذلك حقًّا، فقلت له: كيف وجدت ذلك؟

قال: ذهبت أنا واثنان معي إلى بلد كذا في الهند، فصرنا في البرد الشديد، ولم نجد من يؤوينا، وكاد البرد يقتلنا، فاستغثنا بعبد القادر فجاءنا ببطانيات وتلحفنا بها واتقينا بها البرد، فلهذا أنا مقتنع به، فقلت له: هذا الذي جاءك شيطان! أراد أن يضلك، فسرق البطانيات من أحد الحوانيت وجاءك بها حتى تقتنع بهذا، ولكنه لم يُجْدِ معه الكلام، فنسأل

. . . .

الله العافية من هذا.

فالعقول تذهب، وإلا فكيف مقبور في العراق يأتيك ببطانيات؟ أحَيِيَ وخرج من قبره حيًا وجاءك؟! يقول: نعم يخرج، لأنه ولي من الأولياء، فيكابرون، يكابرون العقول والواقع، وكل هذا ضلال بين واضح.

فالمقصود أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ إنما ذكره لأنه مشهور عند الناس، ويريد أن يبين أنه ليس على ما يقولون، أنه ليس من الذين يدعون إلى عبادته، كما يفعله بعض الصوفية، كما يذكر الشعراني في كتابه الذي سماه طبقات الأولياء، ويذكر عن بعض سادته أنه لما حضره الموت صار يوصي أصحابه يقول: يا أصحابي إذا بدا لأحدكم حاجة فليأتِ إلى قبري، فلا خير فيمن يحول بينه وبين قضاء حوائج أصحابه ذراع من تراب. نسأل الله العافية! هذا دعوة إلى الشرك صريحة، وهو يكون رميمًا تأكله الديدان، فكيف يقضي حوائج أصحابه؟! ومع ذلك يصدقون ذلك، ويكتب في الكتب وتطبعه المطابع، ثم ينشر بين المسلمين، وهذا من أسباب عبادة غير الله جل وعلا.

فالشيخ عبد القادر له قبر يعبد، وهذا مشهور جدًا، ولكنه ليس من الذين يدعون إلى عبادة أنفسهم، بل يتبرأ من هذا، وقد وقع له قصة ذكرها، والله أعلم بصحتها، يقول: إني كنت في بادية في مسير، فأصابني عطش شديد كدت أن أَهلِكَ، فأظلتني غمامة، فنوديت منها: يا عبد القادر، أنا ربك، قد أبحتُ لك كل شيء! فقلت: كذبتَ! أنت الشيطان، فقال: نَفَعَك فقهُك، كم أضللتُ بهذه الطريقة من الناس غيرَك، فعرف الشيخ عبد القادر أن هذا الشيطان، لأن الله جل وعلا لا يبيح المحرمات، ولا يأمر بها.

....

والشيطان قد يأتي للإنسان بأشياءَ غريبة، لأجل أن يضله، والشياطين قد تتراءى للناس، لأجل إضلالهم، لأنهم من أحرصِ ما يكون على إضلال بني آدم.

فالمقصود أن ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ للشيخ عبد القادر ليس لأنه من المحققين الكبار، وإنما لشهرته، وله أيضًا كتب في العقيدة وفي الفقه كالغنية وغيرها، ويقول: إنه على الحق.

ثم إن قول الشيخ عبد القادر هذا قد قاله عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبله، فلما خرج عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالمسلمين إلى الشام وصار في أثناء الطريق، بلغه أن بالشام وباء الطاعون، فرجع بالصحابة، فقال له أبو عبيدة: أفِرارًا من قدر الله يا أمير المؤمنين؟ فقال له عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة! ثم قال: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، ثم قال له: أرأيت لو كان لك إبل، وكان هناك وادٍ مُخْصِبٌ وآخَرُ مجدب، أيهما ترعى؟ فقال: أرعى المخصب، فقال: كذلك نحن لا نَقْدَمُ على الوباء ونحن سالمون منه.

فجاءه عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ وكان متغيبًا في بعض حاجته ـ فقال: عندي في هذا علم عن رسول الله ﷺ، إني سمعته ﷺ يقول: «**إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدَموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه**»، فحمد الله عمرُ أنه في نظره وفي رأيه وافق ما قاله الرسول ﷺ[1].

والمقصود أنه قال: نعم نفرّ من القدر إلى القدر، لأن الإنسان لا يخلو من القدر أبدًا، ولكن الأقدار التي قدرها الله جل وعلا يجب على

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٢٩، ٥٧٣٠، ٦٩٧٣)، ومسلم (٢٢١٩).

والّذي ذكره الشيخُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو الّذي أمَرَ الله به ورسولُه، ولكنْ كثيرٌ من الرِّجَالِ غَلِطوا فيه! فإنّهم قد يَشْهدونَ ما يُقدَّرُ على أحدهم من المعاصي والذنوب، أو ما يُقدَّر على النَّاس من ذلك، بل من الكفْر، ويَشْهدُونَ أنّ هذا جارٍ بِمَشِيئةِ الله وقضائِه وقدَرِه، داخِلٌ في حُكم ربوبيّتِه ومُقْتَضَى مَشِيئتِه، فيظنون الاستسلامَ لذلك وموافقتَه والرِّضَا به ونحوَ ذلك دِيناً وطريقاً وعبادةً! فيضاهِئُون المشركينَ الّذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقالوا: ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾ [يس: ٤٧]، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ﴾ [الزخرف: ٢٠].

ولو هُدُوا لَعَلِموا أنّ القَدَرَ أُمِرْنا أنْ نَرضَى به ونَصْبِرَ على مُوجَبِه في المصائب الّتِي تصيبنا، كالفقر والمرض والخوف، قال الله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ [التغابن: ١١]، قال بعض السّلف: هو الرجل تصيبه المصيبةُ، فيَعلم أنّها من عندِ الله، فيرضَى ويُسلّم.

الإنسان أن ينظر في الصالح له منها، الموافق للشرع.

قول المشركين الذي ذكره الله: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، هم يعارضون بذلك الشرع الذي جاء به الرسول ﷺ، وليس أنهم يؤمنون بالمشيئة العامة الشاملة، فهم يقولون: الشرك وقع بمشيئة الله، وهذا دليل على رضاه، وأنت تأمرنا أن نتركه، فهو دليل على أن قولك غير صحيح! فهم أرادوا بقولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾، أن يردوا الشرع الذي جاء به المصطفى، وليس أنهم يؤمنون بأقدار الله ويسلمون لها، وكذلك بقية الآيات على هذا النحو.

قوله: «**قال بعض السلف**» وهذا قاله علقمة بن قيس تلميذ ابن مسعود، قال: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى

وقالَ تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الحديد: ٢٣ ـ ٢٤].

ويسلم[(١)].

وقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ [التغابن: ١١]، يعني إلا بإذنه الكوني القدري، ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ [التغابن: ١١]، وهذا الإيمان في الآية فسره بقوله: إنه يعلم أنها من عند الله، فيرضى بها ويسلم، ويكون جزاؤه زيادة الهدى، يَهدي الله جل وعلا قلبَه.

قوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾، يعني أن المصيبة قد تكون عامة أو في الأنفس خاصة، فالعامة التي تكون في الأموال وفي الجدب وفي الحروب وفي غيرها، أو بأنفسكم من مرض أو موت أو غير ذلك، ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾، يعني أنها مكتوبة قبل إيجادكم، وقبل وجود الخلق، كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرٍو قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشُه على الماء»[(٢)].

وقوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ﴾، الضمير هنا يعود على شيء لم يذكر، ولكنه مفهوم من الآية، وهو النفس التي أصيبت بالمصيبة، فالمصيبة مكتوبة قبل وجود هذه النفس، ثم قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، والإشارة بكلمة ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى كونه يعلم الأشياء قبل وجودها، ويكتبه ويقع على وفق علمه وكتابته جل وعلا.

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في تفسيره، وابن المنذر في تفسيره، والبيهقي في شعب الإيمان ١٩٦/٧ (٩٩٧٦) عن علقمة. انظر الدر المنثور للسيوطي سورة التغابن.

(٢) صحيح مسلم (٢٦٥٣).

وفي الصّحِيحَيْنِ عن النّبيّ ﷺ أنه قالَ: «**احْتَجَّ آدمُ ومُوسَى، فقالَ موسى: أنتَ آدمُ الّذي خلقَك الله بِيَدِه، ونفخ فيك من رُوحه، وأَسْجَدَ لك ملائكتَه، وعلّمَك أسماءَ كلِّ شيءٍ، فلماذا أخرجتَنا ونفسَك من الجنَة؟! فقالَ آدم: أنتَ موسى الّذي اصطفاك الله بِرِسالاتِه وبكلامه، فهل وجدتَ ذلك مَكْتُوباً عَليّ قبل أنْ أُخلَقْ؟ قال: نعم**». قالَ: «**فحَجَّ آدمُ مُوسَى**»[1].

وآدمُ ﷺ لم يَحْتَجَّ على مُوسَى بِالقدرِ ظنّاً أنّ المذنبَ يَحْتَجُّ بِالقدرِ، فإنّ هذا لا يقولُه مسلمٌ ولا عاقل! ولو كان هذا عُذراً لَكانَ عذراً لإبليسَ وقومِ نوحٍ وقومِ هودٍ وكلِّ كافرٍ.

ثم يقول: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [الحديد: ٢٤]، أي إن هذا الإخبار حتى لا تتأسفوا وتحزنوا على شيء فاتكم، فتعلموا أنه لا يمكن أن تدركوه، لأنه قد كتب في الكتاب السابق أنكم لا تدركوه، وكذلك لا تفرحوا فرَحَ بطر وأشر بالشيء الذي تظفرون به، فتقولون: ظفرنا به بعملنا، لأنه مكتوب ومقدر، فلا بد أن تحصلوا عليه.

قوله: «**فحَجَّ آدمُ موسى**»، كررها ﷺ ثلاثًا، ومعنى حَجَّه: غلبه بالحجة.

قوله: «**وآدم ﷺ لم يحتج على موسى بالقدر ظناً أن المذنب يحتج بالقدر**» يعني أن حديث آدم وموسى قد ضل فيه بعض الناس، مثل الجبرية الذين يقولون: إن الإنسان مجبور على أعماله ولا اختيار له، وإنما هو بمنزلة الآلة التي تُدار، أو بمنزلة الشجرة التي تهزها الريح من كل جانب وليس لها اختيار، فإذا أضيف إلى الإنسان شيء فقيل: إنه آمن وكفر، وعمل كذا وعمل كذا، فهذا كما يقولون: على سبيل المجاز،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩) ومسلم (٢٦٥٢).

ولا موسى لَامَ آدمَ أيضاً لأجلِ الذَّنبِ، فإنَّ آدمَ قد تابَ إلى ربه، فاجتباه وهدى، ولكنْ لَامَه لأجلِ المصيبةِ الّتي لَحِقَتْهم بالخطيئة، ولهذا قالَ: فلماذا أخرجتَنا ونفسَك من الجنّة؟ فأجابَه آدمُ: إنّ هذا كان مَكْتُوباً عليّ قبل أنْ أُخلَقَ.

فكان العملُ والمصيبةُ المترتِّبةُ عليه مقدَّراً، وما قُدِّرَ من المصائب يجب الاستسلامُ له، فإنّه من تمامِ الرِّضَا بالله رَبّاً.

كقولك: مات فلان، وطلعت الشمس، وأمطرت السماء، وهبت الريح، وسقط الجدار، فالجدار أَلَهُ إرادةٌ لأنْ يسقط، والنفس أَلَهَا إرادةٌ لأن يموت؟ بل أُميتَتْ، فالجبرية يحتجون بهذا.

ثم يقولون أيضًا: إن الله جل وعلا يقول لنبيه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فنفى الرمي عن النبي ﷺ، وأثبته لنفسه، فيقولون: وهذا الحديث حجة لنا أيضًا، أن يكون آدم احتجّ بالقدر، فنحن إذن نحتج بالقدر.

ونقول: هذا من المغالطات ومن الشبه، وإن هذا ضلال بيّن، كما قال شيخ الإسلام رحمه الله، فآدم عليه السلام لم يحتجَّ بالقدر، ولا يمكن أن يكون موسى عليه السلام لامه على الذنب، لأن الذنب الذي تيب منه لا يجوز أن يُذكَر للإنسان، ولا يجوز أن يقال له: أنت أذنبت كذا وكذا، هذا من المحرمات، لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولو كان هذا لأمكن آدمَ عليه السلام أن يقول: أنت قتلتَ نفسًا فلماذا قتلت النفس؟ لكن آدم يعلم أن موسى عليهما السلام لم يحتجّ عليه بالذنب، ويعلم موسى أن الذنب قد تاب منه وتاب الله عليه فمُحي أثره.

وإنما لام موسى على المصيبة، والمصيبة هي الخروج من الجنة، ولهذا قال: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فالمصيبة يحتج عليها

وَأمَّا الذُّنُوبُ فليس للعبدِ أنْ يُذنبَ، وإذا أذنبَ فعليه أنْ يَسْتَغْفرَ ويَتُوبَ، فيتوبُ من صنوف المعايب، ويصبرُ على المصائب، قالَ تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾ [غافر: ٥٥]، وقالَ تعالَى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقالَ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عِمرَان: ١٨٦]، وقالَ يُوسُفُ عليه السَّلَام: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يُوسُف: ٩٠].

بالقدر، كما يقول العلماء: القدر يحتج به على المصائب لا على الذنوب والمعايب.

فالطريقة في الذنوب أولًا: أنك لا تذنب، ولكن إذا أذنبت يجب عليك أن تتوب وتستغفر، فهذا هو المخرج، وليس أن تقول: إن هذا قُدّر علي، هذا لا يفيد شيء، ولا يجوز الاحتجاج بذلك، ومن قال هذا فمعناه أنه يجعل اللوم على الله، يريد أن يبرئ نفسه ويجعل اللوم على القدر.

ثم ما حقيقة كلام موسى وآدم، ومتى وقع؟ فنقول: أولًا: يجب أن نؤمن به، دون النظر إلى أنه وقع مقابلة مشافهةً في حياة موسى، أو أن آدم مُثّل له، أو أن موسى قاله بعد الموت، فهذا كله يجوز، يجوز مثلًا أن الله أمر آدم أن يخاطبه وإن كان ميتًا، فإن نبينا ﷺ لما عرج به إلى السموات التقى بالرسل، وكل رسول سلم عليه، وبعضهم وصاه، وموسى عليه السلام صار يسأله يقول: ماذا فرض الله عليك، ثم يقول له: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، كل هذه حقائق لا ندركها، وهي أمور غيبية نؤمن بها.

وحديث احتجاج موسى وآدم من جنسها، فيجوز أن يكون بعد

. . . .

الموت، ويجوز أن يكون موسى حيًا وآدم ميت، كما وقع لنبينا ﷺ. ثم إن رؤيا الأنبياء وحي أيضًا، فيجوز أن يكون في الرؤيا، ويجوز أن يكون في غيرها. وعلى كل حال يجب أن نؤمن بأنه حق، كما أخبرنا رسولنا ﷺ.

وأما قول الجبرية: إن الله جل وعلا نفى الفعل عن نبيه وأثبته لنفسه في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]، فنقول في جوابهم: إن الذي نُفِيَ غيرُ الذي أُثبِتَ، فالقصة كما هو معروف في وقعة بدر، أمره الله جل وعلا أن يأخذ بيده من الحصباء ويرميها نحو الكفار، فذهبت هذا الرمية ودخلت في مناخرهم وفي أعينهم، فتحريك يده ورمي التراب نحوهم هذا فعل الرسول ﷺ، وأما إيصال التراب والحصباء إلى أعينهم ومناخرهم فهذا فعل الله جل وعلا، والرسول لا يستطيع ذلك، فالمَنْفِيُّ غيرُ المُثْبَتِ، فلا يكون فيه حجة للمبطلين، والله تعالى أعلم.



فصل

وجوب الأمر بالمعروف

وكذلك ذُنوبُ العبادِ يجب على العَبْدِ فيها أنْ يأمُرَ بالمعروفِ ويَنْهَى عن المنكر بِحَسب قدرته، ويجاهدَ في سبيل الله الكفّارَ والمنافِقِينَ، ويُواليَ أولياءَ الله، ويُعاديَ أعداءَ الله، ويُحبَّ فِي الله ويُبغِضَ في الله، كما قالَ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾﴾ [المُمتَحنَة: ١].

وقالَ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجَادلة: ٢٢].

قوله: «**وكذلك ذنوب العباد**»، يعني يجب أن يكرهها ويُبغضها ولا يُقرها، «**ويأمر بالمعروف**» الذي هو أمرٌ بما أمرَ الله جل وعلا به وأمرَ به رسوله ﷺ، «**وينهى عن المنكر.. ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله**»، كما جاءت الأدلة على هذا في كتاب الله جل وعلا كثيرة، وذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الآيات التي تدل على أن معاداة أعداء الله من أصل الدين، وموالاة أولياء الله من التوحيد الذي أمرنا الله جل وعلا أن نتأسى به بخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقالَ تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [القَلَم: ٣٥]، وقَالَ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [صَ: ٢٨].

وقَالَ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الجاثية: ٢١].

وقَالَ تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾﴾ [فَاطِر: ١٩-٢١].

وقَالَ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ [الزُّمَر: ٢٩].

وقَالَ تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل].

وقَالَ تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الحَشر: ٢٠].

ثم أخبر أن الله تعالى لم يجعل الحق كالباطل، ولا سالك الحق كسالك الباطل، ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾، يعني فرق كبير بين هذا وهذا، فإذًا الأمر في هذا واضح ولا إشكال فيه، ومن ذلك أيضًا كون أهل الجنة هم الفائزون، وأهلِ النار هم الخاسرون، وأنهم لا يستوون في العمل، هذا له نهج وعمل، وهذا له نهج وعمل، ففرق الله جل وعلا بين ما يحبه ويرضاه، وما يكرهه ويُبغضه ويسخطه، وضرب على ذلك الأمثال التي تبين للناس هذا.

ونظائرِ ذلك مِمّا يفرّق الله فيه بين أهل الحق والباطل، وأهلِ الطّاعةِ والمعصية، وأهلِ البِرِّ والفُجور، وأهلِ الهدى والضلال، وأهل الغَيِّ والرَّشاد، وأهلِ الصدق والكذب.

فمَن شهد الحقيقةَ الكونيةَ دون الحقيقةِ الدينيّةِ سوّى بين هذه الأصنافِ المختلِفةِ الّتي فرق الله بينها غايةَ التفريق، ....

والمقصود بذلك أن يتبين للخلق ما يرضاه الله جل وعلا ويثيب عليه، وما يسخطه ويعاقب عليه.

ثم إن مقصود شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: أن هذا هو الأصل الذي يجب أن يسلك، وليس للإنسان أن يسلك الشيء الذي يدعوه إليه هواه أو شيطانه، أو أنه يسوي بين الباطل والحق، أو أنه يحتج على الباطل بالحق، كمن يحتج على أفعاله السيئة بأنها مقدرة ومكتوبة قبل وجوده، فإن هذا من المغالطات، بل هذا من الانحراف.

فيجب على المؤمن أن يكون مفرقًا بين الباطل والحق، ويكون من أهل الفرقان، ولا يكون الأمر ملتبِسًا مشتبِهًا عليه، أما من يعرض عما جاء به الرسول ﷺ، ولا يكون هو إمامَه وقائدَه، فإنه لا بد له من التخبط ولا بد من الضلال، والعياذ بالله.

قوله: «**ونظائرِ ذلك مِمّا يفرّق الله فيه بين أهل الحق والباطل**» يعني هذا الذي جاء به الرسول ﷺ، وهو الذي سماه الله فرقانًا، لأنه فرق بين الحق والباطل، وبين أهل الحق وأهل الباطل، فيجب على المؤمن أن يسلك هذا، ويتمثل أمر الله جل وعلا في هذا ولا يتعداه إلى غيره، فهذا هو الهدى، وهو طريق الرسل، وهو مجانبة الضلال، ولا ينجو العبد إلا بهذا، فمن أعرض عن هذا فإنه يكون متعرضًا لعقاب الله جل وعلا في الدنيا والآخرة.

حتّى تؤولَ به هذه التّسويةُ إلى أنْ يسوّيَ بين الله وبين الأصنام! كما قال تعالى عنهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٩٧-٩٨].

بل قد آل الأمرُ بهؤلاء إلى أَنْ سَوَّوُا اللهَ بكلِّ موجودٍ! وجعلوا ما يَسْتحقّهُ من العبادةِ والطّاعةِ حقّاً لكل موجود! إذْ جعلوهُ هُوَ وجودَ المخلوقات! وهذا من أعظم الكفر والإلحاد بربّ العباد.

قوله: «**حتّى تؤولَ به هذه التّسويةُ إلى أنْ يسوّيَ بين الله وبين الأصنام..**» يعني هذا كان في الدنيا يسوونهم في الحب والاتجاه والتعلق، وإلا فلا يمكن أن يسووهم برب العالمين في الإيجاد والخلق، لأن هذا أمر ممتنع في العقول وفي الوجود، وإنما يكون هذا في التأله، سووهم في التأله، فصار هذا هو أصلَ الشقاء! فلا يجوز التسوية بين الحق والباطل، فمن سوى بين الحق والباطل فقد ضل في هذا وقصر، وهذا عام، ولهذا جَعَل ذلك أصلًا.

قوله: «**بل قد آل الأمرُ بهؤلاء إلى أَنْ سَوَّوُا اللهَ بكلِّ موجودٍ..**» هذا بالنسبة لأهل وحدة الوجود، وحدة الوجود قد لا تكون معروفة عندنا، والذي لا يعرف الشر خير له من أن يعرفه في مثل هذا، لأنه لا خير فيه، والوصول إلى هذه الغاية هو ضلال متناهٍ، والحقيقة أن هذا هو من نتائج قول الجهمية، لأن الجهمية لما قالوا: إن الله ليس فوقُ، وليس تحتُ، وليس يمين ولا شمال، ولا داخِلَ العالم ولا خارِجَ العالم، وهم لهم أتباع يقلدونهم، ولكن لا يحكّمون العقل هكذا كما يقولون هم، فصاروا يفكرون ما معنى هذا؟ فقالوا: لا بد أنه يكون حالًّا في الكون كله، سارٍ في الوجود كله! فصاروا يعبدون كل شيء حتى الكلاب، وهذا قسم منهم يقال لهم: أهل التعبد، أما الذين سلكوا مسلك النظر ومسلك التعطيل، فإن الأمر آل بهم إلى أن يكونوا ملاحدة، لا يؤمنون لا ببعث

وهؤلاء يصل بهم الكفر إلى أنهم لا يَشهدون أنهم عبادُ الله، لا بمعنى أنهم معبَّدون، ولا بمعنى أنهم عابدون! إذْ يَشهدون أنفسهم هي الحقَّ! كما صرح بذلك طواغيتهم، كابنِ عَرَبِيّ صاحبِ الفُصوص وأمثالِه المُلحِدِين المفترِين، كابنِ سبعين وأمثاله، ويشهدون أنهم هم العابدون والمعبودون!

ولا بجنة ولا بنار، لأن هذا الذي أداهم إليه نظرهم في هذا المذهب الخبيث.

فعلى كل حال هو من الكفر الظاهر الجلي ولا خير فيه، ولهذا عارفوهم جعلوا المعبود هو العابدَ نفسَه! وفي ذلك يقول سيدهم وإمامهم:

الرب عبد والعبد رب ... يا ليت شعري من المكلف؟

إنْ قلتَ: عبد فذاك ميْتٌ ... أو قلتَ ربٌّ فأنى يكلف!

فهذا إما أن يكون حارَ ولا يدري، ولم يفرق بين العبد وبين الرب، أو أنه جعلهما شيئًا واحدة، وهذا نهاية الضلال.

قوله: «**كابنِ عَرَبِيّ صاحبِ الفُصوص وأمثالِه..**» صاحب الفصوص يعني فصوص الحكم، هكذا سماه، والكتاب كبير ومطبوع، وله كتب كثيرة، ولكن الله أعلم بحاله، والحكم عليه من خلال كتبه أنه لا يعبد الله جل وعلا، وأنه كما قال شيخ الإسلام: طاغوت من الطواغيت، ومع ذلك فكثير من الناس يسمونه العارف بالله، بل يسمونه خاتم الأولياء! وهو نفسه زعم أنه خاتم الأولياء، وقال: إن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء، لأن خاتم الأولياء يأخذ من المشكاة التي يأخذ منها النبي رأسًا، والنبي لا يأخذ إلا بواسطة، أما خاتم الأولياء يأخذ بلا واسطة، هذا كلام هراء وضلال، والكلام الذي ليس عليه بينات وأدلة

وهذا ليس بِشهودٍ للحقيقةِ، لا الكونيةِ ولا الدينيّة.

يجب أن يرمى به وجه صاحبه ولا يلتفت إليه، ولاسيما إذا كان بهذه المثابة التي كل عاقل يعرف أنها كفر وضلال.

وابن عربي سوى بين موسى وفرعون، بل فضّل فرعون على موسى وقال: إن موسى عليه السلام لما قال له فرعون: أنا ربكم الأعلى، لم يتسع نظره وضاق عطنه فأنكر عليه، وإلا ففرعون صادق في ذلك.

ويقول ابن عربي: إن الكفار المشركين كفروا لأنهم خصوا العبادة بأشياء معينة، أما لو عمموها وعبدوا كل شيء لكانوا على حق، وطرد هذا المذهب حتى قال: إن النار تكون على أهلها عذْبًا يتنعمون فيها، وليس عذابًا، وأمور أخرى عجيبة يقولها! ومع ذلك يقال: إنه خاتم الأولياء.

وابن سبعين الذي ذكره والعفيف التلمساني على هذا المنوال، وهم في الواقع لا يعرفون الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه، وإنما جاؤوا بأشياء من عند أنفسهم، وأضلوا كثيرًا من الناس، نسأل الله العافية.

قوله: «**وهذا ليس بِشهودٍ للحقيقةِ، لا الكونيةِ ولا الدينيّة**» مرادهم ومقصودهم بالشهود كما مضى، أنها الحقيقة التي يصلون إليها في علمهم وتسمى شهودًا، فيقولون: إن الحقيقة التي نصل إليها أنها توضَع عنا العبادات، لأننا وصلنا إلى حقيقة المعرفة، وقد يستدلون بمثل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحِجر: ٩٩]، فيقولون: اليقين هو الحقيقة التي وصلنا إليها، فوضعت عنا العبادة. وهذا شيء لا يدل عليه لا عقل ولا كتاب ولا فطرة، بل الله جل وعلا خلق عباده لعبادته، واليقين الذي أمر الله رسوله ﷺ أن يعبده حتى يأتيه هو الموت، ومن تأول غير هذا فهو ضال.

بل هو ضلالٌ وعَمًى عن شُهُودِ الحقيقةِ الكونية، حيثُ جعلوا وجودَ الخالقِ هو وجودَ المخلوق!.

قوله: «**بل هو ضلالٌ وعَمًى عن شُهُودِ الحقيقةِ الكونية**» الحقيقة الكونية هو الشيء الموجود الذي كُون ووُجد، والكونية كون هذا عبداً خلقه الله، وكون هذه مخلوقات محسوسة ومشاهدة، أو معقولة ومعلومة، هذه حقائق كونية.

أما الحقيقة الدينية فهو الأمر الذي جاءت به الرسل، ويجب أن يفهم ويعمل به، ففهمك له وعملك به هو الحقيقة.

أما الحقيقة المآلية التي هي النتيجة فهذه لا تعلم حتى تشاهد، وهي التأويل الذي ذكره الله جل وعلا: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣]، فتأويله هو البعث والقيام بين يدي الله، وكذلك دخول الجنة والنار، فهذا تأويل حقائق الأخبار التي أخبرنا بها، لأن الخبر يكون له معنًى، ويكون له حقيقة، وهذه الحقيقة إما أن تكون العمل به، أو تكون المقصود بها الحقيقة التي أخبر عنها أنها ستقع، فالتي تكون يوم القيامة حقيقتها أن نشاهدها ونعيشها، وهذه سوف نعايشها كما أخبرنا الله جل وعلا، أما الحقائق الدينية فهي التي يجب أن نفهمها ونعمل بها.

وأهل الضلال لا يقصدون هذا، بل يقصدون شيئًا هم اخترعوه وسمَّوه حقيقة، ولم يفرقوا بين القدر وبين الشرع، بل جعلوهما شيئًا واحدًا، وهذا الذي قصد شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى تفصيله، ويقول: إنه يجب على العبد أن يفرِّق بين قدر الله وبين شرعه، فالقدر لا يحتج به، وإنما يُصبَر على المكاره فيه، ويسلِّم لله فيه، ويجب أن يعلم أن الشرع لا يعارض القدر، وأن القدر لا يعارض الشرع، فالشرع يجب أن يمتثل، ويطاع ويتبع، وهو الحقيقة الدينية، وأما القدر فيجب أن يؤمن به

وجعلوا كل وصف مَذْمُومٍ وممدوحٍ نعتاً للخالق وللمخلوق، إذْ وجودُ هذا هو وجودُ هذا عِنْدَهم!

وأما المؤمنون بالله ورسولِه، عَوامُّهم وخواصُّهم، الّذين هم أهل القرآن، كما قال النبي ﷺ: «**إنّ لله أَهْلِينَ من النَّاس**»، قيل: من هم يا رسولَ الله؟ قال: «**أهلُ القرآن هم أهلُ الله وخاصتُه**»[1]، فهؤلاء

ويسلم لله جل وعلا ولا يعترض عليه، وهي الحقيقة الكونية.

أما الحقائق التي تكون هي المآل والعاقبة، فهذا أمر آخر، هذه حقيقتها أن نعايشها ونشاهدها، وهذا لا يكون إلا بعدما يحضر الموت، فسوف يشاهد الإنسان الحقيقة التي أُخبر بها من أمور القبر والبرزخ ويعيشها، ثم بعد ذلك يشاهد الحقائق التي بعد البعث، من كونه يبعث حافيًا عاريًا أغْرَلَ أبْهَمَ ليس معه شيء، ثم يُجمع هو وغيره في مكان واحد، ويقف وقوفًا طويلًا حتى يفصل الله جل وعلا بين عباده، وغير ذلك مما أخبرنا الله تعالى أنه سيكون.

فهذا التفصيل يجب أنه يعتنى به ويفرق بين هذا وهذا، أما هؤلاء فلم يفرقوا، فضَلُّوا في ذلك، وهذا قد يكون فيه شيء من الغموض والخفاء، لشدة غرابته وشدة ضلال من قال به، لأن الذي عافاه الله منه قد لا يتصوره.

قوله: «**وجعلوا كل وصف مَذْمُومٍ وممدوحٍ نعتًا للخالق وللمخلوق**» هذا القول ليس مما يقولون به، ولكنه لازم قولهم.

قوله: «**الذين هم أهل القرآن**»، في بعض النسخ: «**الذين هم أهل الكتاب**»، والمقصود بالكتاب هنا كتابنا الذي أنزل على رسولنا ﷺ، وهو

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٧٩)، والنسائي في الكبرى (٨٠٣١)، وابن ماجه (٢١٥)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

يعلمون أنّ الله ربُّ كلِّ شيءٍ ومَليكُه وخالقُه، وأنّ الخالقَ سبحانَه مُبايِنٌ للمخلوق، ليس هو حالّاً فيه، ولا متّحداً به، ولا وُجودُه وُجودَه.

والنّصارَى إنّما كفّرهم الله إذْ قالوا بالحلولِ واتحادِ الربِّ بالمسيح خاصَّة.

يدخل فيه الحديث والقرآن، فكله وحي أنزله الله على عبده، ويجب أن نؤمن به ونتبعه، ونمتثلَ أوامرَه ونجتنبَ نواهيَه.

وقوله ﷺ: «**هم أهل الله**»، يعني الذين يكرمهم الله تعالى ويقرّبهم، ويكونون عنده في مساكن جنات عدن، كما قالت امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١]، فالجنة قريبة من الله جل وعلا، فهذا معنى كونهم أَهْلِيهِ، وهذا في الواقع هو السعادة التي يجب أن يبحث المرء عنها ويسعى لها ويتعب وراءها، وليست السعادة كون الإنسان يتحصل على مراداته في الدنيا من شهوات وأموال ووظائفَ وغيرها، فهذه تنتهي وتنقضي كأن لم تكن، وإنما السعادة التي لا تفنى أن تبقى أبد الآبدين في دار ليس فيها مرض ولا خوف ولا فقر ولا هرم ولا خروج، بل دائم فيها.

هذه السعادة، ولكن الإيمان بها عند كثير من الناس ضعيف، ولضعف الإيمان بها تجدهم يعرضون عنها كثيرًا ويزهدون فيها، والزهد فيها واضح وجلي عند أكثر الناس، وسببها ضعف الإيمان، وإلا فلو كان المرء يشاهد هذه الأشياء ويعاينها فلا يمكن أن يزهد فيها. ويتفاوت الناس في ذلك، والفضل كله بيد الله، وإذا أراد الله إسعاد امرئ وإكرامَه يسره لليسرى، وجنبه العسرى.

قوله: «**والنّصارَى إنّما كفّرهم الله إذْ قالوا بالحلولِ..**» هذا قسم من النصارى قالوا بذلك، والنصارى أصل نسبتهم إلى الناصرة بلد معين

فكيف من جعل ذلك عامّاً في كل مخلوق!.

ويعلمون معَ ذلك أنّ اللهَ أمر بطاعتِه وطاعةِ رسولِه، ونهى عن مَعْصِيَتِه ومعصيةِ رسولِه، وأنه لا يحب الفسادَ، ولا يرضى لعباده الكفرَ، وأنّ على الخلق أن يعبدوه فيطيعوا أمرَه، ويستعينوا به على كل ذلك، كما قال في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفَاتِحَة: ٥].

اجتمعوا فيه أول الأمر فنسبوا إليه قيل النصارى، والآن هم يسمون أنفسهم مسيحيين، وهم على باطل بلا شك، ومع ذلك هم يَجِدّون ويتعبون ويبذلون الأموال في الدعوة إلى هذا الدين الفاسد، والمسلمون مع أنهم يعرفون أن دينهم حق يقصرون في الدعوة إلى دينهم، لأسباب متنوعة.

قوله: «**فكيف من جعل ذلك عامًا في كل مخلوق**» يعني هم قالوا في ضلالهم: إن الإله حل في الرجل، أو قالوا: اللاهوت حل في الناسوت، والناسوت يعني الإنسان، واللاهوت يعني الله، تعالى الله وتقدس، وهي عقيدة لا تنطلي حتى على الأولاد الصغار، فكيف مثلًا يكون رب العالمين جل وعلا في بطن امرأة ثم يخرج من فرجها طفلًا صغيرًا، ثم يتغذى باللبن، ثم يخضع لليهود فيصلبونه! وأشياء عندهم عجيبة، ثم يزعمون أنه الله! تعالى الله وتقدس.

وأكثرهم لا يفهم هذا الدين الذي هو الدين الثلاثي، أو الثنائي عند بعضهم، غير أن الباطل قد يحبب إلى النفوس من عدة أشياء، والتعصب للمذهب والدين متأصل عند كثير من الناس.

قوله: «**ويعلمون مع ذلك أن الله أمر بطاعته**» وهذا الواجب على المسلمين أن يعلموا ذلك، وأن يتبعوا أمر الله ويجتنبوا نهيَه، ويطيعوه

ومِن عِبادتِه وطاعتِه: الأمرُ بالمعروفِ والنّهيُ عن المنكرِ بِحسبِ الإمكان، والجهادُ في سبيلِه لأهل الكفْر والنفاق، فيجتهدون في إقامةِ دِينِه، مستعينين به، رافعين مزيلين بذلك ما قدر من السَّيِّئات، دافعين بذلك ما قد يُخَاف من آثار ذلك، كما يُزيل الإنسانُ الجُوعَ الحاضرَ بالأكلِ، ويدفع به الجوعَ المستقبَل، وكذلك إذا آن أَوَانُ البرد دَفعه باللباس، وكذلك كل مطلوب يُدْفع به مَكْرُوهٌ، كما قالوا للنّبي ﷺ: يا رسولَ الله، أَرَأَيْت أدويةً نتداوى بها، ورُقًى نَسترقي بها، وتُقًى نتّقي بها، هَل تردُّ من قدر الله شيئاً؟ فقال: «**هي من قدر الله**»[١].

في ذلك ويتعرضوا لثوابه، ويعملوا للاحتياط على النجاة من عقابه، كما قال الله لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: ٦]، يجب أن يقوا أنفسهم وأهليهم من النار، لأن النار شديدة جدًا، فهذه عبادة الله التي أمر الله جل وعلا بها، ولا نجاة إلا بهذا، فلا يمكن للإنسان أن يتخلص من عذاب الله إلا بذلك، إلا بعبادة الله وباتباع رسوله ﷺ.

قوله: «**ومن عبادته وطاعته: الأمر بالمعروف..**» يعني أن الأمر بالمعروف وغيره مما جاء به الرسول ﷺ هو دين وعبادة، يجب أن نتخذه كذلك ونتقرب بفعله إلى ربنا تعالى.

والمعروف هو الذي حسنُه عُرف بالشرع وعُرف حُسنه بالطبع، أي بالطبيعة التي هي الفطرة، والمنكر هو الذي عُرفت نكارته بالشرع الذي جاء به المصطفى ﷺ، وكذلك العقلُ والفِطَرُ السليمة تنكره، ولكن مع

---

(١) أخرجه أحمد (١٥٤٧٢)، والترمذي (٢٠٦٥، ٢١٤٨)، وابن ماجه (٣٤٣٧) من حديث أبي خُزامة، بسند ضعيف.

....

هذا لا يجوز للعبد أن يقدم على الأمر والنهي إلا إذا تحقق أن هذا الذي يَنهى عنه منكر، وتحقق أن الذي يأمر به معروف في الشرع ومشروع، أما أن يأمر مثلًا بأمور اتخذها الناس عادة وتعارفوا عليها بالعادة، فهذا من المنكر، وليس من المعروف.

والجهاد يطلق على بذل الجهد سواء في قتال العدو أم في جهاد النفس على الطاعة وترك المعاصي، والعدو يكون عدوًّا ظاهرًا وعدوًّا باطنًا، فالعدو الظاهر هو الكافر والمنافق، والله جل وعلا أمرنا بجهادهم كما أمر رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التحريم: ٩]، فنحن تبعٌ لرسولنا ﷺ، أما العدو الباطن فهو الشيطان والنفس والشهوات وغيرها، فيجب أن يجاهد في ذلك.

والحياة هذه كلها جهاد، فلا تنفك عن الجهاد أبدًا، ومن لم يجاهد فلا يستطيع أن يصل إلى الغاية المطلوبة، ولا يمكن أن ينجو إلا بالجهاد، ومنه الجهاد في إقامة شرع الله، والجهاد في أن يقوم هو بذلك، بأن يفعل الطاعات الواجبة، وينتهيَ عن المحرمات التي حرمت عليه.

ومن الجهاد أن يصبر على الأقدار التي لا بد من وقوعها، ولا بد أن يصاب الإنسان بشيء من المكاره، فيصبر ويحتسب ويرى أنه شيء مكتوب ولا بد منه، فهو جهاد في هذا، أي يجاهد نفسه بأن لا يتسخط الأمر الذي يقع، ولا يعمل عمل الجاهلية من التضجر وشق الثياب والدعوة الكاذبة، والدعوة بالويل والثبور وغيرها من خمش الخدود ونتف الشعور وضرب البدن، مما يدل على السخط كأنه يقول: إن الله ظلمني!

وفي الحديث: «**إنّ الدُّعاء والبلاءَ لَيَلْتقيانِ، فيَعْتَلِجانِ بين السماء والأرض**»[١]. فهذا حالُ المؤمنين بالله ورسولِه، العابدين لله، وكلُّ ذلك من العبادة.

فالمقصود أن الحياة كلها جهاد، فالطاعة جهاد، والكف عن المعصية جهاد، وكذلك أمرك غيرَك حتى ولدك وقريبك، بالخير وتعلمه، فهو جهاد يثيبك الله عليه عند الاحتساب، وإذا تركت ذلك فقد تركت شيئًا كُلفت به وأمرت به.

وهكذا تكون حياة المسلم، فلو نحن قمنا بهذا كما ينبغي، لكان عندنا خير كبير جدًّا وكثير، وتلافينا أشياء كثيرة غرتنا وضرت بديننا، وهيأت لأهل الباطل أن يكونوا أقوياء، وأن يكون لهم سلطة، والله المستعان.

ومن جملة الأقدار: استعمال الأدوية والعلاج، فإن الإنسان يعالج نفسه ويأخذ الدواء، ويعلم أنه سبب، وأن الأمر بيد الله جل وعلا، فهو قدر من الأقدار التي يقدرها الله جل وعلا، وسبق أنه يجب أن يُدفع القدر بالقدر، فكل ما يقع فهو مقدر، ولكن يُدفع بالشيء الذي شرعه الله، ولا يجوز أن يفعل الإنسان المحرم، والرسول ﷺ يقول: «إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرم»[٢].

قوله ﷺ: «**فيعتلجان**»، سواء كان هذا مثالًا أم كان حقيقة، فالدعاء من القدر، وهذا معناه، وهو جواب ما قد يشكل على الإنسان فيقول:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك من حديث عائشة ﵂، وصححه ١/ ٤٩٢، وتعقبه الذهبي فضعفه.

(٢) أخرجه ابن حبان (١٣٩١) وأبو يعلى (٦٩٦٦) من حديث أم سلمة ﵂، وأخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم من كلام ابن مسعود ﵁ في كتاب الأشربة، باب شراب الحلواء والعسل.

. . . .

كيف لا يرد القدر إلا الدعاء، هل القدر يرده شيء؟ فنقول: الدعاء من القدر، فقُدر وكتب، والله يعلم ما هو الذي يقع لأنه علام الغيوب، فنحن مأمورون بالدعاء، فإذا تركنا ما أُمرنا به فاللوم علينا، نكون نحن ملومين، وإذا فعلناه وإن وقع خلاف ما نريده وما نسعى له، فإن الإنسان لا يندم ولا يكون مفرطًا، لأنه أدى ما أمر به.

فالمقصود أن كل ما يقع مقدر، مع أن الأعمار وما يحصل للإنسان مكتوب وهو في بطن أمه بل مكتوب قبل ذلك، كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كتب الله مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشُه على الماء**»[1]. فهذا لا يعارض.

وقد يكون هناك بعض النصوص تشكل على بعض طلبة العلم، مثل الحديث الذي ذكره شيخ الإسلام: أن الدعاء يلتقي مع القضاء المقدر فيعتلجان بين السماء والأرض، أو يرده، ويغلب أحدهما الآخر، ونحو ذلك.

وكذلك حديث الرسول ﷺ فيما يروى أنه قال: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر**»[2]، فالبر يزيد في العمر، وطول العمر مكتوب والإنسان في بطن أمه، ولكن قد كتب أن عمره يطول بسبب صلة رحمه فهو من المقدر، وقد يقصر، فيكتب وهو في بطن أمه أن عمره قصير لأنه يقطع رحمه، أما أنه يتغير المكتوب فلا، فالمكتوب لا يتغير.

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٥٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٣٩) من حديث سلمان الفارسي رضي الله عنه، وقال: حديث حسن غريب، وأخرجه أحمد (٢٢٣٨٦) وابن ماجه (٤٠٢٢) وابن حبان (٨٧٢) والحاكم في المستدرك وصححه من حديث ثوبان رضي الله عنه.

. . . .

وأما قول الله جل وعلا: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾ [الرّعد: ٣٩]، فالصحيح أن هذا المحو في نسخ الشرائع، فلله جل وعلا أن ينسخ ما يشاء من الشرع ويثبت ما يشاء، وقيل: إن المحو يكون في صحف الملائكة وليس في الشيء المقدر الذي كتب أزلًا، فالملائكة يكتبون كل ما يعمله الإنسان ويتلفظ به، فإذا كان آخر النهار يمحون الشيء الذي ليس عليه ثواب ولا فيه عقاب، مثل أعطني القلم، خذ الكتاب، وما أشبه ذلك، فهذه تمحى في آخر النهار ويثبت الشيء الذي فيه ثواب أو عليه عقاب، فهذا معناه.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾ [فَاطِر: ١١]، فيقول علماء التفسير: إن الضمير في قوله: ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ لا يعود على ﴿مُّعَمَّرٍ﴾، وإنما يعود على رجل آخر، أي «ولا ينقص من عمر رجل..»، أما العمر فلا ينقص منه، كما جاء في الحديث الصحيح أن أم المؤمنين أم حبيبة ﵂... سألَتِ اللهَ فقالت: اللهم متعني بزوجي رسول الله، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال لها ﷺ: «**إنك سألْتِ اللهَ لآجال مضروبة وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، لا يعجِّل شيئًا منها قبل حِلّه، ولا يؤخِّر منها شيئًا بعد حله، ولو سألت الله أن يعافيك من عذاب في النار وعذاب في القبر، لكان خيرًا لك**»[1]، فمعنى ذلك أنها لا تزيد الأعمار ولا تنقص.

وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فَاطِر: ١١]، كما قال المفسرون: كقولك مثلًا: عندي دينار ونصفُه، فهل نصف الدينار هو نصف الدينار الذي عندك أم نصف دينار آخر؟

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﵁.

وهؤلاء الّذين يشْهدُونَ الحقيقةَ الكونيةَ، وهي رُبوبيّتُه تعالى لكل شيء، ويجعلون ذلك مانعاً من اتباع أمره الديني الشَّرْعِيّ، على مَرَاتبَ في الضلال: فغُلاتُهم يجعلون ذلك مُطلقاً عامّاً، فيحتجون بالقدرِ في كل ما يخالفون فيه الشّريعةَ.

وقولُ هؤلاء شَرٌّ مِن قولِ اليهود والنّصارَى، وهو من جنس قولِ المشركين الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ [الزخرف: ٢٠].

فيقولون: هذا هو المراد بذلك، وما يعمر من معمر، ولا ينقص من معمر آخر، من عمره الذي كتب أنه ناقص، فلا يكون فيه إشكال.

قوله: «**فيحتجون بالقدرِ في كل ما يخالفون فيه الشّريعةَ**» هؤلاء الذين يسمون الجبرية، فهم جعلوا القدر حجة لهم، وهذا من أضل الضلال وأبين المحال، ولا يمكن أن يستقيم هذا المذهب لا دنيا ولا دين، ولكن هل يفهمون؟! قد يكون هؤلاء يريدون إضلال الناس، وإلا مثل هذا واضح، ولهذا يقول كثير من العلماء: ينبغي أن يعاملوا بمقتضى مذهبهم، كيف يعاملون بمقتضى المذهب؟

الواحد منهم يقول: لا تلمني، فأنا مقدر علي هذا الشيء، فلو تُحرّق ماله وتقول: لا تلمني أنا مقدر علي هذا، فهل يرضى بهذا؟ هل يسلّم؟ لا أحد يرضى بهذا، بل لا بد أن يُسأل كل إنسان عن عمله، وإلا فما تستقيم الأحوال أبدًا، فهم يقولون: نحن غير ملومين، لأننا بمنزلة الآلة التي تدار، فنحن ليس لنا فعل، الأفعال كلها لله، وسبق الإشارة إلى هذا، وهذا من أخبث المذاهب وأبطلها.

قوله: «**وقول هؤلاء شر من قول اليهود والنصارى**» سبق أنهم قالوا

وهؤلاء مِن أعظم أهل الأرض تناقضاً، بل كلُّ من احْتجّ بالقدرِ فإنّه متناقض.

فإنّه لا يُمكنُه أنْ يُقَرّ كل آدَمِيّ على ما يفعل، فلا بد إذا ظلمه ظالمٌ أو ظلم النَّاسَ ظالمٌ، وسعى في الأرض بالفساد، وأخذ يسفك دِماءَ النَّاس، ويستحِلُّ الفروجَ، ويُهْلك الحَرْث والنسل، ونحو ذلك من أنواع الضَّرَر التي لا قِوامَ للنَّاس بها، أنْ يَدْفع هذا القدَر.

وأنْ يُعَاقبَ الظَّالمُ بما يَكُفُّ عدوانَه وعدوانَ أمثالِه، فيُقَال له: إنْ كان القدر حجَّةً فدَعْ كلَّ أحد يفعل ما يَشَاء بك وبغيرك، وإنْ لم يكن حجَّةً بَطَل أصلُ قَوْلِك: إنّ القدر حجَّة.

هذا القول ردًّا لدعوة الرسول ﷺ، وليس إيمانًا بعموم مشيئة الله، يقولون: إنّ شِركَنا وقع بمشيئة الله، وهو دليل على أنه راض به، وأنت جئتنا بالنهي عن ذلك، فقولك غير مقبول، هذا معنى قولهم: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وهذا مرادهم، ولهذا جعل شيخ الإسلام قولَ الجبرية كقولهم.

قوله: «**وهؤلاء مِن أعظم أهل الأرض تناقضًا**» هو متناقض لأنه لا يطبقه على نفسه، مثلًا لو فُعل فيه فعلٌ وقيل له: هذا قدر، هل يرضى به؟ لا يرضى أبدًا، ولا يطبقه على نفسه، وإنما يريد أن يبرر أفعاله ويجعل اللوم على الله، هذا مقصوده، وقد يكون بعضهم يريد إفساد عقائد الناس.

يقوله: «**أن يدفع هذا القدر**» يَدفع هو إذا كان بالنسبة إليه وقع فيه لا بد أن يدفعه هو.

قوله: «**إن كان القدر حجة فدع كل أحد يفعل ما يشاء بك وبغيرك**» هذا معنى أن يعامل بمقتضى قوله، فلا يمكن أن يرضى به أحد.

وأصحابُ هذا القَوْل الَّذين يحتجون بالحقيقةِ الكونية لا يطردون هذا القَوْلَ ولا يلتزمونه، وإنّما هم يتبعُون آراءهم وأهواءهم، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عِنْد الطَّاعة قدَري، وعند المعصية جَبْري، أيُّ مَذْهَب وَافق هَوَاك تمذهبت به.

ومنهم صنف يدّعون التّحْقيقَ والمعرفة، ويزعمون أن الأمرَ والنَّهْي لازم لمن شهد لنفسِه أفعالاً وأثبت لهُ صفاتٍ، أمّا من شهد أنّ أفعاله مخلوقة، أو أنه مجبور على ذلك، وأن الله هو المتصرِّف فيه كما يُحَرك سائرَ المتحركات، فإنّه يرتفع عنه الأمرُ وَالنَّهْي والوعد والوعيد.

وقد يقولون: مَن شهد الإرادةَ سقط عنه التّكْليفُ، ويزعمون أنّ الخَضِرَ سقط عنه التَّكْلِيف لشهودِه الإرادةَ.

فهؤلاء يفرّقون بين العامَّة والخاصة الّذين شهدُوا الحقيقةَ

قوله: «**وعند المعصية جَبْري**» الجبري هو الذي يقول: إنه مجبور على هذا الشيء، والقدري الذي ينكر القدر، والجبري هو هذا المذهب الخبيث، وهو أخبث من القدري، والقدري الذي يقول: أنا الذي أفعل ما أشاء، وما قُدر علي، أنا الذي أختار، فإن شئت آمنت وإن شئت كفرت، والله جل وعلا ليس له شيء من ذلك ولم يقدر علي شيئًا.

فالقدرية الذين أنكروا القدر، وإذا أطلق القدري فهذا مراده، أما الجبري فهو الذي يقول: أنا مجبور، يعني عكس هذا تمامًا، وهذان مذهبان متقابلان.

قولهم: «**من شهد الإرادةَ سقط عنه التّكْليفُ..**» هذا الذي يقوله غلاة الصوفية وليس المتكلمون، وهؤلاء جهلة أيضًا، فهذا الذي أداه إليهم شيطانهم وليس اجتهادهم، أما الاجتهاد فإن العقل إذا اجتهد وطلب الأدلة

الكونية، فشَهِدُوا أنّ الله خالقُ أفعالِ العباد، وأنّه مُرِيدٌ ومدبِّرٌ لجميع الكائنات.

وقد يفرّقون بين من يعلم ذلك علماً، وبين من يراهُ شُهُوداً، فلا يُسقطون التَّكْلِيفَ عمّن يُؤمن بذلك ويعلمه فقط، ولكن يُسقطونه عمّن يشهده فلا يرى لنفسِه فعلاً أصلاً.

وهؤلاء يجعلون الجَبْر وإثباتَ القدر مانعاً من التَّكْلِيف على هذا الوَجْه. وقد وقع في هذا طوائفُ من المنتسبين إلى التَّحْقِيق والمعرفة والتوحيد! وسبب ذلك أنه ضاقَ نطاقهم عن كون العبد يُؤمر بما يقدّر عليه خِلافُه، كما ضاقَ نطاق المعتزلة ونحوهم من القدَريّة عن ذلك.

متجردًا عن الهوى والميول الشيطانية فإنه يهتدي، لأن الأمور ظاهرة وجلية، أما إذا كان له هوًى وله مراد معين فلن يهتدي إلا أن يشاء الله.

قوله: «**فشَهِدُوا أنّ الله خالقُ أفعالِ العباد**» سبق أن الشهود عندهم معناها أن يعمل بما يعلم.

قوله: «**وسبب ذلك أنه ضاقَ نطاقهم عن كون العبد يُؤمر بما يقدّر عليه خِلافُه**» يعني أن السبب أنهم ما استطاعوا الجمع بين القدر والشرع في عقولهم، ورأوا أن هذا يعارض هذا، فسلكوا هذا المسلك السيّئ الذي فيه من الباطل ما هو ظاهر جلي، مع أن الأمر ليس صعبًا في مثل هذا حتى يَؤُولُوا إلى هذا القول، فالإنسان إذا آمن بأقدار الله جل وعلا، وامتثل شرعه، وانشرح صدره لذلك، فالأمر سهل ميسور، ولكن على من يسره الله عليه، أما هؤلاء فما استطاعوا وما استساغوا أنهم يجمعون بين هذا وهذا.

ثمّ المعتزلةُ أثبَتَت الأمرَ والنَّهْي الشرعيين، دون القضاء والقدر الَّذين هما إرادةُ الله العامَّة، وخلقه لأفعال العباد.

وهؤلاء أثبتوا القضاءَ والقدر، ونَفَوُا الأمرَ والنَّهْي في حق من شهد القدر، إذْ لم يُمكنْهُم نفيُ ذلك مُطلقاً.

قوله: «**ثمَ المعتزلةُ أثبَتَت الأمرَ والنَّهْي الشرعيين..**» المعتزلة قدرية، ولكن فيما بعد صاروا جهميةً قدرية، فهم أثبتوا الأمر والنهي الشرعي وعظموه، وقالوا: من ترك النهي فقد كفر، أو خرج من الدين الإسلامي ولم يدخل في الكفر، فصار في منزلة بين منزلتين لا كافر ولا مؤمن، فهذه من خصائصهم، وجعلوا الدين عندهم له أركان خمسة هذا أحدها.

والأمر الثاني: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفي ضمنه الخروج على الأئمة بالسلاح.

والأمر الثالث: وجوب العدل، ومعناه عندهم إنكار القدر، أي إنكار أن يكون الله قدر كل شيء.

والرابع: وجوب تعذيب المجرم وإثابة المحسن، وهذا حكموا به على الله، وكلها أركان اخترعوها وليس عليها دليل مما جاء به المصطفى ﷺ، ولهذا سُمُّوا أهل الكلام، لأنهم كثّروا الكلام في هذا، واتبعوا آراءهم التي هي الكلام.

قوله: «**وهؤلاء**» يريد الأولين الجبرية، أثبتوا القضاء والقدر وجعلوا اللوم عليه، وأما الشرع فجعلوه معارضًا له.

وقولُ هؤلاء شَرٌّ من قَول المعتزلة، ولهذا لم يكن في السّلف من هؤلاء أحد.

وهؤلاء يجعلون الأمرَ والنَّهْيَ للمحجوبين الّذين لم يشْهدُوا هذه الحقيقةَ الكونية، ولهذا يجعلون مَن وصل إلى شُهُودِ هذه الحقيقةِ يسقط عنه الأمرُ والنَّهي، ويقولون: إنّه صار من الخاصَّة.

قوله: «**ولهذا لم يكن في السّلف من هؤلاء أحد**» وهل في السلف أحد من المعتزلة؟! المراد أن بعض المحدثين من رجال صحيحي البخاري ومسلم، رمي واتهم بأنه قدري، أما الجبرية فما اتهم أحد بذلك، أي الجبرية المحضة، وإلا فالجبرية التي ليست محضة فالأشاعرة كلهم هكذا، لأن الأشاعرة يقولون في أفعال الإنسان: الإنسان له قدرة غير مؤثرة في الفعل، ويقولون: إنه كاسب وليس عاملًا، فإذا قيل ما الكسب؟ قالوا: التوسط بين الفعل وعدمه، أو يفسرونه بقدرة لا تأثير لها.

لهذا يقول أهل السنة: ثلاث هي من عجائب الكلام التي لا تفهم: طَفرة النَّظّام، وأحوال أبي هاشم، وكسب الأشعري، والأشعري ما قاله، وإنما أصحابه قالوا هكذا، والمقصود أن خلاف الكتاب والسنة لا يأتي إلا بِشَرٍّ، ونتائجه كلها ضلال.

قوله: «**ولهذا يجعلون مَن وصل إلى شُهُودِ هذه الحقيقةِ..**» أي الصوفية، ونحو الحلولية والاتحادية، والفرق بين الحلول والاتحاد، أن الحلولي الذي يقول: إن الله حل في المخلوقات، تعالى الله وتقدس، أما الاتحادي فهو الذي يقول: لا فرق بين خالق ولا مخلوق، فالخالق هو المخلوق، والمخلوق هو الخالق، لأن الخالق اتحد في المخلوق، كما تقول النصارى: اتحد اللاهوت بالناسوت، أي الإله بالإنسان، فهؤلاء أهل الاتحاد قالوا كذلك، وهذا تصديق لقول الرسول ﷺ: «حتى

وربما تأولوا على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحِجر: ٩٩]، فاليقين عِنْدهم هو معرفة هذه الحقيقة!.

وقولُ هؤلاء كفرٌ صريح، وإنْ وقع فيه طوائفُ لم يَعلمُوا أنّه كفر، فإنّه قد عُلم بالاضطرار من دِين الإسلام أنّ الأمرَ والنَّهْي لازِمانِ لكلِّ عبدٍ ما دام عقلُه حاضراً إلى أنْ يَمُوت، لا يسقطان عنه، لا بشهوده القدر، ولا بِغَيْر ذلك، فمَن لم يعرف ذلك عُرِّفَه وبُيِّن له، فإنْ أصرَّ على اعتقاد سُقُوطِ الأمر والنَّهْي فإنّه يُقتل.

لو سلكوا جحر ضب لسلكتموه»[(١)]، يعني أنكم ستتبعون اليهود والنصارى في كل ما فعلوه وفي كل ما اعتقدوه، ولا يلزم أن تكون الأمة كلها، بل إذا صار بعضها على هذا صدق قول الرسول ﷺ في ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ المراد باليقين هنا في الآية هو الموت، وهذا خطاب للرسول ﷺ، يأمره الله تعالى أنِ اعبد ربك، يعني استمر على عبادتك حتى يأتيك الموت، فلا ترفع التكاليف عن أحد أصلًا، فما دام العقل موجودًا فهو مكلف، ولكن: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ومعنى ﴿وُسْعَهَا﴾ أي ما تسعه وتستطيعه.

قوله: **«فإنْ أصرَّ على اعتقاد سُقُوطِ الأمر والنَّهْي فإنّه يُقتل»** كيف يُقتل؟ ومن يقتله؟ ولي الأمر هو الذي إليه القتل، أما آحاد الناس فلا يجوز ذلك، لأنه لو حصل هذا من آحاد الناس لفسدت الأمور وصارت فوضى، إذْ كل يزعم أن فلانًا يستحق القتل فيقتل، وهذه العبارة تكررت في كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: من فعل ذلك يستتاب وإلا قتل، فالذي يستتيبه ولي الأمر، والذي يقتله ولي الأمر، وليس لآحاد الناس

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

. . . .

أن يفعلوا هذا.

ولكن آحاد الناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر حسب الاستطاعة، كما في حديث أبي سعيد: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[(١)]، والإنكار في القلب لا يسقط عن أحد، وهو كراهة هذا الشيء وبغضه ومفارقته، فهذا يجب على كل أحد، وأما الإنكار بالقول فهذا قد يجر إلى الإنسان ضررًا، فإذا كان يجر إليك ضررًا فأنت معافًى ومسامح في ذلك فضلًا من الله.

وأما الإنكار باليد فليس هذا إلا لأهل السلطة، جعل إليهم، إلا أن يكون تحت يدك، مثل الولد وما أشبه ذلك فهذا نعم، لأن الرسول ﷺ قال: «**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر**»[(٢)]، وهذا إنكار باليد، فهذا تحت يدك وأنت مسؤول عنه.

وكذلك كون الإنسان يمتثل أمر الله جل وعلا في كل ما جاء به الرسول ﷺ، ولكن كل هذا حسب استطاعة المرء، لأن الرسول ﷺ يقول: «**إذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه**»[(٣)]، فالنهي ليس فيه استثناء، لأن النهي سهل، فكونك تجتنبه وتتركه سهل، لأنه مجرد ترك، وأمره سهل، وليس هو مثل الفعل، فالفعل يتعلق بالاستطاعة.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٥) وأحمد (٦٦٨٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه البخاري (٧٢٨٨) ومسلم (١٣٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد كثُرت مثلُ هذه المقالاتِ في المستأْخِرِينَ، وأمّا المتقدمون من هذه الأمة فلم تكن هذه المقالاتُ معروفةً فيهم.

وهذه المقالات هي محادّةٌ لله ورسولِه، ومعاداةٌ له، وصَدٌّ عن سبيلِه، ومُشاقّةٌ له، وتَكْذيبٌ لرسلِه، ومُضادّةٌ له في حُكمِه، وإنْ كان مَن يَقُول هذه المقالاتِ قد يجهل ذلك، ويعتقدُ أنّ هذا الّذي هو عليه هو طريقُ الرسولِ، وطريقُ أولياءِ الله المحقِّقين، فهو في ذلك بمنزلةِ مَن يعتقد أنّ الصّلاة لا تجب عليه، لاستغنائه عنها بما حصل له من الأحوال القلبية، أو أنّ الخمر حلالٌ له لكَونه من الخَواصّ الّذين لا يضرهم شربُ الخمر، أو أنّ الفاحشةَ حَلَالٌ له لأنّه صار كالبحر لا تكدّره الذُّنُوب، ونحو ذلك.

ولا ريب أنّ المشركين الّذين كذّبُوا الرَّسُولَ يَتَرَدَّدُونَ بين البِدْعة المخالِفةِ لشرع الله، وبين الاحتجاج بالقدرِ على مُخَالفة أمرِ الله، فهذه الأصنافُ فيها شبه من المشركين؛ لأنهم إمّا أنْ يبتدعوا، وإمّا أنْ يحتجُّوا بالقدرِ، وإمّا أنْ يجمعوا بين الأمرينِ، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف: ٢٨]، وكما قال تعالى عنهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

قوله: «**وقد كثُرت مثلُ هذه المقالاتِ في المستأْخِرِينَ**» قصده بالمقالات مثل الحلول والاتحاد، ومثل الاحتجاج بالقدر، وكونه مثلًا بمنزلة الآلة، أو أنه لا قدر، وإن كان هذا قد حدث في عهد الصحابة، ولكنه حُسم في وقتهم، فلمّا علموا بذلك أفتوا بأنه كفر، وقالوا: إن من يقول بهذا ليس بمؤمن، فتُرك الأمر، ثم فيما بعد بُعث مرة أخرى، وصار له وجه آخر.

وقد ذَكَرَ عن المشركين ما ابتدعوه من الدِّين الّذي فيه تَحْلِيلُ الحرام، وعبادةُ الله بما لم يشرعِ الله، في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٣٨]، إلى آخر السُّورة.

وكذلك في سورة الأعراف: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]، إلى قوله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٨ ـ ٢٩]، إلى قوله: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ [الأعراف: ٣١ ـ ٣٢]، إلى قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف: ٣٣].

وهؤلاء قد يُسمُّون ما أحدثوه من البدع حقيقةً! كما يُسمُّون ما يَشْهدُونَ من القدر حقيقة. وطريقُ الحقيقةِ عِنْدهم: هو السلوكُ الّذي لا يتَقَيَّدُ صاحبُه بأمرِ الشّارع ونَهْيِه، ولكنْ بما يراه ويذوقُه ويجدُه في قلبه، مع ما فيه من غفلةٍ عن الله جلّ وعلا، ونحو ذلك.

وهؤلاء لا يحتجّون بالقدر مُطلقاً، بل عمدتُهم اتِّباعُ آرائهم وأهوائِهم، وجَعْلُهم ما يَرَوْنَه وما يَهْوَوْنه حقيقةً! ويأمرون باتّباعِها دونَ اتِّباع أمرِ الله ورسولِه، نَظِيرَ بِدَعِ أهلِ الكلامِ من الجَهْمِية وغيرِهم الّذين يجعلون ما ابتدعوه من الأقوال المخالفةِ للكتاب

. . . .

والسّنة حقائقَ عقليةً يجبُ اعتقادُها دونَ ما دلّت علية السمعيات! ثمّ الكتابُ والسّنة إمّا أنْ يحرِّفوا القَوْلَ فيهما عن مَوَاضعِه، وإمّا أنْ يُعرِضُوا عنه بالكُلّيّةِ، فلا يتدبّرونه ولا يعقلونه، بل يقولون: نفوِّضُ مَعْنَاهُ إلى الله، مع اعْتِقَادِهم نقيضَ مَدْلُولِه.

وإذا حُقّق على هؤلاءِ ما يزعمونه من العقليات المخالفةِ للكتاب والسّنة، وُجِدَتْ جَهْليّاتٍ واعتقاداتٍ فاسدةً.

وكذلك أولئك إذا حُقّق عليهم ما يزعمونه من حقائقِ أولياءِ الله، المخالفةِ للكتاب والسّنة، وُجِدَتْ من الأهواء الّتي يتبعها أعداءُ الله، لا أولياؤُه!.

تكلم شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أولًا عن الصوفية الذين يجعلون دينَهم أذواقَهم وما تهواه أنفسهم، دون النظر إلى ما جاء به المصطفى ﷺ، والفريق الثاني المتكلمون الذين يجعلون الأصل في هذا عقولَهم، ويسمون عقليّاتِهم براهينَ.

أما ما دل عليه الكتاب والسنة فيسمونها ظنونًا وشكوكًا وأمورًا يهوّنون منها كثيرًا، ثم يتبعون ما يقررونه بأنفسهم، ولا شك أنهم مخالفون للحق، وأنهم لا يريدون اتباع الحق، وإذا تبين أن هذا مرادُهم وأن هذا نهجهم، تبين أنهم ليسوا من أهل العلم ولا من أهل الاتباع.

وإذا كان الإنسان ليس من أهل العلم ولا من أهل الاتباع فلا يجوز الاعتدادُ به ولا النظر إلى ما يقوله، لأن الميزان عندنا هو ما جاء به الرسول ﷺ، فمن تركه وانحرف عنه، فهو إما يتبع هواه، أو أن له غرضًا معينًا أو في قلبه مرض، لا يخلو من هذه الأمور، فهؤلاء لا يخرجون عن ذلك.

وأصلُ ضلالِ مَن ضَلَّ: هو بِتَقْدِيم قِيَاسِه على النَّص المنزلِ من عِنْد الله، وتَقْدِيمِ اتِّبَاع الهوى على اتِّبَاع أمرِ الله.

فإنّ الذَّوْقَ والوَجْدَ ونَحْوَ ذلك، هو بِحَسَبِ ما يُحِبُّه العَبْد ويهواه، فكلُّ مُحِبٍّ له ذَوقٌ ووَجْدٌ بحسبِ محبّتِه وهواه.

يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «**أصل الضلال**» الضلال معناه مجانبة الحق، والعدول عنه والميل إلى طرق أخرى، وهذا كثير في الناس، والدواعي والدوافع له وإن اختلفت فالمنهج واحد في ذلك.

وقوله: «**الذوق والوجد**» الذوق هنا أي الذي يتذوقه بهواه وطبعه، وليس الذوقَ الذي يذوقه بفمه، وهو يكون أعظم من الشهوات التي تؤكل، وكذلك ما يميل إليه بحسب ما يقوده إليه الهوى، فلهذا كثر الانحراف في ذلك، وفضلوا طريق الأغاني والأذواق ـ التي تُستنتج من الأصوات الحسنة ـ على سماع كتاب الله جل وعلا، وكذلك ما دل عليه الكتاب والسنة من اجتناب الأهواء وأصوات الشياطين التي قد تَجتلِب بها كثيرًا من الناس، فيفضلونها على ما جاء عن الله جل وعلا وعن الرسول.

وهذا لا يخفى على الإنسان الذي يسبر أحوالهم وينظر إليهم، فكيف مثل هؤلاء يصيرون أئمة، ويجعل لهم اعتبار في المجتمع الإسلامي، والواجب ألا يكون لهؤلاء أي اعتبار، ولكن لا يتبين الأمر لكثير من الناس، لأن الدعاوى ما هي مجرد دعوى، بل يدّعون ثم يَلبِسون الحق بالباطل، فيخفى الحق على كثير من الناس، وهذه صفة أصحاب الباطل.

وقد ذكر الله ـ جل وعلا ـ عن اليهود أن هذا نهجهم، ولَبس الحق بالباطل، طريق يُعمي كثيرًا من الناس، إذ لو كان الحق واضحًا لما كان فيه إشكال، ولو كان الباطل أيضًا خالصًا ليس فيه شيء من الحق لم

فأهلُ الإيمانِ لهم من الذَّوْقِ والوَجْدِ مثلُ مَا بيّنه النّبيّ ﷺ بقوله في الحديث الصّحيح: «**ثلاثٌ مَن كُنّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان: مَن كان اللهُ ورسولُه أحَبَّ إليه ممّا سواهُما، ومَن كان يحبُّ المرءَ لا يُحِبُّه إلّا لله، ومَن كان يكرَهُ أنْ يرجعَ في الكفر بعدَ إذْ أنقذَه الله منه كما يكرهُ أنْ يُلقَى في النّار**»[1]، وقالَ ﷺ: «**ذاقَ طَعْمَ الإيمانِ مَن رَضِيَ بالله رَبّاً، وبالإسلامِ دِيناً، وبمحمدٍ نَبيّاً**»[2].

يكن في ذلك إشكال، ولهذا يحتاج الإنسان إلى فرقان يفرق به بين ما هو حق وما هو باطل، وهذا من أفضل ما يؤتاه العبد، أن الله جل وعلا يؤتيه فرقانًا يفرق به بين ما هو حق وما هو باطل.

وقد أمر الله جل وعلا عباده بتقواه، ووعدهم إذا اتقوا ربهم جل وعلا أن يعطيَهم فرقانًا يفرقون به، وهو العلم الصحيح النافع، الذي يؤخذ من كتاب الله، ومن سنة رسوله ﷺ، فإذا جُعل للإنسان فرقان يفرق به، فإنه لا ينطلي عليه مثل كلام هؤلاء، أنهم وصلوا إلى الحقائق التي ما وصل إليها غيرهم، والغالب عليهم أنهم مع دعواهم، يهونون من شأن الحق ومن أهله، بل ربما رموهم بالنقص والعدول عن الحق وأنهم ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه، فهذه هي طريقتهم غالبًا.

قوله ﷺ: «**ثلاث من كن فيه**»، و«**ذاق طعم الإيمان**» هذان الحديثان يدلان على أن الإيمان له طعم حقيقي، يذوقه الإنسان، ولكن ليس لكل أحد، وإنما من رضي بالله ربًا وبالإسلام دينًا، ومعنى كونه رضي بالله ربًا، أنه لن ينحرف عن ربوبيته، بل يكتفي بأنه ربه، وكذلك لا ينحرف عن الإسلام، بل يكون دينَه الذي يترسّمه ولا يتعداه، ويرتبط به ولا يريد

---

(١) أخرجه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

وأمّا أهلُ الكفرِ والبِدَعِ والشهواتِ، فكُلٌّ بِحَسبِهِ. قيلَ لِسُفْيانَ بنِ عُيَيْنَةَ: ما بالُ أهلِ الأهواءِ لهم محبّةٌ شَدِيدةٌ لأهوائهم؟ فقال: أَنَسِيتَ قولَه تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ [البَقَرَة: ٩٣]، أوْ نحوَ هذا من الكلام.

فعُبّادُ الأصنام يُحبّونَ آلِهتَهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

له بديلًا، والإسلام عام مطلق يشمل ما يكون في نفسه، وما يكون بينه وبين الناس.

وكذلك الحديث الأول، إذا كانت محبته لله ولرسوله، وكان لا يحب من يحب إلا لأجل الله جل وعلا لأنه مطيع لله، وكان أيضًا يرى أنه قد منّ الله عليه أكبر المنة، فلا يريد بديلًا عما هو فيه، ولو ألقي في النار، فمن كان بهذه الصفة فهو الذي يذوق طعم الإيمان.

معنى قوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم، وإشراب حب العجل في القلب مشكلة ومصيبة، إذا أشرب الإنسان في قلبه حب الشيء فمن يخلصه؟ تخليصه صعب جدًا، وما يخلصه إلا رب العالمين جل وعلا، وهكذا الباطل قد يشرب حبه في القلب، فيصبح لا يريد به بديلًا، فهذا السبب في كونهم يحبون مذاهبهم ويحبون باطلهم، لأن الكفر من جزائه أن يكون له كفر آخر، يعني السيئة جزاؤها سيئة أخرى، وتكون السيئة تدعو إلى السيئة، كما أن الحسنة يكون جزاؤها حسنة أخرى، والله لا يظلم أحدًا، جزاءً وفاقًا.

قوله: «**فعُبّادُ الأصنام يُحبّونَ آلِهتَهم**» ولولا ذلك ما قاتلوا دون أندادهم ومعبوداتهم، ولا بذلوا أموالهم ومُهَجَهم.

وقال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣].

ولِهذا يميل هؤلاءِ ويُغرَمون بِسَمَاع الشّعْر والأصوات الّتي تهيج المحبّةَ المطلقةَ الّتي لا تَخْتَصُّ بأهلِ الإيمان، بل يَشْتَرِكُ فيها مُحِبُّ الرحمن، ومحبُّ الأوثان، ومحبُّ الصُّلْبان، ومحبّ الأوطان، ومحبّ الإخوان، ومحبّ المُرْدان، ومحبّ النسوان، وهؤلاء الّذين يتبعون أذواقَهم.

وهؤلاء الّذين يتبعون أذواقَهم ومَوَاجيدَهم، من غيرِ اعْتِبَارٍ لذلك بالكتاب والسّنة، وما كان عليه سلفُ الأمّة.

فالمخالفُ لما بعث اللهُ بِه رسولَه من عِبَادتِه وحدَه، وطاعتِه، وطاعةِ رسولِه، لا يكونُ مُتبعاً لِدِينٍ شَرعه الله أبداً، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨-١٩]، بل يكون مُتبعاً لِهَواهُ بِغَيْر هدًى من الله، قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ﴾ [الشورى: ٢١].

وهم في ذلك تارةً يكونون على بِدعةٍ يسمُّونها حقيقةً، يقدِّمونها على ما شَرعه الله، وتارةً يحتجَون بالقدرِ الكوني على الشّريعة، كما

قوله: «**الّتي لا تَخْتَصُّ بأهلِ الإيمان..**» مقصود شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أن محبة أصوات الأغاني والنغمات الحسنة، مع ما يصاحبها من آلات اللهو، فهذه لا يمكن أن تجتمع مع ما يحبه الله جل وعلا من تلاوة كتابه والاستماع إليه.

أخبر الله بِهِ عن المشركين، كما تقدّم.

ومِن هؤلاءِ طائفةٌ هم أعلاهُم عِنْدَهم قدراً، وهم مستمسكون بما اختاروا بِهواهُم من الدِّين في أداء الفرائض المشهورة، واجْتنابِ المحرّماتِ المشهورة، لكن يَضلون بترك ما أمروا بِه من الأسباب الّتي هي عبادة، ظانِّينَ أنّ العارفَ إذا شهد القدرَ أعرض عن ذلك، مثل من يَجْعَل التَّوَكُّلَ مِنْهُم أو الدُّعَاء مِنْهُم ونَحْو ذلك من مقامات العامّة دون الخاصَّة، بِنَاءً على أنّ مَن شهد القدر علم أنّ ما قُدر سيكون، فلا حاجةَ إلى ذلك!

وهذا ضلال مُبين، فإنّ الله قدر الأشياء بأسبابها، كما قدر السَّعادةَ والشقاوةَ بأسبابهما، كما قال النّبيّ ﷺ: «**إنّ الله خلق للجنة أهلاً، خلقَها لهم وهم في أصلاب آبائِهم، وبعملِ أهل الجنّة يعملون، وخلق للنار أهلاً، خلقَها لهم وهم في أصلاب آبائِهم، وبعمل أهل النّار يعملون**»(١)، وكما قال النّبيّ ﷺ، لمّا أخبرَهم بأنّ الله كتب المقاديرَ، فقالوا: يا رسولَ الله، أفلا نَدَعُ العَمَلَ ونتّكل على الكتاب؟ فقال: «**لا، اعْمَلُوا، فكُلٌّ ميَسَّرٌ لِمَا خُلق له، أمّا من كان من أهل السَّعادةِ فسَيُيَسَّرُ لعملِ أهل السَّعادة، وأمّا من كان من أهل الشقاوة، فسَيُيَسَّرُ لعمل أهل الشقاوة**»(٢).

فكلّ ما أمرَ الله بِه عبادَه من الأسباب فهو عبادة، والتوكل مقرون بالعبادة، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود:

....

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها، دون قوله: «وبعمل أهل الجنة يعملون»، «وبعمل أهل النار يعملون».

(٢) أخرجه البخاري (١٣٦٢) ومسلم (٢٦٤٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

١٢٣]، وفي قوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرّعد: ٣٠]، وقولِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشّورىٰ: ١٠].

ومنهم طائفةٌ قد تترُك المستحبات من الأعمال دون الواجبات، فتنقُصُ بِقدرِ ذلك.

ومنهم طائفة يغترُّون بما يحصل لهم من خرقِ عادةٍ، مثل مكاشَفة، أو استجابة دَعْوةٍ مُخَالِفة للعادة، ونحوِ ذلك، فيشتغلُ أحدُهم بهذه الأمور عمّا أُمر به من العبادة والشُّكْر ونحو ذلك.

فهذه الأمورُ ونحوُها كثيراً ما تَعرِض لأهل السلوك والتوجّه، وإنّما ينجو العبدُ منها بملازمة أمرِ الله الّذي بَعَث به رسولَه، في كل وقت، كما قال الزُّهْرِيّ: كان مَن مضى مِن سلفِنا يقولون: الاعتصام بالسُّنّةِ نجاة. وذلك أنّ السّنةَ ـ كما قال مالكٌ رَحِمَهُ اللهُ ـ مثلُ سفينة نوح، مَن رَكِبَها نجا، ومَن تخلّف عنها غَرِق.

والعبادةُ والطّاعةُ والاستقامةُ ولُزُوم الصِّرَاط المستقيم، ونحوُ ذلك من الأسماء، مقصودُها واحد، ولها أصلان:

أحدُهما: أنْ لا يَعبُدَ إلّا الله.

والثّاني: أنْ لا يَعبُدَه إلّا بما أَمَر وشرَع، لا يعبُده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع.

قوله: «**ولها أصلان**» هذان الأصلان جامعان لكل الخير، ولا عبرة بالعمل إلا بهما، فلا يَقصِد بعبادته إلا رب العالمين جل وعلا، فإذا دخلته المقاصد الأخرى، سواء مقاصد الدنيا، أم حظوظ النفس من الثناء وحب الظهور وإشارة الناس إليه، فالعمل حابط وباطل ولا قيمة له، وسوف يندم حين لا ينفع الندم، ولهذا جاءت الآثار الكثيرة من أحاديث

....

النبي ﷺ أن ناسًا يوم القيامة يأتون بحسنات، ثم يؤمر بهم إلى النار، تقول الملائكة تسأل ربها جل وعلا: ما علمنا إلا خيرًا، فيقول: ما قصدوا بأعمالهم وجه الله، إنما قصدوا كذا وكذا.

فالمقاصد يعلمها الله جل وعلا، ولكن الغالب أنها تظهر للناس، ولهذا يعرفون مثلًا أن هذا مُرَاءٍ، يريد الظهور لدى الناس، ولو لم يخبر بذلك، هذه سنة الله ﷻ.

والثاني: لا بد أن يكون العمل جاء به المصطفى ﷺ في الشرع، وإلا فهو مردود، يقول الله ﷻ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١﴾، الغاشية هي يوم القيامة التي تغشى الناس كلهم، ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾، متى كانت خاشعة وعاملة وناصبة؟ في هذه الدنيا، ﴿تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية: ١ ـ ٤]، خشوع وعمل ونصب، ولكن النتيجة أنها تصلى النار الحامية، لأنها على أعمال مبتدعة ضالة، فصار النصب والخشوع والعمل سبيلًا إلى جهنم، وقائدًا إلى النار نسأل الله العافية، يتزودون إلى جهنم بنصبهم وعملهم!.

فلا بد من اتباع الحق الذي جاء به المصطفى ﷺ، وإلا فيَهلِك الإنسان، ومن هنا جاء هذان الأصلان، قالوا: لا بد أن يكون العمل خالصًا لله جل وعلا، لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البَقَرَة: ١٦٣]، فلا بد أن يكون التأله والتعلق بالله وحده، فإذا تعلق القلب بغيره، وصار الالتفات إلى غيره، والمقصد إلى شيء معين من أمور الدنيا أو حظوظ النفس فقد ضل الإنسان وهلك.

وكذلك إذا كان نهجه وعمله على غير ما جاء به المصطفى ﷺ، وهذا هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله، الأول:

....

معنى شهادة أن لا إله إلا الله، والثاني: معنى شهادة أن محمد رسول الله، شهادة أن لا إله إلا الله، أن لا تأله وتعبد إلا ربك جل وعلا، الذي خلقك وأوجدك، وأوجد لك كل شيء، الثاني: أن تكون العبادة هي التي جاء بها الرسول وأمر بها ﷺ، وإلا فيكون الإنسان معرَّضًا لعذاب الله جل وعلا.

والأدلة على هذا كثيرة جدًّا، بل كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كلها في هذا، ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، العبادة لا تكون إلا طاعة الأمر، والأمر لا بد أن يأتي به الرسول الذي أرسله الله إلينا، فليس الأمر إلينا نختار ما نشتهي وما نريد، لا بد أن يكون الرسول ﷺ جاء به، فنتبع الهدى.

ومعنى شهادة أن محمدًا رسول الله، أنه رسول، والرسول معروف، الرسول أرسل وله مرسِل، ومعه رسالة، والرسالة تبلغ إلى مرسل إليه، إذن كلمة رسول تتطلب أربعة أشياء، الأول: رسول يبلغ، الثاني: رسالة تحمل، الثالث: مرسِل أرسل بهذه الرسالة، والرابع: مرسَل إليه، فنحن الذين أرسل إليهم، إذ شريعة الرسول ﷺ جاءت إلى قيام الساعة.

فالرسالة هي التي جاء بها المصطفى ﷺ، لا بد أن نطيعه في هذا ونتبعه، وإلّا نَكُنْ عصاة وضلالًا، وسوف نسأل عن هذا، هل جاءكم الرسول؟ ولهذا كان ﷺ يقول: «**وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون**»[(١)]، أي يقول الله جل وعلا: هل بلغكم الرسول؟ الجواب: نعم الرسول ﷺ بلغ كل شيء.

والرسول ﷺ ما ترك شيئًا، فإذا كان يعلمنا أدب التخلي، فلما قال

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) في خطبة عرفة بحجة الوداع من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

....

يهودي لسلمان: قد علمكم نبيكم كل شيء حتى الخِراءة! فقال سلمان: أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع أو بعظم[(١)].
وقال رسول الله ﷺ: «**إنما أنا بمنزلة الوالد أعلمكم، فإذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة ولا يستدبرها، ولا يستطب بيمينه**»، وكان يأمر بثلاثة أحجار، وينهى عن الروث والرِّمّة[(٢)]. وفي صحيح مسلم يقول ﷺ: «**إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم**»[(٣)].

وإذا كان الرسول ﷺ يعلمنا فيقول: «**إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء**»[(٤)].

وإذا كان الرسول ﷺ يعلمنا فيقول: «**لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله فقال: باسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدَّر بينهما ولد في ذلك لم يضرُّه شيطان أبدًا**»[(٥)]، ونرى اليوم كثيرًا من الأولاد كأن معهم شياطين مشارِكة لهم، بسبب أن آباءهم لا يسمون، والله جل وعلا يقول: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الإسراء: ٦٤]، كيف يشاركهم في الأموال والأولاد؟ إذا لم يسموا شاركهم في

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢) من حديث سلمان رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أبو داود (٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأصله في مسلم (٢٦٥).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٤٤) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.
(٤) أخرجه مسلم (٢٠١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٥) أخرجه البخاري (١٤١) ومسلم (١٤٣٤) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النِّسَاء: ١٢٥].

فالعملُ الصَّالح هو الإحسان، وهو فعلُ الحسنات، والحسنات هي ما أحبه الله ورسولُه، وهو ما أمَر به أمْرَ إيجابٍ أو استحباب.

فما كان من البدع في الدّين الّتي ليست في الكتاب، ولا في صحيح السّنة، فإنّها ـ وإنْ قالَها مَن قالَها، وعمِل بها مَن عمِل ـ ليست مشروعة؛ فإنّ الله لا يُحِبّها ولا رسولُه، فلا تكون من الحسنات، ولا من العمل الصَّالح. كما أنّ مَن يعملُ ما لا يجوز، كالفواحش والظُّلم، ليس من الحسنات، ولا من العمل الصَّالح.

أكلهم، وإذا لم يسموا أيضًا عند الاتصال بالزوجة يشاركهم الشيطان في الأولاد.

فالمقصود أن الرسول ﷺ كان يعلمنا كل ما ينفعنا، فهل تتصور أنه يترك باب العقيدة وباب معرفة ربنا جل وعلا ملتبِسًا مشتبِهًا، حتى يأتي الجهم بن صفوان ونحوه يبين لنا؟ هذا ما ينبغي أن يقوله مسلم يعقل ما يقول.

فهذا هو معنى شهادة أن محمدًا رسول الله، تشهد أنه جاء بالحق وبلغه وبينه، وأن كل ما جاء به يجب أن نترسمه ونعمل به، كل واحد منا حسب الاستطاعة، علق ذلك باستطاعتك، وهذا من فضل الله ﷻ ورحمته بنا.

وأمّا قوله: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وقوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١١٢]، فهو إخلاص الدّين لله وحدَه.

وكان عمر بن الخطاب يقول: «اللّهُمَّ اجْعَل عَمَلي كُلَّه صَالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجْعَل لأحد فيه شيئاً»[1].

وقال الفُضيل بن عِيَاض، في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هُود: ٧]، قال: أَخْلَصُه وأَصْوَبُه، قالوا: يا أبا عَليّ، ما أَخْلَصُه وأَصْوَبُه؟ قال: إنّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً، لم يُقبل، حتّى يكون خالصاً صواباً، والخالص أنْ يكون لله، والصّواب أن يكون على السّنة[2].

معنى قوله عمر: «**اجعل عملي كله صالحًا**»، يعني كله على وفق ما جاء به الشرع، لأن الصالح هو ما جاء به الرسول ﷺ، فإذا كان بالبدع والآراء والأهواء فليس صالحًا، بل هو فاسد.

وقوله: «**لوجهك خالصًا**»، الإخلاص كونه لله وحده، لأن العمل قد يكون صالحًا في نفسه لأنه موافق للسنة، ولكن يدخله الرياء، يدخله مرادات الناس أو مراءاتهم، أو صرف وجوههم إليه حتى يُثنوا عليه ويمدحوه، فيكون مردودًا وإن كان ظاهره صالحًا.

قول الفضيل: «**الخالص أنْ يكون لله، والصّواب أن يكون على السّنة**» وهذا هو معنى الشرطين المتقدمين، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وشهادةِ أن محمدًا رسول الله، فهذا الذي يجب على المسلم أن يفهمه جيدًا، ويعمل على مقتضاه، لأنه لا خلاص له إلا بذلك، وسوف يُسأل

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٩٥). (٢) أخرجه أحمد في الزهد (ص١١٨).

. . . .

عنه حينما يحُلّ في قبره، والله جل وعلا علام الغيوب لا يخفى عليه شيء، ولكن لا يأخذ الله جل وعلا إلا بالعمل الذي يعمله الإنسان.

ولهذا في حديث عبد الله بن مسعود ﷺ الذي اتفق عليه البخاري ومسلم وهو أصل من أصول الدين الإسلامي: «**إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يومًا**»، إلى أن قال: «**وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا شبر أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها**»، يعني يموت على ذلك فيدخلها، وبالعكس: «**إن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا شبر أو ذراع**»، يعني مسافة قصيرة جدًّا: «**فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها**»[(١)]، ثم قال: «**إنما الأعمال بالخواتيم**»[(٢)]، يعني الذي يُختم له على ذلك.

والشاهد هنا أنه قال: «**فيعمل بعمل أهل النار**»، وفي المقابل: «**فيعمل بعمل أهل الجنة**»، لن يدخل الجنة والنار بمجرد الدعوى، بل لا بد من العمل، فالعمل هو الذي يجزى عليه الإنسان، وهذا أمر مهم جدًّا.

ولهذا نقول: إن مهمة العبد المسلم أنه دائمًا يسأل ربه أن يهديه الصراط المستقيم وأن يثبته على هذا، وأن يجعل عمله خالصًا، فإذا كان مثلُ عمر ﷺ يخاف على نفسه، يقول: اللهم اجعل عملي صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا، ومقتضى هذا الدعاء أنه يخاف أن يعمل عملًا غير صالح، أو أن يكون في عمله شيء يبطله،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠٧) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

. . . .

إذ لو كان آمِنًا ما دعا بهذا الدعاء.

وأيضًا فإن إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ، وهو من أجلة التابعين ومن أكابر أولياء الله، لما مر على قوله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: ٣٥]، قال: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟![1] يعني إبراهيم ما أَمِن، لأنه قال: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، والناس لهم عقول ولهم أفكار، ومع ذلك ضلوا، فصاروا عبدة للأصنام، مع العقول والأفكار، قال: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟!

وإبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ، كان من تلامذة الصحابة وأتباع الصحابة، وهو ممن وصل إلى حقيقة التوحيد، كان فقيرًا، وقَصَرَ نفسه على التعليم وعلى العمل، ذات مرة أتت إليه زوجته وهو جالس مع تلامذته، قالت: الأولاد جياع، اخرج ابحث لنا عن طعام، فهم من يومين لم يذوقوا شيئًا! فألزمته فخرج، وليس معه شيء، خرج وركب راحلته وذهب ليأتي بطعام من بلد ما، فلما وصل لم يجد شيئًا، كيف والناس لا يعطون الطعام إلا بمقابل، فرجع، ولما أقبل على بيته قال: أأدخل كما خرجت؟! ينظر إلي الناس! فأناخ راحلته عند كثيب رمل، فملأ الأواني التي معه رملًا، حتى يُري الناس أنه جاء بشيء، وأدخل الناقة في البيت وأنزل عنها الرمال، وذهب إلى مجلسه.

فجاءت الزوجة مسرعة ففتحت الغرائر، فإذا هو حبٌّ أحمرُ خالصٌ ليس فيه أي خِلْط، فجاءت تشكره تقول: جزاك الله خيرًا، جئتنا بحب لا يحتاج إلى تطييب، فكفاه الله جل وعلا مؤنة الطلب، فهذا شيء مما

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «جامع البيان» (١٣/ ٦٨٧).

فإنْ قيل: فإذا كان جميعُ ما يُحِبّه الله داخلاً في اسم العبادة، فلماذا عُطِفَ عليها غيرُها؟ كقولِه في فاتحة الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، وقولِه لنبيِّه: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: ١٢٣]، وقولِ نوح: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٣]، وكذلك قولُ غيره من الرُّسُل؟

يُجزى به الإنسان، وإن كانوا هم لا يعدون مثل هذه شيئًا، وإنما المهم أن يعملوا لآخرتهم، ويجتهدوا في ذلك.

المقصود أن قوله: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم خليل الرحمن»، يدل على الخوف، وكثير من الناس يقول: الحمد لله ما نخاف على أنفسنا، وهذا اغترار، فمن يعلم؟ فإن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء.

ولما قال الله جل وعلا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحَديد: ١٦]، إلى آخره، جاء بعدها: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝﴾ [الحديد: ١٧]، يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذه الآية: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾: «فيه إشارة إلى أنه تعالى يلين القلوب بعد قسوتها، ويَهدي الحَيَارى بعد ضَلتها، ويفرِّج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتَّان الوابل، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراهين القرآن والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن يشاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعال، وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال»[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢١).

قيل: هذا له نظائرُ، كما في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العَنكبوت: ٤٥]، والفحشاء من المنكر، وكذلك قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠]، وإيتاء ذِي القُرْبَى هو من العدل والإحسان، كما أنّ الفحشاء والبغي من المنكر.

وكذلك قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وإقامةُ الصَّلَاة من أعظم التَّمَسُّك بالكتاب.

قوله: «**هذا له نظائر**» لا يكفي أن نقول: الجواب هذا له نظائر، بل الجواب أن نقول: هذا العطف لأمور، ولكن شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ يكتب للعلماء، ولطلبة العلم، وسيبين ذلك بعد قليل من الكلام.

فالعطف إما للاهتمام، أو أنه ينص عليه لأنه قد يتوهم أن الأول يكتفى به، وهذا كثير كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البَقَرَة: ٢٥]، هل يكون إيمان بلا عمل صالح؟ لا، لأن الأعمال الصالحات هي التي يحصل بها الإيمان، وهذا الذي اغتر به كثير من الناس مثل المرجئة الذين يقولون: يكتفى بالإيمان، بدليل أن العطف يقتضي المغايرة، فيقولون مثلًا: لو كان العمل الصالح كما تقولون: إنه جزء من الإيمان، لما جاءت الأعمال معطوفة على الإيمان، هذا قول المرجئة، وهو خطأ، ولهذا يكتفى أحيانًا بذكر الإيمان، فيذكر الإيمان مطلقًا، لأنه يقتضي الأعمال الأخرى.

وأحيانًا يعطف الشيء على نفسه، كقوله جل وعلا: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ !﴾ [الأعلى: ٢-٤]، فهذه كلها عطفت على شيء واحد، تعطف للاهتمام بالشيء حتى يكون الأمر واضحًا وجليًا.

قوله: «**وإقامةُ الصَّلَاة من أعظم التَّمَسُّك بالكتاب**» أي فالتمسيك

وكذلك قولُه عن أنبيائه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء: ٩٠]، ودعاؤهم رغباً ورهباً من الخيرات، وأمثال ذلك في القرآن كثير.

وهذا الباب يكون تارة مع كون أحدِهما بعضَ الآخَر، فيُعطف عليه تخصيصاً له بالذكر، لكونه مطلوباً بالمعنى العام والمعنى الخاص. وتارة تتنوع دلالة الاسم بحال الانفراد والاقتران، فإذا أُفرد عَمّ، وإذا قُرن بغيره خَصّ، كاسم الفقير والمسكين، لمّا أُفرد أحدُهما..

بالكتاب منه إقامةُ الصلاة، ولكن لما كانت للصلاة أهمية كبيرة عُطفت على ذلك، وإن كانت مفهومة من الآية.

قوله: «**وأمثال ذلك في القرآن كثير**» كل القرآن بهذه الصفة، ولا يجوز أن يكون هذا من الأمور التي يُشكَّك فيها، أو تكون مدعاة إلى ترك العمل، كما يقوله أهل الضلال الذين يُسمَّون مرجئة، والمرجئة سُمُّوا بذلك من الإرجاء الذي هو التأخير، حيث أخروا العمل عن الإيمان وقالوا: يكتفى بالإيمان عن العمل، فإذا كان الإنسان مؤمنًا فيكفيه ولا يلزمه أن يصلي أو يصوم، ثم قالوا: إن الإيمان بناء على ذلك واحد، أي الناس فيه سواء، لا يكون أحدهم متميزًا عن الآخر بإيمانه! وكل هذا خطأ وضلال، فالله جل وعلا فاوَتَ بين خلقه بالفُهوم وبالعلوم وبالعمل.

ثم كلما كان الإنسان بالله أعلمَ، فالمفروض أن يكون له أخوفَ، ويكون مقامُه عنده أرفعَ، هذا مقتضى ذلك، ولكن الأمر بيد الله، فلا بد من توفيق الله، ولا بد أن يجعله الله جل وعلا محبًا لهذا الأمر وراغبًا فيه وعاملًا، وإلا إذا تخلى الله عن العبد فإن الشياطين وأهواء نفسه هي التي تتولاه، ويضل وإن كان عالمًا.

في مثل قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٧٣]، وقوله: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ [المائدة: ٨٩]، دخل فيه الآخر. ولمّا قُرن بينهما في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، صارا نوعَيْنِ.

وقد قيل: إنّ الخاصَّ المعطوفَ على العام، لا يدخل في العام حال الاقتران، بل يكون من هذا الباب. والتَّحْقِيق أن هذا ليس لازماً، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

قوله: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ﴾ دخل فيهم المساكين، وقوله: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ﴾ دخل فيهم الفقراء، ولمّا جاءا مجتمعَيْنِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾، إلى آخره، فيفسر الفقير بمعنًى، ويفسر المسكين بمعنًى آخر. ومثل هذا الإسلام والإيمان، ومثله البر والتقوى، وما أشبه ذلك كثير، إذا اقترنا صارا نوعين، وإذا أُفرد أحدهما دخل الآخر فيه.

والفقهاء يقولون: إن الفقراء يقدمون في الزكاة على المساكين، فالفقراء أكثر حاجة، لأن الله قدمهم، وقالوا في تعريف الفقير: هو الذي لا يجد شيئًا، والمسكين هو الذي يجد بعض القوت، كل هذا أخذًا من كلام الله جل وعلا، ويشهد لهذا قول الرسول ﷺ، لما كان في الحج، ودنا من الصفا، قرأ ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، فقال: «**أبدأ بما بدأ الله به**»، فبدأ بالصفا[1]، لأن تقديم الشيء يدل على الاهتمام به.

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

وذكرُ الخاصّ مع العام يكون لأسباب متنوعة: تارةً لكونه له خاصّيّةٌ ليست لسائر أفراد العام، كما في نوح وإبراهيمَ وموسى وعيسى، وتارةً لكون العامّ فيه إطلاقٌ قد لا يفهم منه العموم، كما في قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٢ ـ ٤]، فقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ يتناوَلُ كلَّ الغَيْب الّذي يجب الإيمان به، لكنْ فيه إجمال، فليس فيه دلالة على أن من الغَيْب ما ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾، وقد يكون المقصود أنهم يؤمنون بالمخبَر به، وهو الغَيْب، وبالإخبار بالغَيْبِ، وهو ما ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾.

ومِن هذا الباب قولُه تعالى: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]، وتلاوةُ الكتاب هي اتِّبَاعه والعملُ به، كما قال ابنُ مسعود في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٢١]، قال: يُحلّون حلالَه، ويحرّمون حرامَه، ويؤمنون بمتشابِهِه، ويعملون بمُحْكَمِه. فاتباع الكتاب يتَنَاوَل الصَّلَاة وغيرَها، لكن خصها بالذكر لمزيتها.

وكذلك قولُه لموسى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ۝١٤﴾ [طه: ١٤]، وإقامةُ الصَّلَاة لذكره من أجلِّ عِبَادَتِه، وكذلك قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وقولُه: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]، وقولُه: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، فإنّ هذه الأمورَ هي

. . . .

أيضاً من تمام تقوى الله، وكذلك قولُه: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هُود: ١٢٣]، فإنّ التَّوَكُّل هو الاستعانة، وهي من عبادة الله، لكن خُصّت بالذكر ليقصدها المتعبِّد بخصوصها، فإنّها هي العون على سائر أنواع العبادة، إذْ هو سبحانَه لا يُعبد إلّا بمعونته.

وإذا تبيَّن هذا، فكمالُ المخلوق في تحقيق عبوديته لله، وكلما ازْدَادَ العبد تحقيقاً للعبودية، ازْدَادَ كَمَاله، وعَلَتْ دَرَجَتُه، ومَن توهَّم أنّ المخلوقَ يخرُج من العبوديّة بِوَجْه من الوُجُوه، أو أنّ الخُرُوج عنها أكملُ، فهو من أجْهَل الخلق، بل مِن أضلِّهم.

هذا الذي ذكره شيخ الإسلام من باب الاستطراد، وليس من صلب الموضوع، ومن عادته أنه يستطرد، ويأتي بأشياء ليست في صلب الموضوع الذي يتكلم فيه، وهذا كثير جدًّا في كتبه رَحِمَهُ اللهُ، لكثرة علمه، ولكونه عنده من الحرص على نفع المتعلم الشيء الكثير.

وقد أطال في هذا المعنى في كتابه الإيمان الكبير، وقال: إن هذه أمور يجب أن تفهم وتعلم، حتى لا يكون هناك مخالفة كما وقع لكثير من الناس، بحيث إنهم لم يفهموا هذا الشيء.

فالمقصود أن كتاب الله جل وعلا نزل باللغة العربية، وإذا لم يفهم الإنسان اللغة العربية كما ينبغي، ويفهم مفرداتها، ومنها التي إذا اقتَرَنت مثلًا صار لها معنًى، وإذا انفردت صار لها معنًى، وغيرَ ذلك، فلا يفهم كلام الله جل وعلا، لأنه نزل بهذه اللغة، وهو أمر ينبغي لطالب العلم أن يهتم به كثيرًا، لأنه يحُلّ له إشكالات استشكلها بعض الناس الذين لم يعتنوا بذلك.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨].

وقوله: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ يعني أن الملائكة وهم أفضل الخلق دائمًا في عبادة الله جل وعلا، وهو خلقهم لعبادته، فهم لا يفترون عن العبادة ولا يستحسرون، بل يقفون لعبادته مع أنهم عباد لله جل وعلا مكرمون، فكيف بمن يكون بعيدًا، ويكون متبعًا لشهواته!

فالمقصود أن الإنسان لا يجوز أن يخرج عن عبودية الله بحال من الأحوال، بل كمالُه في ذلك، فإذا خرج عنها وزعم أنه أبيح له كل شيء، فإنه شيطان من الشياطين، أي صار مسلكه مسلك الشيطان، وقد ضل في هذا كثير من الناس، نسأل الله العافية، وزعموا أنهم أولياء، بل زعموا أنهم خُتمت بهم الولاية، وهم أرادوا اتباع أهوائهم، ولهذا فتحوا الباب أمامهم، وقالوا: ليس هناك شيء محرم علينا، لأننا وصلنا إلى الغاية! أفإذا وصلتَ إلى الغاية، فمعناه أن تصل إلى شهواتك وإلى مراداتك!!

أما الملائكة فهم قائمون بعبادة الله الليل والنهار لا يفترون عن ذلك، وكذلك رسل الله يجتهدون في عبادة الله ويحذَرون من أدنى مخالفة، فهل يستساغ من آحاد الناس أن يخرج عن العبادة، فيقول: خُفف عني، أو أزيلت عني التكاليف، فأصبحت غير مكلف؟! هذا لا شك أنه إما يريد إفساد أديان الناس، أو أنه يريد التغطية على نفسه فقط حتى يتحصل على شهواته ومراداته، أما عباد الله فهم يخافون من الله أشد الخوف، وإذا وقع أحدهم في أدنى مخالفة بادر إلى التوبة والرجوع إلى الله جل وعلا.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٨٨ ـ ٩٥].

قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾، سبق أن معناه: آتيه ذليلًا خاضعًا ليس بيده أيّ شيء، وليس بيده أيّ تصرف، لا يملك حتى الشيء الذي يستر به عورته! يقول النبي ﷺ: «**إنكم محشورون حفاة عراة غُرْلًا**»[1]، أي: غير مختونين، يعني القطعة التي ترمى من بدن الإنسان تعود إليه، ما يَفقِد من بدنه أي شيء! ولما سمعت عائشة رضي الله عنها الحديث قالت متعجبةً: يا رسول الله! الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟! قال: «**يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض**»، لا أحد يُهِمُّه النظر، كلهم شاخصة أبصارهم، قد بلغت قلوبهم الحناجر، ما يدري من بجواره.

ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ﴾، يعني شبه سكران، لكن ليس سكران، ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢]، ولا تمييز في هذا بين غني وفقير وملك ومملوك، كلهم سواء في خروجهم من القبور بهذه الصفة، وأول من يكسى من عُرْيِه في الموقف إبراهيم عليه السلام.

فإذا كانت الأنبياء هكذا أيضًا فكيف بغيرهم؟!

والمقصود أن هذا المجيء: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٩) ومسلم (٢٨٦٠) من حديث عبد الله بن العباس رضي الله عنهما.
وأخرجه البخاري (٦٥٢٧) ومسلم (٢٨٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقال تعالى في المَسِيح: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝٥٩﴾ [الزخرف: ٥٩].

ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣]، يعني ذليلًا خاضعًا، وهو ليس من باب العبودية التي تنفع، ليس من العبودية المختارة التي يختارها العبد، بل هذه عبودية القهر، وجريان الحكم القدري الذي لا حيلة فيه، ولا يمكن لأحد أن يتخلص منه، وهذا عم الملائكة وعم البشر وعم كل مخلوق، و«إنْ» في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [مريم: ٩٣] معناها «ما»، أي ما في السموات والأرض أحد إلا ويأتي بهذه الصفة.

وقوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ﴾ يعني لما قال النصارى في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إنه الله أو ابن الله، قال الله جل وعلا: إنه عبد من عباد الله، أنعمنا عليه، أي نِعَمُ الله خصته زيادة على غيره، حيث خلقه من أنثى بلا ذكر، ثم صار يتكلم وهو في المهد، وعلمه الله الكتاب، وعلمه ما علمه، وجعل له من الآيات ما لم يحصل لغيره كإحياء الأموات، وكونه يخبر بني إسرائيل بما في بيوتهم.

فضَلّ كثير من بني إسرائيل في عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ففريق جعلوه الله، تعالى الله وتقدس، والفريق الثاني رمَوا أمه بالفجور وحاولوا قتله، ولكن الله رفعه إلى السماء، وسوف ينزل في آخر الزمان، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ولا يقبل الجزية، فهو من هذه الأمة، ويحكم بشرعة خاتم الرسل محمد ﷺ، ويقتل الدجال.

ونزول عيسى وقتل الدجال من أشراط الساعة الكبار، التي إذا جاءت فلا يُقبل من أحد إيمان، ولا يقبل منه أيضًا عملٌ صالح يزداد به، لأن الناس يُضطرّون عندها إلى الإيمان، كما قال جل وعلا: ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فهذا من بعض الآيات التي في صحيح مسلم: «**ثلاث إذا**

وقال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠].

وقال تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء: ١٧٢ ـ ١٧٣].

خرجن لم ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت، الدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها».

وجُعل خروج الدجال آية من الآيات الكبيرة، لأن الكون يبدأ بالتغير، ففي حديث الدجال، قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: «**أربعون يومًا، يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم**». وهذا حقيقة وليس من باب التأويل، ولهذا قال الصحابة: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «**لا، اقدروا له قدره**»[1]. يعني صلوا صلاة سنة في هذا اليوم الأول، وصلوا صلاة أسبوع في اليوم الثاني.

وعلى كل حال، فإن الأمور التي يخبرنا بها رسولنا ﷺ يجب علينا أن نؤمن بها، وسوف تقع، ولكن الله أعلم متى تقع.

قوله: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ﴾ الاستنكاف: أن يجد في امتثال الأمر غضاضةً عليه فلا يفعله، يستنكف من هذا الشيء، كأنه يترفع عنه، والاستكبار: أن يمتنع من امتثال الأمر، وهذا لا يكون لعبد من عباد الله جل وعلا.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [فصلت: ٣٧ ـ ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾﴾ [الأعراف: ٢٠٥ ـ ٢٠٦].

فإذا كانت الملائكة والمسيح عليهم السلام يخضعون ويذلون لله جل وعلا، وكلٌّ منهم يُقرّ بأنه عبد، فغيرهم من بابٍ أولى، وكذلك عباد الله الصالحون، بل إن العبد ليغتبط بأنه يعبد ربه، ويرى أن هذا أفضل ما يفعله، وأن كونه عبدًا لله وإضافته إلى ربه هو شرف له.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، «**عند**» هذه تدل على المكان.

والمقصود بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾، هم الملائكة، ومعنى ذلك أن الملائكة أقرب إلى الله منا نحن في الأرض، ويدل على أن الله جل وعلا فوق، وأن الملائكة الذين في السماء يكونون أقربَ إليه من الذين يكونون في الأرض، فيسبحون له بالليل والنهار وهم لا يفترون، لا يفترون من التسبيح دائمًا، فتسبيحهم كأنه مثلُ النَّفَس الذي أُلْهِمْناه، فإذا وقف النفَس مات الإنسان، فهم كذلك، حياتهم وأكلهم وشربهم هو التسبيح، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وكذلك أهل الجنة يُلهمون التسبيح كما نُلهَمُ نحن النفَس، ويكون ذلك من النعيم.

وهذا ونحوه ـ مما فيه وصفُ أكابرِ الخلق بالعبادة، وذمُّ مَن خرج عن ذلك ـ متعدّدٌ في القرآن، وقد أخبَر أنه أرسَل جميع الرسل بذلك.

فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى لبني إسرائيل: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [العنكبوت: ٥٦]، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ [البقرة: ٤١].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البقرة: ٢١]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾﴾ [الزمر: ١١-١٤].

وكل رسول من الرسل افتَتح دعوتَه بالدعاء إلى عبادة الله، كقول نوح ومَن بعدَه عليهم السلام في سورة الشعراء وغيرها: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

قوله: «**وهذا ونحوه.. متعدد في القرآن**» هذا الأمر الذي يشير إليه شيخ الإسلام رحمه الله، عجبًا أن يحتاج إلى استدلال! لأن شيخ الإسلام يقصد هؤلاء الذين يقولون: إننا خرجنا عن مقتضى العبودية، ووصلنا إلى حد قد سقطت عنا التكاليف والعبادات، لأننا قد وصلنا إلى الحقيقة! هل هذا يحتاج إلى أن يستدل عليه؟! إنه ضلال بين واضح، لكن قد ينطلي على بعض الجهلة وبعض الناس الذين يحسنون الظن بهؤلاء فيصدقونه، فلهذا أكثر الاستدلال على ذلك.

مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وفي المسند عن ابنِ عمرَ عن النبي ﷺ أنه قال: «**بُعِثتُ بالسيف بين يدَيِ الساعة حتى يُعبَدَ اللهُ وحده لا شريك له، وجُعل رِزقي تحت ظلِّ رُمحي، وجُعل الذلةُ والصَّغارُ على مَن خالف أمري**»(١).

وقد بيَّن أن عبادَه المخلَصين هم الذين يَنْجُون من السيئات التي زيّنها الشيطان، قال الشيطان: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾، قال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٣٩ ـ ٤٢]، وقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

وقال في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الصافات: ١٥٩-١٦٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٩-١٠٠].

وبالعبودية نَعَتَ كلَّ مَن اصطفَى مِن خلقِه في قوله: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص: ٤٥-٤٧]، وقوله:

. . . .

(١) أخرجه البخاري تعليقًا بغير صيغة الجزم، في كتاب الجهاد والسير، باب ما قيل في الرماح، وأحمد (٥١١٤)، وروى أبو داود بعضه (٤٠٣١)، وحسنه الحافظ ابن حجر لشواهده.

﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧]، وقال عن سليمان: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، وعن أيوب: ﴿نِعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ [ص: ٣٠]، وقال عنه: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ [ص: ٤١]، وقال عن نوح عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدًا شَكُورًا ۝٣﴾ [الإسراء: ٣].

وقال عن خاتم رسله: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾ [الإسراء: ١]، وهو أُولى القبلتَين، وقد خصّه الله بأن جعل العبادة فيه بخمسمئة ضعف، والمقصود بمضاعفة الحسنات هو المسجد الذي حرّقه اليهود، عليهم لعنة الله، ويظن البعض أن المسجد الأقصى هو الصخرة والقبة المحيطة بها، وليس كذلك.

وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٍ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠﴾ [النجم: ١٠].

وقال: ﴿عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، وقال: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

ومثل هذا كثير متعدد في القرآن.

قوله: «**ومثل هذا كثير متعدد في القرآن**» كون كل أحد عبدًا لله جل وعلا مما لا يحتاج إلى الاستدلال له، ولكن قد يخفى الأمر على بعض الناس لإحسان الظن بمن يقول خلاف هذا، فيُحتاج إلى أن يُبيَّن له ويُستدَلّ على ذلك بالأدلة الظاهرة، مثل هذه الأدلة التي ذكرها من كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله ﷺ.

فكل مخلوق لا يخرج عن العبادة كما سبق، إما أن تكون العبادة

....

عبادةً عن اختيار، أو عبادةَ قهر وجريان القدر عليه، وهذا يشمل كل من في السماء والأرض، سواء كان عاقلًا أم غير عاقل.



فصلٌ

في التفاضل بالإيمان

إذا تبين ذلك، فمعلوم أن النَّاس يتفاضلون في هذا الباب تفاضلاً عَظِيماً، وهو تفاضلُهم في حَقِيقة الإيمان، وهم ينقسمون فيه إلى عامٍّ وخاصّ، ولهذا كانت إلهيةُ الرب لهم فيها عُمُومٌ وخصوص.

قوله: «**التفاضل بالإيمان**» هذا يحتاج إلى تفصيل، فكون الناس يتفاضلون في هذا تفاضلًا كبيرًا جدًّا، يعني في أصل الإيمان وليس في العمل فقط، فبعضهم إيمانه وتصديقه لا يقبل الشك، ولو شُكّك لَمَا شَكّ، وبعضهم يكون دون هذا، وبعضهم يحتاج إلى تثبيت، ولو شُكك لَشَكّ.

ثم إذا جاء العمل فإنه يثبّت الإيمان ويزيده، وكلما كثر العمل ازداد الإيمان، كما قال الصحابة: إننا إذا عملنا بطاعة الله ازددنا عملًا، أي ازددنا إيمانًا، وإذا غَفَلْنا وسهونا نَقَصَ إيماننا، وهكذا كلما عمل الإنسان بطاعة الله، فإن الإيمان يتمكن من قلبه.

أما قولهم: الربوبية تكون عامة وخاصة، فالعامة تشمل كل شيء، فمعنى الربوبية: الملك والتصرف، فالله يملك كل شيء ويتصرف فيه، ولا أحد يملك مع الله شيء، فهذه عامة في كل شيء، وأما الربوبية الخاصة، فهي أن يخص الله جل وعلا عبده بربوبية خاصة بحيث إنه يجعله مطيعًا، متبعًا للحق، محبًّا له، مريدًا له، فهذه ربوبية خاصة، ومِنّةٌ من الله جل وعلا على عبده، وهذه أيضًا تتفاوت، فبعض الناس أكمل ربوبية من بعض، وأكمل عبادة من بعض، وكل ذلك بيد الله جل وعلا.

ولهذا كان الشّرك في هذه الأمة أخفى من دَبِيب النَّمْل، وفي الصَّحِيح عن النَّبي ﷺ أنه قال: **«تَعِسَ عبدُ الدرهم، تَعِسَ عبدُ الدينار، تَعِسَ عبد القطيفة، تَعِسَ عبدُ الخَميصة، تَعِسَ وانتَكَس، وإذا شِيكَ فلا انتَقَش، إنْ أُعطِيَ رَضِي، وإنْ مُنع سَخِط»**[1].

قوله: «**تعس**» فعل ماضٍ، يجوز أن يكون خبرًا من الرسول ﷺ، يخبر أن من كانت هذه صفته فمآله التعاسة والسقوط والخسارة، ويكون معنى «**تعس**» أي سقط في مسيره وفي مشيه، ويكون معنى «**انتكس**» أي سقط وانتكس على رأسه، وهذا كله عبارة عن أنّ أمره لا يتم، بل سوف يأتيه عكس ما أراد، لأنه صار عبدًا لمخلوق، أو عبدًا لشهوته، أو عبدًا لدرهمه وديناره، أو عبدًا لملبوسه وموطوئِه، أو غير ذلك.

ويكون قوله: «**تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**»، أي إذا وقع في شدة فلا خرج منها، و«**شِيك**» أي دخلت الشوكة في قدمه، و«**لا انتقش**» أي ما وَجَد من ينقش الشوكة ويخرجها، وهذا عبارة عن أنه إذا وقع في أمر شديد فلا يتخلص منه، فهذا من عقابه، حيث أعرض عن الله وصار يعبد غيره.

ويجوز أن يكون المقصود بقوله: «**تعس**» الدعاء، أي الدعاء عليه، ومن دعا عليه الرسول ﷺ فهو يستحق أن يُفعل به ذلك، ودعوته مستجابة.

والدينار قطعة ذهب مضروبة، والدرهم قطعة فضة كذلك، وهذا كان قديمًا، والآن تغيرت الأحوال.

أما «**القطيفة**» فهي التي تفرش وتوطأ ويجلس عليها.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥).

. . . .

وأما «**الخميصة**» فهي الملبوس، أي الثوب الذي يُلبس، فمعنى كل ذلك أنه يعمل للدنيا، ولهذا قال: «**إنْ أُعطِيَ رَضِيَ**» يعني إن حَصَلَت له الدنيا رضي واستمر في العمل، وإن لم تحصُلْ له سخط وتركه، فمن كان عمله للدنيا، فجزاؤه ما ذكره.

ولهذا جاء في تمام الحديث: «**طوبى لعبد آخذٍ بعِنان فرسه في سبيل الله، أشعثَ رأسُه، مغبَرّةٍ قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إنِ استأذن لم يؤذن له، وإن شفَع لم يشفَّع**»[1]، وهذا من المدح، لأنه قال: «**طوبى لعبد**»، وطوبى كلمة ثناء ومدح، وقد قيل: إن طوبى شجرة في الجنة، يعني أنه استحقها.

وقوله: «**آخذ بعِنان فرسه في سبيل الله**»، يعني أنه مشغول بهذا الأمر مجتهد، ولهذا قال: «**أشعث رأسه مغبرة قدماه**»، أي لا وقت ولا فراغ لديه حتى يغسل رأسه ويسرحه، بل ينتهز الفرصة ويخاف أنه يفوته الأمر، فهو مجتهد غاية الاجتهاد.

وقوله: «**إن كان في الحراسة كان في الحراسة**»، الحراسة هي أشد المواقف، ذلك أن الجيش إذا آواه الليل واستراح يحتاج إلى من يحرس، والحراسة تحتاج إلى تنبُّه، وتحتاج إلى قوة، وقوله: «**كان في الحراسة**»، أي قام فيها المقام الذي ينبغي أن يُقام فيه، فلا يُؤتَى الجيش مِن قِبَلِه، والساقة كذلك، فالساقة هي مؤخرة الجيش، والعدو قد يأتي من الخلف حتى يأخذ الضعفاء، فيحتاج إلى حراسة آخر الجيش، فيقوم في هذا المقام القيام اللازم، حتى لا يؤتى الجيش من قِبَله.

وقوله: «**إذا استأذن لم يؤذن له**»، أي أنه لا يعمل لأجل الناس كي

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

فسَمّاهُ النَّبي ﷺ عبدَ الدِّرْهَم، وعبدَ الدِّينَار، وعبدَ القطيفة، وعبدَ الخميصة.

وذَكَر ما فيه دُعاءً وخبراً، وهو قوله: تَعِسَ وانتَكَس، وإذا شِيكَ فلا انتَقَش، والنَّقْشُ: إخراجُ الشَّوْكَة من الرِّجْل، والمِنْقاش: ما يُخرَج به الشَّوْكَة.

وهذه حالُ مَن إذا أصابَهُ شَرّ لم يخرج منه ولم يفلح، لكونه تعس وانتكس، فلا نالَ المطلوبَ، ولا خلص من المكروه، وهذه حال مَن عَبَدَ المالَ، وقد وَصَف ذلك بأنّه إذا أُعطي رَضِي، وإنْ مُنع سخط، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [التوبة: ٥٨]، فرِضاهُم لغير الله، وسخطُهم لغير الله.

وهكذا حالُ مَن كان مُتَعلِّقاً برئاسة أو بِصُورةٍ ونحوِ ذلك من أهواء نفسه، إنْ حصَل له رَضِي، وإنْ لم يحصُل له سخِط.

يروا مقامه، ولذلك لا يكون معروفًا لدى الأمراء والكبراء، فإذا استأذن عليهم لا يأذنون له، لأنه ليس معروفًا، وليس له عندهم قيمة، لأن عمله لله، لا يعمل لأنظار الناس، وإذا شفع لا يشفع لأجل ذلك.

قوله: «**فسَمّاهُ النَّبي ﷺ عبدَ الدِّرْهَم..**» أي من يعمل للشيء يكون عبدًا له.

قوله: «**وهكذا حالُ مَن كان مُتَعلِّقًا برئاسة أو بِصُورةٍ**» الصورة إما صورة امرأة، أو صبي، أو ما أشبه ذلك، والمراد عشق شيئًا، ومن المعلوم أن العشق مرض، ويصير المبتلى بهذا المرض يُؤْثِرُ هذا الشيء على دِينه وعلى كل شيء، فمن تعلق بشيء تعلق هواه به، والغالب أن كلمة تعلق، تأتي ويقصد بها عمل القلب، لا عمل الجوارح، أي تعلق قلبه بهذا الشيء، فمن تعلق قلبه بغير الله صار عابدًا لذلك الذي تعلق به.

فهذا عبدُ ما يهواه من ذلك، وهو رقيقٌ له، إذِ الرّقّ والعبودية في الحقيقة هو رِقُّ القلب وعبوديّتُه، فما اسْتَرَقَّ القلبَ واستعبَدَه فهو عبدُه.

ولهذا يُقال:

العبدُ حُرٌّ ما قَنِعْ والحُرُّ عبدٌ ما طَمِعْ

وقال الشَّاعر:

أطعْتُ مطامعي فاستعبَدَتْني ولو أنّي قَنِعْتُ لَكُنْتُ حُرَّا

ويُقال: الطمع غُلٌّ في العُنُق، قَيْدٌ في الرِّجْل، فإذا زالَ الغُلُّ من العُنُق زالَ القَيْد من الرِّجل.

المشكلة أن الإنسان قد يتعلق قلبه بشيء، ثم لا يستطيع أن يتخلص منه، بل يكون هلاكه على ذلك، ذكر عبد الحق الإشبيلي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه العاقبة[1]، أن رجلًا كان واقفًا في الشارع على باب داره، وكان بابها يشبه باب حمام، فجاءت امرأة جميلة تبحث عن حمّام يقال له: حمام مِنجاب، قالت: أين الطريق إلى حمام منجاب؟ فأشار إلى باب داره، فدخلت فدخل خلفها، ولما رأت أنها وقعت في أُحْبُولته أظهرت الموافقة، وقالت: ينبغي لنا أن تأتي بشيء، قال: الآن آتيك بشيء، فذهب وترك الباب، فخرجت وخلصت نفسها.

فلما جاء ولم يجدها هام بها، وصار يبحث عنها، ويردد قوله:

يا رُبَّ قائلةٍ يومًا إذا بلغت أين الطريقُ إلى حمّام مِنجاب

ثم مرض وجاءه الموت، فصاروا يقولون له: قل لا إله إلا الله، فصار يردد هذا البيت حتى مات! نسأل الله العافية، فصار قلبه معبَّدًا

(١) العاقبة في ذكر الموت ص١٧٩.

ويُروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «الطمع فقر، واليأس غِنًى، وإن أحدَكم إذا يئس من شيء استغنى عنه»[١]. وهذا أمرٌ يجده الإنسان من نفسه، فإن الأمر الّذي ييأس منه لا يطْلُبه، ولا يطمع فيه، ولا يبقى قلبُه فقيراً إليه ولا إلى من يفعله. وأمّا إذا طمع في أمرٍ من الأمور ورَجاه، فإن قلبه يتَعَلّق به، فيصير فقيراً إلى حُصوله، وإلى من يظنّ أنه سببٌ في حُصُوله، وهذا في المال والجاه والصُّوَر وغير ذلك، قال الخليل ﷺ: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فالعبد لا بد له من رزق، وهو مُحْتَاج إلى ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبداً لله فقيراً إليه، وإذا طلبه من مَخْلُوق صار عبداً لذلك المخلوق فقيراً إليه.

ولهذا كانت مسألة المخلوق مُحرّمة في الأصل، وإنّما أبيحت للضَّرورة، وفي النهي عنها أحاديثُ كثيرة، في الصِّحاح والسُّنَن والمسانيد:

كقوله ﷺ: «**لا تَزال المسألة بأحدكم حتّى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزْعةُ لحم**»[٢].

وقال: «**من سأل النّاس وله ما يُغْنِيه جاءت مسألته يوم القيامة**

لهذه المرأة، ثم لم يتحصل على شيء، وإنما تحصل على الخسارة، والله أعلم.

---

(١) أخرجه وكيع في الزهد ص٤٢٦، وابن المبارك في الزهد ص٢٢٣ و٣٥٤، وأحمد في الزهد ص١١٧، والدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٣٧٩، وأبو نعيم في حلية الأولياء ١/ ٥٠.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٧٤) ومسلم (١٠٤٠) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

خُدوشاً ـ أو خُموشاً أو كُدوشاً ـ في وجهه»[١].

وقولِه: **«لا تحل المسألة إلَّا لِذِي غُرمٍ مُفظع، أو دم مُوجع، أو فقر مُدْقع»**[٢]، وَهَذَا الْمَعْنى فِي الصّحيح.

وفيه أيضاً: **«لَأَن يأخُذَ أحدُكم حبلَه فيَذْهبَ فيحتطبَ خيرٌ له من أن يسألَ النّاس أَعْطَوْهُ أو منعُوه»**[٣].

وقال: **«ما أتاك من هذا المال وأنت غيرُ سائلٍ ولا مستشرفٍ فخُذْه، ومَا لَا فلا تتبعه نفسك»**[٤]، فكَرِهَ أخذَه مع سُؤال اللِّسان واستشراف القلب.

وقال في الحديث الصّحيح: **«من يَسْتَغْنِ يُغنِه الله، ومن يَستعِفَّ يُعِفَّه الله، ومن يتصبَّرْ يُصبِّرْه الله، وما أُعطِيَ أحدٌ عَطاءً خيراً وأوسعَ من الصَّبْر»**[٥].

وأوصى خَواصَّ أصحابه أَلّا يسألوا النَّاس شيئاً، وفي المسند: أن أبا بكر كان يسقط السَّوْطُ من يَده، فلا يقول لأحد: ناولني إِيّاه، ويقول: إن خليلي أمرني أَلّا أسألَ النَّاس شيئاً[٦].

. . . .

---

(١) أخرجه أحمد (٣٦٧٥) وأبو داود (١٦٢٦) والترمذي وحسنه (٦٥٠) والنسائي (٢٥٩٢)، وابن ماجه (١٨٤٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٢١٣٤) وأبو داود (١٦٤١) وابن ماجه (٢١٩٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٧٠، ١٤٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (١٤٧٣) ومسلم (١٠٤٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٧٠) ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٦) أخرجه أحمد (٦٥) من حديث عبد الله بن أبي مليكة عن أبي بكر رضي الله عنه، وهو منقطع.

وفي صحيح مسلم وغيره عن عَوْف بن مالك أن النّبي ﷺ بايعه في طائفةٍ، وأسرَّ إليهم كلمةً خفية: «**أَنْ لَا تسْألوا النَّاس شيئاً**»، فكان بعض أولئكَ النَّفر يسْقط السَّوْط من يَد أحدهم ولا يقول لأحد: ناولني إِيَّاه[١].

الحقيقة أن الإنسان عبارة عن القلب، والقلب هو ملك الأعضاء، كما ثبت في الصحيحين عن نبي الله ﷺ من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما: «**ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صَلَحت صَلَح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٢]، وهذا لأن النيات والمقاصد التي تصدر من القلب هي أساس العمل، وهي التي توجه الإنسان.

ولهذا أخبر الله جل وعلا أنه لا ينجو يوم القيامة من عذاب الله إلا من أتى الله بقلب سليم، والقلب السليم هو الذي يسلم من الشرك بالله جل وعلا والتعلقِ بغيره، فمن أتى بقلب متعلق بالله وحده فهذا الذي يسلم من عذاب الله جل وعلا، لهذا ذكر أن القلب هو ملك الأعضاء، وهو الذي يتصرف في ميول الإنسان وأعماله، ولهذا الأساس صار أصل العمل النيات، كما قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنية**»[٣]، فإذا كان القلب خالصًا لله جل وعلا تبعه العمل.

ولهذا الأمر فمن رحمة الله جل وعلا ما ذُكر في هذه الأحاديث التي أوردها شيخ الإسلام رحمه الله، أن الله جل وعلا حرم مسألة المخلوق، فهذا صيانة للعبد المؤمن، يصونه الله جل وعلا أن يَذِلَّ لمخلوق، أو يأخذ شيئًا من عبودية قلبه، لأنه من المعروف أن المنة والعطاء تستعبد

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٣) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

. . . .

القلب، ولو من جانب، فإذا كثرت استعبدته، فلهذا حُرِّمت مسألة المخلوق إلا في الأمر الضروري كما أشارت إليه هذه الأحاديث، «**إلَّا لِذِي غُرمٍ مُفظع، أو دم مُوجع، أو فقر مُدْقع**»[١]، يعني الشيء الضروري.

وكما في حديث قَبِيصة بن مُخارق الهلالي قال: تحمّلتُ حَمالةً، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «**أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها**». ثم قال: «**يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمّل حَمالة، فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله، فحلت له المسألة حتى يصيب قِوامًا من عيش ـ أو قال سِدادًا من عيش ـ ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحِجا من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قِوامًا من عيش ـ أو قال سِدادًا من عيش ـ فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحت يأكلها صاحبها سحتًا**»[٢]. فالمسألة في مثل هذه الأمور موقتة أيضًا، يقول: تَحِلّ له المسألة حتى يجد سِدادًا من العيش أو قِوامًا من العيش، ثم تعود حرامًا.

لهذا ذكر العلماء أن الذي يتعود المسألة، أنها قد تؤول به إلى عبادة المخلوق، ثم يختم له بالسيّئ، وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الجواب الكافي[٣] قضايا كثيرة وينقلها عن غيره، منهم من إذا قيل له: قل لا إله إلا الله، يمد يده يقول: لله فُلَيس، لله فُلَيس! لأنه تعود أن يسأل الناس، فيموت على ذلك، نسأل الله العافية.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢١٣٤) وأبو داود (١٦٤١) وابن ماجه (٢١٩٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٤٤) وأبو داود (١٦٤٠).

(٣) الجواب الكافي ص٦٢.

وقد دلّت النُّصُوص على الأمر بمسألة الخالق، والنَّهْي عن مَسْألة المخلوق في غير مَوضِع، كقولِه تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٧-٨]، وقول النَّبِي ﷺ لابْنِ عَبَّاس: «**إذا سَأَلتَ فاسأل الله، وإذا استعنت فاسْتَعِنْ بالله**»[١]، ومنه قول الخليل: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ [العَنكبوت: ١٧]، ولم يقل:

فالمقصود أن القلب هو الإنسان في الحقيقة، فيجب أن يكون تعلق القلب بربه جل وعلا وحده، وإذا جاء التعلق فالمقصود فعل القلب.

ونقول: إن هذه الأمور التي ذكرها الرسول ﷺ هي تفسير لكلام الله، وهي من رحمة الله، فتأمل قول الله جل وعلا: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾، كيف قُدِّم الظرفُ ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ على المفعول به ﴿ٱلرِّزْقَ﴾، فهو يدل على الحصر والقصر، أنك لا تطلب الرزق من عند غيره، وإن كان ربنا جل وعلا جعل أسبابًا تُعمل، ولكن الأسباب لا يعتمد عليها.

ولا ينافي هذا قولُ الرسول ﷺ: «**من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تُرَوا أنكم قد كافأتموه**»[٢]، بل يتفق معه، لماذا؟ لأن المكافأة تزيل التعلق، ولهذا كان من سننه ﷺ أنه يقبل الهدية، ولكن يكافئ عليها أكثر منها، وأما الصدقة فلا يقبلها، كما هو معروف من خصائصه صلوات الله وسلامه عليه، وكل هذا ليسلم قلب العبد لله جل وعلا، ويكون قلبًا سليمًا ما يتعلق بالمخلوق.

قوله: «**وقد دلّت النُّصُوص على الأمر بمسألة الخالق...**» وهذا مثل قوله جل وعلا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفاتحة: ٥]، فقُدّم

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي وصححه (٢٥١٦) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٥٣٦٥)، وأبو داود (١٦٧٢) والنسائي (٢٥٦٧) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

فابتغوا الرزق عندَ الله، لِأَنّ تقديمَ الظّرْف يُشْعر بالاختصاص والحصر، كأنّهُ قال: لا تَبْتَغُوا الرزق إلّا عِنْد الله، وقد قال تعالى: ﴿وَسْئَلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النّساء: ٣٢].

والإنسان لا بد له من حُصُول ما يحتاج إليه من الرزق ونَحْوه، ودفعِ ما يضرّه.

المعمولُ على العامل، ليدل على أنه لا تجوز العبادة لغير الله، ولا الاستعانة بغيره في مثل هذا، فالاستعانة على العبادة يجب أن تكون بالله جل وعلا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التّين: ٧ ـ ٨]، المعنى إذا لم تكن مشغولًا بمرض أو بشيء يمنعك من العمل، ﴿فَٱنصَبْ﴾ [الشّرح: ٧] يعني اعمل، وليكن العمل لله، وليكن في العمل الرغبة في الله جل وعلا، فهذا يتضمن الرجاء والخوف من الله جل وعلا.

أما كونه جل وعلا يأمرنا بسؤاله، فهو لأنه كريم، ولأننا عبيده، ومن مقتضى ربوبيته أن يَرُبَّنا بما نحتاج إليه وأن يُعطيَنا، ولهذا يرزق الكافر والفاجر الذي يتقوى بالرزق على المعاصي، كما قال الرسول ﷺ: «**لا أحدَ أصبرُ على أذًى يسمعه من الله، إنه يُشرَكُ به ويُجعل له الولدُ، ثم هو يعافِيهم ويرزقُهم!**»[١]، وذلك لحلمه ولأنه الرب، ومقتضى الربوبية أنه يرب عباده بما يصلحهم ويقوم على حياتهم، وإن كانوا عصاة.

قوله: «**والإنسان لا بد له من حُصُول ما يحتاج إليه**»، ولكن يجب أن يطلبه من الله، فيكون في طلبه للرزق عابدًا لله جل وعلا، ولا يجوز أن يكون تعلقه على الأسباب، ولا أن ينظر إليها على أنها هي مصدر رزقه،

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

وكِلا الأمريْنِ شُرِع له أن يكون دعاؤه لله، فلا يسْأل رزقه إلَّا من الله، ولا يشتكي إلَّا إليه، كما قال يعقوبُ عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦].

والله تعالى ذَكَر في القرآن الهجرَ الجميل، والصفحَ الجميل، والصَّبْر الجميل، وقد قيل: إن الهجر الجميل هو هجرٌ بلا أَذًى،

سواءٌ كانت تجارة أم صناعة أم وظيفة أم شخصًا يبذل له الشيء، فيرى هذا الذي يأتيه الرزق منه! بل هذا سبب، والسبب جعله الله جل وعلا سببًا، فيجب أن يعلم أن الذي رزقه هو الله جل وعلا، وإذا شاء منع ذلك تعالى وتقدس، فيجب أن يكون طلبه من الله في كل ما يحتاج إليه، سواء من أمور الدنيا أم من أمور الآخرة.

كما أنه أيضًا لا يجوز أن تكون أمور الدنيا مستولية على قلبه، من الحب والعمل، كما سبق أن الرسول ﷺ قال: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم**»[1]، وبيّن أن هذه العبادة هي العمل، أنه إذا أُعطي رضي، وإذا مُنع سخط، يعني أنه يكون يعمل للدينار والدرهم أو القطيفة أو الخميصة.

والواجب أن يكون هذا العمل الذي يعمله أي حصوله على الدنيا للتقوّي بها على عبادة الله، فالإنسان عليه واجبات أوجبها الله جل وعلا عليه، من نفقة على نفسه أو على من تلزمه نفقته، أو حقوقٍ تلزمه على الغير، فهو يعمل، ويكون طلبه وعمله وفق ما أمره الله جل وعلا، فيكون عابدًا لله في كل تصرفاته، بخلاف إذا ما كان المال غاية، والأمور الأخرى وسائلُ إليه، فإن هذا يكون عابدًا للمال.

---

(١) صحيح البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥).

والصفح الجميل صفحٌ بلا معاتبة، والصَّبْر الجميل صبرٌ بِغَيْر شكوَى إلى المخلوق.

ولهذا قُرِئَ على أحمدَ بنِ حَنْبَلٍ في مرضه: أن طاوساً كان يكره أَنِينَ المريض ويقول: إِنَّه شكوَى، فما أَنَّ أَحْمدُ حَتَّى ماتَ[1].

قوله: «**والصَّبْر الجميل صبرٌ بِغَيْر شكوَى إلى المخلوق**» هذه صفة أولياء الله مثل الأنبياء وأتباعهم، أما آحاد الناس فهم لا يصلون إلى مثل هذا، إلا من شاء الله جل وعلا، ولكن نقول: هذا الكمال، وإذا قصّر عنه العبد، فينبغي له أن يجتهد ما أمكنه ذلك، أن يجتهد في أن يكون مقتديًا بأولياء الله جل وعلا، وأن يكون عبدًا خالصًا لله جل وعلا.

ولا بد من المخالفات، ولا بد من التقصير، والذي يتصور أن هناك من لا يعتريه قصور ولا يقع في مخالفة، فتصوره غير واقع، لأن ابن آدم خلق ناقصًا، خلق فقيرًا، فأصله أنه هلوع، ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ١٩ ـ ٢١]، وكذلك أصله أنه ظلوم جهول، وهو إنما يتهذب بالأخلاق التي تأتي بها الرسل.

فإذا كمل يكون من أتباع الرسل، وإذا نقص فالله جل وعلا أَكثَرَ من ذكر أسمائه العفو والغفور والتواب والرحيم وغير ذلك، ولا يمكن أن يكون توابًا، وليس هناك من يتوب! ولا يمكن أن يكون عَفُوًا، وليس هناك من لا يعفى عنه، هذا ممتنع مستحيل، فلا بد من ظهور آثار أسماء الله على عباده جل وعلا.

قول طاووس: «**إنه شكوى**» هذا قول بعض العلماء، والأنين في

---

(١) **أما الرواية عن طاوس**، فأخرجها ابن أبي شيبة في المصنف (٣٦٥٦١) عن ليث بن أبي سُليم، قال: قلت لطلحة بن مصرِّف: إن طاوسًا كان يكره الأنين، قال: فما سُمع لطلحة أنين حتى مات. =

وأما الشكوى إلى الخالق فلا تُنَافِي الصَّبْرَ الجميل، فإن يَعْقُوب قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

الواقع ليس شكوى، وإنما المريض كأنه يجد راحة إذا أنّ، وإلا فقلبه لا يشكو الله جل وعلا، وقد يكون أيضًا ذاكرًا لله جل وعلا وشاكرًا له في ذلك، والإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ من ورعه أنه لما سمع هذا صار لا يئن حتى مات، فقول طاوس: إن الأنين شكوى، يعني أنه يشكو الله بأنينه، وهذا غير صحيح، قد يكون بعض الناس يقصدون هذا، ولكن مثل الإمام أحمد وغيره الذين يعرفون أن المنة لله جل وعلا في كل شيء، وأن العبد ملك لله يتصرف فيه كيف يشاء، ما يكون ذلك شكوى، وإنما يرتاح حين يئن، وهذا معروف عند الناس.

قوله: «**وأما الشكوى إلى الخالق فلا تُنَافِي الصَّبْرَ الجميل**» الشكوى إلى الله دعاء وعبادة له جل وعلا، كقولك: إلى الله المشتكى، وكان الرسول ﷺ يفزع إلى ربه جل وعلا في كل حالاته، كان إذا غزا قال: «**اللهم أنت عضدي، وأنت نصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل**»(١)، وكان يتبرأ من الحول والطول، ويعلمنا أن نقول: «**اللهم لا تكلني إلى نفسي**

= **وأما الرواية عن أحمد**، فقال ابنه صالح في الجزء الذي ألفه في سيرة والده ص١٢٧: وقال لي أبي: جئني بالكتاب الذي فيه حديث ابن إدريس عن ليث عن طاوس أنه كان يكره الأنين، فقرأته عليه، فلم يئن إلا في الليلة التي توفي فيها.
وقال الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٢١٩ (٢٥٣): حدثنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل قال: لما مرض أبي واشتد مرضه ما أنَّ، فقيل له في ذلك، فقال: بلغني عن طاوس أنه قال: أنين المريض شكوى الله ﷻ، قال عبد الله: فما أنَّ حتى مات.

(١) أخرجه أحمد (١٢٩٠٩)، وأبو داود (٢٦٣٢)، والترمذي (٣٥٨٤)، والنسائي في الكبرى (٨٦٣٠، ١٠٤٤٤)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. =

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقْرَأ في الفجْر بسورة يُونُس ويوسف والنحل، فمرّ بهذه الآية في قراءته فبكى حَتَّى سُمع نَشِيجه من آخر الصُّفُوف[١].

ومِن دُعَاء موسى: اللَّهُمَّ لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبِك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قُوَّة إلَّا بك.

وفي الدُّعَاء الَّذِي دَعَا بِهِ النَّبِي ﷺ لما فعل بِه أهل الطَّائِف ما فعلوا: «**اللَّهُمَّ إليك أَشْكُو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على النَّاس، يا أرحم الرَّاحِمِين، أنت رب المستَضْعَفِين، وأنت رَبِّي، اللَّهُمَّ إلى من تكِلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟** ....

طرفة عين»[٢]، وأن نقول: «**وأشهد أنك إنك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعةٍ وعورةٍ وذنبٍ وخطيئةٍ**»[٣]، فهذه شكوى ظاهرة، وهي دعاء وعبادة لله جل وعلا.

وقوله: «**وكان عمر بن الخطاب يقْرَأ في الفجْر..**» مَرَّ بهذه الآية في آخر خلافته، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يُوسُف: ٨٦].

قوله: «**إلى بعيد يتجهمني**»، استفهام، والهمزة مقدرة، أي أإلى بعيد

= وأخرجه بنحوه أحمد (١٨٩٣٣)، والنسائي (١٠٤٥٠)، من حديث صهيب ﷺ.

(١) أخرجه البخاري معلقًا بصيغة الجزم، كتاب الصلاة، باب إذا بكى الإمام في الصلاة، وعبد الرزاق في المصنف (٢٧١٦) وابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٨٥، ٣٦٦٧٦)، وسعيد بن منصور في سننه ٥/ ٤٠٥، وعندهم أنه كان يقرأ بسورة يوسف، وليس فيه ذكر سورة يونس والنحل.

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٤٣٠)، وأبو داود (٥٠٩٠)، والنسائي في الكبرى (١٠٤٨٧)، عن أبي بكرة الثقفي ﷺ قال: قال النبي ﷺ: «**دعوات المكروب: اللهم رحمتَك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت**».

(٣) أخرجه أحمد (٢١٦٦٦)، من حديث زيد بن ثابت ﷺ.

أم إِلَى عَدو ملكته أَمْرِي؟ إن لم يكن بك غضب عَليّ فلا أُبَالِي، غير أنّ عافيتَك أوسعُ لي، أعوذُ بنور وجهك الَّذِي أشرقت بِهِ الظلمات، وصَلَح عليه أَمر الدُّنْيَا والآخِرَة أنْ يَنزل بِي سخطُك، أَو يَحِلّ عَليّ غضبُك، لك العُتْبَى حَتَّى ترْضى، ولا حول ولا قُوَّة إِلَّا بالله»، وفي بعض الرِّوايات: «**ولا حول ولا قُوَّة إِلَّا بك**»[1].

وكلّما قَوِيَ طمعُ العَبْد في فضل الله ورَحمته ورجائه، لقَضَاء حَاجته، ودفع ضَرُورَته، قويت عبوديته له وحريته مِمَّا سواهُ، فكما أنّ طمعه في المخلوق يُوجب عبوديته له، فيأسه منه يُوجب غنَى قلبه عنه، كما قيل: استغنِ عمن شئتَ تكن نَظِيرَه، وأَفْضِلْ على من شِئْت

يتجهمني؟ لأنه جاء بعدها، «**أم إلى عدو ملكته أمري**»، ومعنى يتجهمني، أي يعبس في وجهي.

قوله: «**أعوذُ بنور وجهك**» هذا فيه دليل على إثبات وجه الله جل وعلا، وأن له نورًا، قال: «**أعوذ بنور وجهك**»، فنور وجه الله جل وعلا صفته، فالاستعاذة تكون بالصفات وبالأسماء، أسماء الله جل وعلا، ولا يقال: إن هذا يدل على جواز دعوة الصفة، كقول بعض الناس: يا رحمة الله، يا عزة الله، فهذا لا يجوز، لأن الصفة ليست إلهًا، بل ذكر بعض العلماء أن هذا من الكفر، لأن دعاء الله جل وعلا أمر حتم واجب من العبادة، والصفة ليست إلهًا فيدعى، وإنما يدعى بها رب العالمين، تقول: أسألك برحمتك، كما قال هنا: أعوذ بنور وجهك، والاستعاذة والسؤال كلاهما عبادة.

قوله: «**استغنِ عمن شئتَ تكن نَظِيرَه..**» هذا كلام قديم معروف عند

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٣/٧٣، وفي الدعاء (١٠٣٦) ومن طريقه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي (١٨٣٩)، من حديث عبد الله بن جعفر رضي الله عنه.

تكن أميرَه، واحْتَجْ إلى من شِئْت تكن أسيرَه.

فكذلك طمع العَبْد في ربه ورجاؤه لَهُ يُوجب عبوديته لَهُ، وإعراض قلبه عن الطّلب من الله والرجاء لَهُ يُوجب انصراف قلبه عن العُبُودِيَّة لله، لا سيما من كان يَرْجُو المخلوق، ولا يرجو الخالق، بحيثُ يكون قلبه مُعْتَمداً إمَّا على رئاسته وجُنُوده وأَتْبَاعه ومماليكه، وإمَّا على أهله وأصدقائه، وإمَّا على أَمْوَاله وذخائره، وإمَّا على ساداته وكبرائه، كمالكه ومَلِكه وشَيْخه ومخدومه، وغَيرهم مِمَّن هو قد ماتَ أو يَموت، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان: ٥٨].

وكلُّ من علّق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يَهْدُوه، خضع قلبه لَهُم، وصارَ فيه من العُبُودِيَّة لَهُم بِقدر ذلك، وإِن كان في الظَّاهِر أَمِيراً لَهُم مُدبراً لأمورهم متصرفاً بهم، فالعاقل ينظر إلى الحقائق، لا إلى الظَّوَاهِر.

فالرجل إذا تعلق قلبه بامْرَأَة ولو كانت مُبَاحَة لَهُ، يبْقى قلبه أَسِيراً

العرب، وهو من الحكم، «**واحتج إلى من شئت**» أو قال: افتقِرْ إلى من شئت تكن أسيره، هذا مأخوذ من تجربة الواقع، وذلك أن الأسر هو أسر القلب، فمن كان قلبه أسيرًا فهو الأسير الحقيقي، ولهذا قد يكون القلب أسيرًا لشهوة أو لمن يراد منه الشهوة وما أشبه ذلك، فيصبح تاركًا لعبادة الله جل وعلا، ومُؤْثِرًا لهذا الذي يحبه ويعشقه على عبادة الله، فيكون فيه شقاؤه، ويكون هذا من أعظم البلاء نسأل الله العافية وأعظم العذاب العاجل ثم العذاب الآجل، فيجب على العبد أن يكون متحرّيًا ما يطلبه الله منه، وساعيًا فيه جهده، ومجتنبًا الأسباب التي قد تأسر قلبه.

قوله: «**فالرجل إذا تعلق قلبه بامْرَأَة ولو كانت مُبَاحَة لَهُ**» هذا مع أنها

لَهَا، تحكم فيه، وتتصرف بِمَا تُرِيدُ، وهو في الظَّاهِرِ سَيِّدُها، لِأَنَّهُ زَوجُها أو مالِكُها، ولكنه في الحقيقة هو أَسِيرُها ومملوكها، ولا سيما إذا علمتْ بفقره إليها وعشقِهِ لها، وأنه لا يعتاض عنها بغَيْرِها، فإنّها حِينَئِذٍ تتحكم فيه تحكُّمَ السَّيِّد القاهر الظَّالِم في عبده المقهور الَّذِي لا يَسْتَطِيع الخلَاص منه، بل أعظم، فإنّ أسر القلب أعظم من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن.

فإن مَن استُعبِدَ بدنُه واستُرِقَّ وأُسِر، لا يُبَالِي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً، بل يُمكنهُ الاحتيال في الخلَاص. وأما إذا كان القلب الَّذِي هو مَلِك الجِسْم رَقِيقاً مستعبَداً متيَّماً لغير الله، فهذا هو الذل والأسر المحض، والعبودية الذليلة لما استعبد القلب.

مباحة له، فكيف إذا كانت محرمة، فيكون الجرم أعظم، والشقاء أتم، نسأل الله العافية، وهذا يحصل كثيرًا لكثير من الناس، مع أنه قد يكون عنده ما يغنيه عن هذا وهو الغالب، وهذا لأن القلب إذا تعلق بغير الله فإن الله ـ في الغالب ـ يعرض عنه، ويكله إلى ما تعلق عليه، ثم يتمكن ذلك من قلبه فيتم الشقاء، فهذا جربه الناس، نسأل الله العافية.

قوله: «**فإن مَن استُعبِدَ بدنُه واستُرِقَّ وأُسِر، لا يُبَالِي إذا كان قلبه مستريحاً من ذلك مطمئناً**» إذا استُعبد المسلم بغير حق، استُعبد بباطل، ولم يكن له حيلة، فإذا كان قلبه سليمًا لله جل وعلا لا يضره ذلك، لأن هذا مؤقت وينتهي، إما ينتهي بأن يتخلص من هذا الظالم، أو ينتهي بالموت، فيرتاح من ذلك.

لكن الاستعبادَ استعبادُ القلب، سواء كان الاستعباد لشيء مباح مثل مال حلال يكتسبه من جهة غير محرمة، أو مخلوق أو صورة ونحوها، أم كان الاستعباد لشيء محرم، ويكون الجرم مضاعفًا، فهذا هو الهلاك

وعبودية القلب وأسره هي الَّتِي يَتَرَتَّب عليها الثَّوَاب والعِقَاب، فإن المسلم لَو أسره كافِر أو استرقَّه فاجر بِغَيْر حق، لم يضرّهُ ذلك إذا كان قائِماً بِمَا يقدر عليه من الواجِبَات.

ومَن استُعبد بِحَقّ إذا أدّى حقَّ الله وحقَّ مَوَالِيه فلهُ أَجْرَانِ، ولَو أكره على التَّكَلُّم بالكفْر فتكلم بِهِ وقَلبه مطمئن بالإيمَان، لم يضرّهُ ذلك.

وأما من استُعبد قلبه فصارَ عبداً لغير الله فهذا يضرّهُ ذلك، ولَو كان في الظَّاهِر مَلِك النَّاس. فالحرية حريَّة القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النَّفس، قال النَّبِي ﷺ: **«ليس الغنى عن كَثْرَة العَرَض، وإِنَّمَا الغنى غنى النَّفس»**[1].

وهذا لَعَمْرُ الله إذا كان قد استَعبَد قلبَه صُورَةٌ مُبَاحَة، فأما من استَعبَد قلبَه صُورَةٌ مُحرمَةٌ، امْرَأَةٌ أو صبيٌّ، فهذا هو العذاب الَّذِي لا يدانيه عَذَاب!

وهؤلاء عشاقُ الصُّوَر، من أعظم النَّاس عذَاباً، وأَقلّهمْ ثَواباً،

العاجل، الذي لا يرجى بعده خلاص، نسأل الله العافية.

قوله: **«ولَو أكره على التَّكَلُّم بالكفْر..»** هذا من فضل الله جل وعلا، كونه إذا أرغم على الكفر أنه يجوز له أن يتكلم بالكفر، موافقةً لمن يطلب منه ذلك ويُكرهه عليه، فداءً لنفسه وتخليصًا لها، ولكن بشرط أن يكون قلبه مطمئنًا بالإيمان.

قوله: **«فهذا هو العذاب الَّذِي لا يدانيه عَذَاب»** عذاب في الدنيا، ويترتب عليه عذاب الآخرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٤٦) ومسلم (١٠٥١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فإن العاشق لصورة إذا بَقِي قلبه مُتَعَلّقاً بهَا مستعبَداً لها، اجْتمع لَهُ من أنْوَاع الشَّرّ والفساد، ما لا يُحْصِيه إلّا رب العباد.

ولَو سَلِم من فعل الفاحشَة الكُبْرَى فدَوامُ تعلق القلب بها بِلَا فعل الفَاحِشَة أشد ضَرَراً عليه مِمَّن يفعل ذَنباً ثمَّ يَتُوب منه ويَزُول أَثَره من قلبه.

وهؤلاء يُشبَّهون بالسكارى والمجانين.

كما قيل:

سُكرانِ سُكرُ هوًى وسُكرُ مُدامةٍ ومَتى إفاقة من بِه سُكرانِ؟!

قوله: «**إذا بَقِي قلبه مُتَعَلّقًا بهَا مستعبَدًا لها..**» وهذا شيء قد عرفه الناس، فإن العاشق يتعلق قلبه بالمعشوق حتى يغلبه فيمرض ذلك ويموت، وهو عبادة، نسأل الله العافية، هو عبادة، لأنه ازداد حتى صار ما يملك لنفسه شيئًا، لهذا كانوا يسمّون مثل هذا: مجنونًا، هو ليس مجنونًا ولكنه جُنَّ بعبادة هذا المعشوق.

قوله: «**فدَوامُ تعلق القلب بها بِلَا فعل الفَاحِشَة أشد ضَرَرًا عليه**» أي أنه إذا وقع في الفاحشة ثم تخلص قلبه من ذلك وتاب، أسهل من كون قلبه يبقى أسيرًا لهذا المخلوق، لهذه الصورة امرأة أو صبي أو ما أشبه ذلك، حتى يموت على هذا، فإن هذا نوع عبادة لهذه الصورة، سواء كانت امرأة أم صبيًا أم غير ذلك.

قوله: «**وهؤلاء يُشبَّهون بالسكارى والمجانين**» لأن الحب يغلب على العقل، فيصبح العقل كأنه مغطًى، ولهذا قالوا: إنه شبه السكران أو المجنون، وقد يطلق عليه أنه مجنون، كما قيل: مجنون ليلى، لأنه أحبها وعشقها، فصار كأنه مجنون، وفي النهاية قتله العشق، وكم من واحد قتله العشق!

قوله: «**سكر هوًى**» يعني العشق، والمدامة الخمر، يعني: إذا اجتمع هذا وهذا فمتى يُفيق؟!

وقيل:

قالُوا جُننتَ بِمن تهوى، فقلت لَهُم ... اَلعِشْق أعظم مِمَّا بالمجانين
الْعِشْق لا يستفيق الدهرَ صاحبُه ... وإِنَّمَا يُصرَع المجنون في حِين

ومن أعظم أَسبَاب هذا البلَاء إِعْرَاض الْقلب عن الله، فإِن القلب إِذا ذاق طعم عبادة الله والإِخْلَاص لَهُ، لم يكن عِنْده شَيْءٌ قطّ أحلى من ذلك ولَا ألذَّ ولَا أمتعَ ولَا أطيبَ، والإنسان لَا يتْرك محبوباً إِلَّا بمحبوب آخرَ يكون أحبَّ إليه منه، أو خوفاً من مَكْرُوه، فالحب الفاسِد إِنَّمَا ينْصرف القلب عنه بالحب الصَّالح أو بالخوف من الضَّرَر.

قال تعالى في حق يُوسُف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: ٢٤].

قوله: «**ومن أعظم أَسبَاب هذا البلَاء**» من هنا نعرف أن العشق لا يحدث إلا من قلب غافل، أما من كان عارفًا لله جل وعلا محبًّا لله، فلا يقع في مثل هذا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ المخلَصين والمخلِصين هما قراءتان، فالمخلَصين يعني الذين خلّصهم الله جل وعلا من كل كرب وكل بلاء، أو خلّصهم بمعنى جعلهم خلاصة من عباده، اتخذهم خلاصة من عباده، ولا شك أن الأنبياء خلاصة الخلق، وأما المخلِصين فمعناه الذين أخلصوا لله جل وعلا في العبادة، فيكون دليلًا على أن الإخلاص منجاة، وأنه إذا وقع في مشكلة ينجو منها بإذن الله.

وحالة يوسف ﵇ حالة عجيبة لأنه كان في البيت، وكان هو المطلوب، ومع ذلك امتنع أشد الامتناع، وكل هذا بفضل الله، لأنه كما قال الله جل وعلا: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ﴾، والفحشاء هي الزنى

فالله يصرف عن عَبده ما يسوءُه من الميل إلى الصُّوَر والتعلق بهَا.

ولهذا يكون ـ قبل أَن يَذُوق حلاوة العُبُودِيَّة لله والإخلَاص لَهُ ـ بحَيْثُ تغلبه نفسه على اتِّبَاع هَواها، فإِذا ذاق طعم الإخلَاص وقَوي في قلبه، انقهر لَهُ هَوَاهُ بِلَا علاج.

وما يتصل به، والسوء أعم من هذا، فكل ذنب فهو سيئ.

فكانت عاقبته عليه السلام حميدة، ومع ذلك رمته امرأة العزيز بما هو طاهر منه، فلما جاء زوجها قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى﴾ [يوسف: ٢٥ ـ ٢٦]، فهل يصدَّق هو؟ هو مستضعف ومستعبد، ولكن قيض الله جل وعلا ما يصرف عنه، ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [يوسف: ٢٦]، فتبين الحال، ومع ذلك كله ما كان عند الزوج الغيرة التي يغار بها، ويحسم الموضوع، فقال لزوجته: استغفري لذنبك، وقال ليوسف: أعرض عن هذا، هذا الذي قاله فقط!.

قوله: «**فإذا ذاق طعم الإخلَاص وقَوي في قلبه، انقهر لَهُ هَوَاهُ بِلَا علاج**» المعنى أن عبادة الله جل وعلا فيها الدفع، فإذا تعلق العبد بربه مخلصًا، فإن الله يخلّصه، ولهذا لما ذكر الله جل وعلا قصة يونس قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، يعني أن النجاة ليست خاصة به، بل تشمل المؤمنين أيضًا، وهذا كثير فيما يذكره جل وعلا، إذا ذكر قضية من القضايا جعل هذا عامًّا، ليدل عباده على أن السبيل للنجاة من المشاكل والوقوع في المحرمات الإخلاص لله جل وعلا.

وكذلك في أحاديث الرسول ﷺ، كحديث ابن عباس رضي الله عنهما: «**تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**»[1]، فمن كان يتعرف إلى ربه بعبادته بأن يعبده ويخلص له، ولا يراه فيما يكره ويحرم، فإن الله يكون معه

---

(١) أخرجه أحمد (٢٨٠٣).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، فإن الصَّلَاة فِيهَا دفع مَكْرُوه، وهو الفَحْشَاء والمنكر، وفيهَا تَحْصِيل مَحْبُوب، وَهُوَ ذكر الله، وحُصُول هَذَا المحبوب أكبر من دفع ذَلِك الْمَكْرُوه، فإنّ ذكرَ الله عبادةٌ لله، وعبادةُ القلب لله مَقْصُودَة لذاتها، وأما اندفاع الشَّرّ عنه فَهُوَ مَقْصُود لغيره على سَبِيل التبع.

ويوفقه ويخلّصه من كل مشكلة يقع فيها.

وليس معنى ذلك أنه لا يناله أذًى، هذا لا يمكن في الدنيا، فلا بد في الدنيا من الأذى، ولا بد فيها من البلوى، ولا بد فيها من الأمراض، ولا بد فيها من الموت، ولكن ما يقع في شيء يهلكه ويأسره ويجعله عبدًا لغير ربه جل وعلا، أو يستولي عليه أحد من شياطين الجن أو شياطين الإنس، فإن الله جل وعلا يكون عونًا له في ذلك فيخلّصه، فإذا وقع في شدائد وفي كربات تكون زيادة في رفعة درجاته عند الله جل وعلا، لأنه عبد لله جل وعلا، ويعلم أن هذا بتدبير الله، ثم يصبر ويحتسب لله جل وعلا، ويعلم أن هذه الدنيا لا تصفو لأحد، ولا بد فيها من البلاء.

ولكن لا بد للإنسان أن يسعى إلى ما يتحصل به اللذة، وما يتنعّم به، ولا بد أن يسعى إلى دفع ما فيه الألم النفسي، هذا أمر ضروري، ثم هذا يدلنا على أن هناك أسبابًا، أسبابًا لجلب المنافع والملذات، وأسبابًا لدفع المؤذيات والمؤلمات.

وهذه الأسباب من أين تأتي؟ هي كلها ـ الدافع للمؤذي المؤلم، والجالب للنافع المنعّم ـ كلها بيد الله، فلا بد من اللجوء إلى الله جل وعلا، لا بد أن تطلب من الله جل وعلا، فمن عرف هذا واستعمله فإنه إن كان في خير ازداد خيرًا، وإن كان في ألم، فإنه يصبر ويكون أيضًا

والقلب خلق يحب الحق ويريده، فلَمَّا عرضت لَهُ إِرَادَة الشَّرّ طلب دفع ذَلِك، فإِنَّهَا تُفسد القلب كما يَفْسُد الزَّرْع بِمَا ينْبت فيه من الدغل.

ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ [الشمس: ٩-١٠]، وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٥].

وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ﴾ [النور: ٣٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]، فجعل سُبْحَانَهُ غضَّ البَصَر وحفظَ الفرج هُوَ أقوى

في زيادة رفعة عند الله جل وعلا، والتوفيق بيد الله جل وعلا، هو الذي يتفضل على عبده بما يشاء.

قوله تعالى: ﴿تَزَكَّىٰ﴾ التزكّي في الواقع من الله، ولكن جعل الله له أسبابًا بيد العبد، ولهذا قال: تزكى، وزكاها، يعني قد أفلح من زكى نفسه، وتزكية النفس لا تكون إلا بالعمل الصالح، إلا بعبادة الله جل وعلا، والعمل بطاعته، ولهذا يذكر الله جل وعلا أن من جملة دعوة الرسل لأقوامهم: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦]، فالإفساد في الأرض بالمعاصي، والإصلاح بالأنبياء، الأنبياء هم الذين جاؤوا بإصلاح الأرض، فإذا جاء الفساد فهو بالمعاصي، وأعظم ما يكون الإفساد: بعد الصلاح، إذا كانت صالحة ثم أُفسدت.

وقوله: ﴿يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ هذا السبب وهو غض البصر وحفظ الفرج أصل، إذا تمسك به العبد نجا من أمور كثيرة، وعوضه الله جل وعلا نورًا في بصره وبصيرته.

تَزْكية للنَّفس، وبَيّن أن ترك الفَوَاحِش من زَكَاة النُّفُوس، وزَكَاة النُّفُوس تَتَضَمَّن زَوَال جَمِيع الشرور: من الفَوَاحِش والظُّلم والشرك والكذب وغير ذلك.

وكذلكَ طَالب الرِّئَاسَة والعلو في الأَرْض، قلبه رَقِيق لمن يُعينهُ عليها، ولَو كانَ في الظَّاهِر مقدَّمَهم والمطاعَ فيهم، فهو في الحَقِيقَة يرجوهم ويخافهم، فيبذل لَهُم الأَمْوَال والولايات، ويعفو عَمَّا يجترحونه ليطيعوه ويعينوه، فهو في الظَّاهِر رَئِيس مُطَاع، وفي الحَقِيقَة عبدٌ مُطِيع لَهُم.

والتَّحْقِيق أَن كِلَاهُمَا فيه عبودية للآخر، وكِلَاهُمَا تَارِك لحقيقة عبَادَة الله، وإذا كانَ تعاونهما على العُلُوّ في الأَرْض بِغَيْر الحق كَانَا بِمَنْزِلَة المتعاونَين على الفَاحِشَة أَو قطع الطَّرِيق، فكل واحِد من الشخصين ـ لِهواه الَّذِي استعبده واسترقه ـ مستعبِد للآخر.

قوله: «**كلاهما فيه عبودية للآخر..**» هذا عطفًا على ما سبق أن القلب يجب أن يكون سليمًا لله، ويجب ألا يتعلق بغير الله جل وعلا، لا من مال ولا من مخلوق، من معين أو معنًى، فالتعلق قد يكون بعينٍ معينة، إما امرأة أو صبي أو مال معين، وقد يكون التعلق بمعنًى، يتعلق بمعاني بالرئاسة والعلو في الأرض، وكونه مثلًا مقدَّمًا في الناس، وله تصرف وأمر ونهي، فإن هذه من الأمراض أيضًا، وربما لا يتحملها كل إنسان، فإذا وصل إلى هذا تكبر وطغى وتجبر، كما قال جل وعلا: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العَلَق: ٦-٧]، والاستغناء يعني أنه يصل إلى شيء من هذا الحد.

وهذا يسمى الشهوة الخفية، وهي الرئاسات والمناصب الكبيرة التي يرتفع بها عن الناس، وهذه ربما لا يحتملها كل إنسان، فبعض الناس إذا وصل إليها تصور أنه وصل إلى الغاية، وأنه يجب أنه يعظم، وأنه وأنه،

وهكذا أَيْضاً طَالب المَال، فإِن ذَلِك المال يستعبده ويسترقه. وهذه الأُمُور نَوْعَانِ:

مِنْهَا ما يحْتَاج العَبْد إليه، كما يحْتَاج إليه من طَعَامه وشَرَابه ومسكنه ومنكحه ونَحْو ذَلِك، فهذا يَطْلُبهُ من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المَال عِنْده ـ يَسْتَعْمِلهُ في حَاجته ـ بِمَنْزِلَة حِمَارِه الَّذِي يركبه، وبِساطِه الَّذِي يجلس عليه، بل بِمَنْزِلَة الكَنيفِ الَّذِي يقْضي فيه حَاجته، من غير أَن يستعبدَه، فيكونَ ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعَارج: ٢٠-٢١].

فتكون فتنة له، وكل هذا مدعاة لترك الحق.

ولهذا تجد في دعوات الرسل، أن الذين يعارضونهم ويردون عليهم هم الملأ، فتكرر في قصص الرسل مع أقوامهم: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ﴾ [الأعرَاف: ٦٠]، فمن هم الملأ؟ الملأ هم الذين تملأ مناظرهم العيون، أصحاب الأبهات، أصحاب الرئاسات الذين لهم مقام ولهم كلمة، الكبراء والقادة، فهم الذين يقفون في وجه الحق غالبًا.

قوله: «**منها ما يحْتَاج العَبْد إليه..**» من الناس من يتعلق قلبه بالحمار الذي يركبه؟! ومنهم من يتعلق قلبه بالفراش الذي يطؤه بقدمه ويجلس عليه؟! ومنهم من يتعلق قلبه بالكنيف الذي يقضي فيه حاجته؟! هل هناك عاقل يتعلق قلبه بمثل هذه الأشياء؟! ويريد شيخ الإسلام أن المال مثله مثل هذه الأشياء، فلا يجوز أن يكون للمال في القلب محل، لأنه اتخذ لقضاء الحاجة، ولسد الفقر وهو به يعبد ربه، وما يتعلق قلبه به.

ولهذا فالذين يصلون إلى هذا الأمر لا تجد عندهم شيئًا، بل تجدهم يقدمونه لأنفسهم، فإذا أُمسك المال قد يكون ضارًا، وإذا أُنفق يكون نافعًا.

. . . .

وأفضل الخلق رسولنا ﷺ، كان إذا عَهِدَ في بيته شيئًا يخفف الصلاة حتى يذهب يقسمه، كما جاء في الصحيح، أنه ﷺ صلى بالمدينة العصر، فسلم ثم قام مسرعًا، فتخطى رقاب الناس إلى بعض حُجَر نسائه، ففزع الناس من سرعته، فخرج عليهم، فرأى أنهم عجبوا من سرعته، فقال: **«ذكرتُ شيئًا من تِبْرٍ عندنا، فكرهت أن يحبسني، فأمرت بقسمته»**(١).

ومات صلوات الله وسلامه عليه ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير(٢). وكان صلوات الله وسلامه عليه يدعو ربه: **«اللهم اجعل رزقَ آل محمد قوتًا»**(٣).

وقال النبي ﷺ: **«عَرض عليّ ربي لِيجعلَ لي بطحاءَ مكة ذهبًا، قلت: لا يا رب، ولكن أشبع يومًا، وأجوع يومًا،** ـ أو نحو هذا ـ **فإذا جُعْتُ تضرّعتُ إليك وذكرتُك، وإذا شبعتُ شكرتُك وحَمِدْتُك»**(٤).

وتقول عائشة رضي الله عنها لابن أختها عروة بن الزبير: والله يا ابن أختي! إنْ كنا لَننظرُ إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال ثلاثة أهلة في شهرين، وما أُوقد في أبيات رسول الله ﷺ نار! قال عروة: قلت يا خالة، فما كان يُعَيِّشُكم؟! قالت: الأسودانِ التمرُ والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم مَنائحُ، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيَسْقِيناهُ(٥). وتأملوا قولها: «في أبيات رسول الله ﷺ»،

---

(١) أخرجه البخاري (٨٥١) من حديث عقبة بن الحارث رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٢٩١٦) ومسلم (١٦٠٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٦٠) ومسلم (١٠٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه أحمد (٢٢١٩٠)، والترمذي (٢٣٤٧) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.
(٥) أخرجه البخاري (٢٥٦٧) ومسلم (٢٩٧٢).

. . . .

فقد كان له ﷺ تسعة بيوت، لأن كل زوجة لها بيت.

وحتى التمر لم يكن يتيسر في كل حال، جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني مجهود، فأرسل النبي ﷺ إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق! ما عندي إلا ماء! ثم أرسل إلى أخرى، فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلُّهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء! فقال ﷺ: «**من يُضيف هذا الليلةَ رحمه الله**». فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا إلا قوت صبياني. قال: فعَلِّليهم بشيء، فإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج، وأَرِيهِ أنّا نأكل، فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج حتى تطفئِيهِ. قال: فقعدوا وأكل الضيف، فلما أصبح غدا على النبي ﷺ فقال: «**قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة**»(١)، فهو أفضل الخلق صلوات الله وسلامه عليه، وما عنده شيء!

ولهذا لما دخل عمر رضي الله عنه مرة عليه، وهو في مشربة في عِلِّيّة، حين اعتزل نساءه شهرًا، يقول عمر: فدخلتُ على رسول الله ﷺ وهو مضطجع على حصير، فجلستُ، فأدنى عليه إزارَه، وليس عليه غيره، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله ﷺ، فإذا أنا بقَبضة من شعيرٍ نحوِ الصاع، ومثلِها قَرَظًا في ناحية الغرفة، وإذا أَفِيقٌ معلَّق، أي جلد غير مدبوغ، قال عمر: فابتدرت عيناي! فقال النبي ﷺ: «**ما يبكيك يا ابن الخطاب!**». قلت: يا نبي الله! وما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك! وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذاك قيصر وكسرى في الثمار والأنهار، وأنت رسول الله وصفوته،

(١) أخرجه البخاري (٣٧٩٨) ومسلم (٢٠٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

وهذه خزانتك! فقال ﷺ: **«يا ابن الخطاب! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا!»** قلت: بلى![١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: دخل عمر بن الخطاب على النبي ﷺ وهو على حصير قد أثر في جنبه، فقال: يا رسول الله، لو اتخذت فراشًا أوثَرَ من هذا! فقال ﷺ: **«ما لي وللدنيا! ما مثلي ومثل الدنيا إلا كراكب سار في يوم صائف، فاستظل تحت شجرة ساعة من نهار، ثم راح وتركها»**[٢].

ونظر إليه مرة جابر بن عبد الله رضي الله عنهما وهو يعمل معهم في حفر الخندق، إذا تعسر عليهم شيء دعوه، قال جابر: إنا يوم الخندق نحفر فعرضت كُدية شديدة، يعني صفاة ما استطاعوا أن يقطعوها، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق، فقال ﷺ: **«أنا نازل»**. ثم قام وبطنه معصوب بحجر، قال جابر: ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا! فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب الكدية فعاد كثيبًا أهيلَ.

فقلت: يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت. وقصده أن يذهب لينظر هل عنده شيء أم لا؟ لأن الصحابة أيضًا ربما لا يكون عندهم شيء. فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ خمصًا شديدًا، ما كان في ذلكِ صبر، فعندكِ شيء؟ قالت: فأخرجت لي جرابًا من شعير، ولنا بُهيمة داجن، فذبحتُها، وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم في البُرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبُرمة بين الأثافيّ قد كادت تَنضَج، فقلت: طُعَيِّمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: **«كم هو»**؟.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٤٣) ومسلم (١٤٧٩) من حديث ابن عباس عن عمر رضي الله عنهم.

(٢) أخرجه أحمد (٢٧٤٤). وأخرجه أحمد (٣٧٠٩)، والترمذي (٢٣٧٧)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

. . . .

فذكرتُ له، قال: «**كثير طيب، قل لها لا تَنْزِعِ البُرمة ولا الخبز من التنور حتى آتيَ**».

فصاح رسول الله ﷺ: «**يا أهل الخندق، إن جابرًا قد صنع لكم سُورًا فحَيَّهلًا بكم**». فقام المهاجرون والأنصار!

فلما دخل جابر على امرأته قال: ويحكِ! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم! قالت: هل سألك؟ قلت: نعم!

فأخرجتُ له عجينتَنا، فبصق فيها وبارك، ثم عَمَدَ إلى برمتنا فبصق فيها وبارك، ثم قال: «**ادعي خابزةً فلتخبز معك، واقدحي من برمتكم ولا تنزلوها**». فقال النبي ﷺ: «**ادخلوا ولا تَضَاغَطُوا**». فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم، ويخمِّر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرّب إلى أصحابه، ثم يَنزِع، فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، وهم ألف، فأقسم بالله لأكلوا حتى تركوه وانحرفوا، وإن برمتنا لتغط كما هي، وإن عجينتنا لتخبز كما هو، قال ﷺ: «**كُلِي هذا وأَهْدِي، فإن الناس أصابتهم مجاعة**»[١].

هذا شيء مما نحن فيه، إذا طلب من الله شيئًا أعطاه، ومع ذلك لا يطلب، لأن الدنيا لا تساوي شيئًا، وإن الصحابة الكرام أخذوا من هذه الأخلاق التي كان يتخلق بها صلوات الله وسلامه عليه.

المقصود أن هذه حالة أشرف خلق الله، وهذه صفته، الدنيا لا تساوي عنده شيء، حتى إنه أحيانًا إذا تحصّل على غنائم يعطي الرجل الواحد مئة من الإبل، وأحيانًا مئتين، وأحيانًا ثلاثمئة، ولكن عطاؤه لله

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٠) ومسلم (٢٠٣٩).

ومنها ما لا يَحْتَاج العَبْد إليه، فهذا لَا يَنْبَغِي لَهُ أَن يعلّق قلبه به، فإِذا علق قلبه به صَار مستعبَداً لَهُ.

جل وعلا، يعطي الذي يعطيه يرغبه في الإسلام، فيسلم، وإذا أسلم، أسلم قومه.

على كل حال، نقول: إن المؤمن في هذه الدنيا يجب ألا يتعلق قلبه إلا بربه جل وعلا، وإذا كان كذلك فهو الغني، الذي سوف يَحمَد عاقبته، ولا يجوز أن يكون المال مستعبِدًا له، والآن في وقتنا الحاضر كثير من الناس صاروا يعبدون الدنيا، ويعرضون عن أمر الله جل وعلا، ويقدِّمون ملاذَّهم وأموالهم على طاعة الله جل وعلا، وسوف يندمون، ولكن إذا كانت الندامة حين يعاينون رسل الله التي تقبض الأرواح فهذه مصيبة، أما إذا منّ الله عليهم جل وعلا واستدركوا ما هم فيه فهذا فضل الله.

قوله: «**ومنها ما لا يَحْتَاج العَبْد إليه..**» ليس معنى ذلك أنه يزهد في المال، فالمال للرجل الصالح صالح، نِعْمَ المال الصالح للرجل الصالح، ولكن يجب أن يكون طلبه من الله، وإذا حصل له مال أن يعمل فيه بطاعة الله جل وعلا، فيكون رفعة لدرجاته.

وإذا تأملنا القرآن، وجدنا فيه تقديم الجهاد بالمال في جميع آيات القرآن، إلا آية واحدة فقط، ليست على غرار الآيات الأخرى، لأنها ذُكرت فيها المبايعة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم﴾ [التوبة: ١١١]، فلما جاء الشرى قدمت الأنفس لأنها أغلى من المال، أما بقية الآيات التي فيها الأمر بالجهاد، فالمال فيها مقدم على الجهاد بالنفس.

فلا بد من المال، ولكن يجب أن يكون طلبه من الطرق التي أذن

وربَمَا صَار مُعْتَمِداً على غير الله، فلَا يبْقى مَعَه حَقِيقَة العِبَادَة لله، ولَا حَقِيقَة التَّوَكُّل عَلَيْهِ، بل فيه شُعْبَة من العِبَادَة لغير الله، وشعْبَة من التَّوَكُّل على غير الله، وهَذَا مِن أَحَق النَّاس بقوله ﷺ: «**تعس عبد الدِّرْهَم، تعس عبد الدِّينَار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة**»[١]، وهَذَا هُوَ عبدُ هَذِه الأُمُور، فإِنَّهُ لَو طلبَهَا من الله فإِن الله إِذا أعطَاهُ إِيَّاه رَضِي، وإِن مَنعه إِيَّاه سخط!

وإِنَّمَا عبدُ الله مَن يُرضيه ما يُرْضِي الله، ويُسخطه ما يُسْخط الله، ويُحب ما أحبه الله ورَسُوله، ويُبغض مَا أبغضه الله وَرَسُوله، ويُوالي أَوْلِيَاء الله، ويعادي أَعدَاء الله تعالى. وهَذَا هُوَ الَّذِي اسْتكْمل الإِيمَان، كمَا في الحَدِيث: «**من أحب لله، وأبْغض لله، وأعْطى لله، ومنع لله، فقد اسْتكْمل الإِيمَان**»[٢]، وقال: «**أوثقُ عُرى الإِيمَان: الحبّ في الله، والبغض في الله**»[٣].

وفي الصَّحِيح عَنهُ ﷺ: «**ثَلَاث مَن كُنّ فيه وجد حلاوةَ الإِيمَان: مَن كانَ الله ورَسُوله أحبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا، ومَن كَانَ يحب المرْء لَا يُحِبهُ إِلَّا لله، ومَن كانَ يكره أَن يرجع إِلى الكفْر بعد إِذْ أنقذه الله**

الله ﷻ بها، ويجب أن يتقي الإنسان ربه في ذلك، ولا يستعبِد المالُ قلبه، فهذا معنى ما ذكره شيخ الإسلام رحمه الله، وليس معناه أن المال مما لا ينبغي، أو أن الإنسان ما ينبغي أن يكون عنده المال، لا، ولكن ما ينبغي أن يستولي المال على قلبه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٦، ٢٨٨٧، ٦٤٣٥).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٨١) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد (١٨٥٢٤) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.
وأخرجه الطيالسي (٣٧٨) والطبراني في الكبير (١٠٥٣١)، والحاكم في المستدرك (٤٨/٢)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

منه كمَا يكره أَن يُلقى في النَّار»[١].

فهَذَا وافق ربه فيما يُحِبهُ ومَا يكرههُ، فكَانَ الله وَرَسُوله أحبَّ إليه مِمَّا سواهُمَا، وأحبَّ المخلوقَ لله، لَا لغَرَض آخر، فكَانَ هَذَا من تَمام حبه لله، فإِن محبَّة مَحْبُوب المحبوب من تَمام محبَّة المحبوب، فإذا أحب أَنْبيَاء الله وأولياء الله، لأجل قيامهم بمحبوبات الحق، لَا لشَيْء آخر، فقد أحبهم لله لَا لغيره، وقد قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المَائدة: ٥٤].

ولِهَذَا قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]، فإِن الرَّسُول لَا يَأْمر إِلَّا بِمَا يحب الله، ولَا ينْهَى إِلَّا عَمَّا يُبغضه الله، ولَا يفعل إِلَّا مَا يُحِبهُ الله، ولَا يخبر إِلَّا بِمَا يحبّ الله التَّصْدِيقَ به. فمَن كانَ محبّاً لله لزم أَن يتبع الرَّسُول، فيصدقه فِيمَا أخبر، ويطيعه فِيمَا أَمر، ويتأسى بِهِ فِيمَا فعل، ومن فعل هَذَا فقد فعل مَا يُحِبهُ الله، فَيُحِبهُ الله.

وَقد جعل الله لأهل محبته علامتين: اتِّبَاع الرَّسُول، والجهَاد في سَبيله، وذَلِكَ لِأَن الجِهَاد حَقِيقَته الاجْتِهَاد في حُصُول مَا يُحِبهُ الله: من الْإِيمَان وَالْعَمَل الصَّالح، ومِن دفع مَا يُبغضه الله: من الكفْر والفسوق والعصيان.

قوله: «**الجهاد حقيقته الاجتهاد**» الجهاد أمره واسع، لأن الجهاد قد يكون جهادًا للنفس، وهذا شيء لا بد منه، أن يجاهد نفسه ويجاهد الشيطان، ويجاهد فيما ولّاه الله إياه، وسيَسأله عنه، هذا أهم شيء.

---

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤]، ....

وكذلك المحبة لا بد أن يكون أصلها محبة الله جل وعلا، ثم يتبعها محبة ما يحبه الله جل وعلا، لأن هذا من كمال محبة الله، لهذا جمع الله بين محبته ومحبة رسوله ﷺ، لأن محبة الرسول ﷺ تبع لمحبة الله جل وعلا، وليست محبة مع الله، وإنما هي محبة مكمِّلة لمحبة الله جل وعلا، فهي محبة لله وفي الله، وهكذا محبة ما يحبه الله جل وعلا.

والعلامتان اللتان ذكرهما شيخ الإسلام رحمه الله، أولاهما: اتباع الرسول، ثم الجهاد، لأنه قال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]، واتباع الرسول لا بد فيه من جهاد، والجهاد: أول شيء فيه أن يجاهد نفسه على طاعات الله، ويجاهدها عن الوقوع في معاصي الله، هذا من أهم الجهاد، ثم يقوم بأوامر الله ومنها جهاد الكفار الذي هو من أفضل الجهاد.

قوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ..﴾ تمام الآية: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، وهذا يدلنا على أن من كانت هذه صفته، يعني قدم هذه الأمور الثمانية التي ذكرت في الآية، من كانت هذه أحبَّ إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، فهو فاسق، فلينتظر ماذا يحل به؟ هذا معنى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾، يعني انتظروا، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾، ومعنى ذلك أنه يأتي بعذاب.

ثم قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، يعني من كانت هذه صفته فهو من الفاسقين الذين يستحقون ويستوجبون عذاب الله جل وعلا، ولهذا

فتوعّد من كَانَ أَهلُه ومَالُه أحبَّ إِلَيْهِ من الله وَرَسُوله والجهَاد في سَبيله بِهَذَا الْوَعيد.

بل قد ثَبت عنه ﷺ في الصَّحِيح أَنه قال: «**وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ! لَا يُؤمن أحدكُم حَتَّى أكون أحبَّ إِلَيْهِ من وَلَده ووالده وَالنَّاس أَجْمَعِين**»[١]، وفي الصَّحِيح أَن عمر بن الخطاب قال: يا رَسُول الله، لأَنْت أحبُّ إِلَيّ من كل شَيْء إِلَّا من نفسي، فقال: «**لَا يا عمر، حَتَّى أكون أحبَّ إِلَيْك من نَفسك**» فقال: فوالله لأَنْت أحب إِلَيّ من نَفسِي، فقال: «**الآن يا عمر**»[٢].

فحقيقة المحبَّة لَا تتمّ إِلَّا بموالاة المحبوب، وَهُوَ مُوَافقَته في حب مَا يحب، وبُغض مَا يُبغض، والله يحب الإِيمَان وَالتَّقوى، ويُبغض الكفْر والفسوق والعصيان.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: فتوعد الله من كان كذلك بهذا الوعيد.

قوله ﷺ: «**الآن يا عمر**» يعني الآن وصلت إلى الواجب، الآن وصلت إلى ما يجب عليك، وهذا يدلنا على أن الإنسان إذا لم يعلم الشيء فاجتهد، ثم بعد ذلك علم أنه كان مقصرًا فيه لأنه لا يعلمه، فإنه غير ملوم، ولكن إذا علم فعليه أن يفعل ذلك، وعمر فعل ذلك في الحال، قال: لأنت الآن أحب إلي من نفسي، وهذا الاستعداد موجود، ولكنه ما علم أن هذا هو الذي يتعين، وهذا معناه أنه أمر واجب.

قوله: «**فحقيقة المحبَّة لَا تتمّ إِلَّا بموالاة المحبوب**» فلا يقبل أن يقول المرء: إنه يحب الله، ثم تراه يُبغض ما يحبه الله! هذا كذب، ولا

---

(١) أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (١٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٣٢) من حديث عبد الله بن هشام رضي الله عنه.

ومَعْلُوم أَن الحبّ يُحَرك إِرَادَة القلب، فكلما قويت المحبَّة في القلب طلب القلب فعل المحبوبات، فإذا كانَت المحبَّة تَامَّة استلزمت إِرَادَةً جازمة في حُصُول المحبوبات، فإذا كَانَ العَبْد قَادراً عَلَيْهَا حصّلها، وإن كانَ عَاجزاً عَنْهَا فَفعل مَا يقدر عَلَيْهِ من ذَلِك، كانَ لَهُ أجرٌ كَأَجر الْفَاعِل، كمَا قال النَّبِي ﷺ: «**من دَعَا إلى هدًى كانَ لَهُ من الأجر مثلُ أجور من اتبعهُ، من غير أَن ينقُص من أُجُورهم شَيْء، ومن دَعَا إلى ضَلَالَة كَانَ عَلَيْهِ من الوزر مثلُ أوزار من اتبعهُ، من غير أَن ينقص من أوزارهم شَيْء**»[(١)].

يقبل، فإذا كان يحب الله، فلا بد أن تكون مَحابُّه محبوباتٍ لله، وكذلك ما يُبغضه يكون مبغضًا لله، أما الدعاوي التي يدعيها الناس فهذه لا تجدي شيئًا.

قوله: «**كان له أجر كأجر الفاعل**» هذا من عدل الله جل وعلا، وليس معنى ذلك أنه يُحمَّل ما لا يعمل، لأن الذين يتبعونه على دعوته في ضلاله عندهم عقول، وعندهم أبصار يجب أن يستعملوها، ولكن إذا وافق قولُه هواهم ربما يتبعونه من دون نظر، فلا يكون يتحمل وزره فقط، بل يتحمل أكثر أوزارهم، وأوزارُهم أيضًا عليهم، ولهذا قال: «**من غير أن ينقص من أوزارهم شيء**».

وهذا أمر خطير جدًّا، فالدعوة إلى ضلالة ليست محصورة في كونه يدعو الناس إلى كذا وكذا، بل يدخل في الدعوة إلى ضلالة مثل الإفتاء بغير علم، فيقول: هذا جائز، وهو ليس متأكدًا، فإن الله جل وعلا يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، فمثل هذا يجب أن يتثبت الإنسان فيه

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقال: «**إِن بِالمدِينَةِ لَرِجَالاً مَا سِرْتُمْ مسيراً ولَا قطعْتُمْ وَادياً إِلَّا كَانُوا مَعكُمْ**»، قالُوا: وهم بِالمدِينَةِ؟! قال: «**وهم بِالمدِينَةِ، حَبسهم العذر**»[(١)].

والجهَاد: هُوَ بذل الوسع ـ وَهُوَ كل مَا يُمْلَكُ من الْقُدْرَة ـ في حُصُول مَحْبُوب الحق، ودفع مَا يكرههُ الحق. فإذا ترك العَبْد مَا يقدر عَلَيْهِ من الْجِهَاد كَانَ دَلِيلاً على ضعف محبَّة الله وَرَسُوله فِي قلبه.

ومَعْلُوم أَن المحبوبات، لَا تُنال غَالِباً إِلَّا بِاحْتِمَال المكروهات، سَوَاء كَانَت محبَّةً صَالِحَة أَو فَاسِدَة، فالمحبون لِلمَالِ والرئاسة والصُّوَر لَا ينالون مطالبهم إِلَّا بِضَرَر يلحقهم في الدُّنْيَا، مَعَ مَا يصيبهم من الضَّرَر في الدُّنْيَا والآخِرَة، فالمحب لله وَرَسُوله إِذا لم يحْتَمل مَا يرى ذُو الرَّأْي من المحبين لغير الله مِمَّا يحْتَملُونَ في سَبِيل حُصُول محبوبهم، دلّ ذَلِك على ضعف محبتهم لله، إِذا كَانَ مَا يسلكه أُولَئِكَ في نظرهم هُوَ الطَّرِيق الَّذِي يُشِير به العقل.

ومن المَعْلُوم أَن الْمُؤمن أَشدُّ حبّاً لله، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

نعم، قد يسْلك المُحب ـ لضعف عقله وَفَسَاد تصَوّره ـ طَرِيقاً لَا

ويأخذ لنفسه قبل أن يثبُت عليه ما لا يتحمله.

قوله: «**حبسهم العذر**» إما مرضوا أو عجزوا عن النفقة، ولكن عندهم النية، وعندهم الشوق إلى القتال والجهاد في سبيل الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٣٩، ٤٤٢٣) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وأخرجه مسلم (١٩١١) من حديث جابر بن عبد الله ﷺ.

يحصل بهَا المَطْلُوب، فمثل هَذِه الطَّرِيق لَا تحمد إِذا كَانَت المحبَّة صَالِحَة محمودة، فكيف إِذا كَانَت المحبَّة فَاسِدَةً والطَّرِيق غيرَ مُوصِل؟! كمَا يَفْعَله المتهورون في طلب المَال والرِّئَاسَة والصُّوَر، من حب أُمُور توجب لَهُم ضَرَراً، ولَا تحصِّل لَهُم مَطْلُوباً، وإِنَّمَا المَقْصُود: الطّرق الَّتِي يسلكها العقل السَّلِيم لحُصُول مَطْلُوبه.

إِذا تبين هَذَا فكلما ازْدَادَ القلب حبّاً لله ازْدَادَ لَهُ عبودية، وكلما ازْدَادَ لَهُ عبودية ازْدَادَ لَهُ حبّاً وفضَّله عَمَّا سواهُ.

والقلب فَقير بِالذَّاتِ إِلَى الله من وجْهَيْن: من جِهَة العِبَادَة، وهِي العلَّة الغائية، ومن جِهَة الاسْتِعَانَة والتوكل، وهِي العلَّة الفاعلة.

فالقلب لَا يصلُح، ولَا يُفلح، ولَا يَنْعَم، ولَا يُسرّ، ولَا يَلتذُّ، ولَا يَطيب، ولَا يَسكن، ولَا يَطمئن، إِلَّا بِعبَادة ربه وحبه والإنابة إِلَيْهِ. ولَو حصل لَهُ كل مَا يلتذّ بِهِ من المخْلُوقَات لم يطمئن ولم يسكن، إِذْ فيه فقر ذاتي إِلَى ربه من حَيْثُ هُوَ معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبِذَلِك يحصل لَهُ الْفَرح وَالسُّرُور، واللذة والنعْمَة، والسكون والطمأنينة.

وهَذَا لَا يحصل لَهُ إِلَّا بإعانة الله لَهُ، فإِنَّهُ لَا يقدر على تَحْصِيل ذَلِك لَهُ إِلَّا الله، فهُوَ دَائِماً مفتقر إِلَى حَقِيقَة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥]، فإِنَّهُ لَو أُعين على حُصُول كل مَا يُحِبهُ ويطلبه ويشتهيه ويريده، وَلم يحصل لَهُ عبَادَة لله، فلَنْ يحصل إِلَّا على الأَلَم والحَسْرَة وَالْعَذَاب، ولنْ يخلُص من آلام الدُّنْيَا ونكد عيشها إِلَّا بإخلاص الحبّ لله، بِحَيْثُ يكون الله هُوَ غَايَةَ مُرَاده

. . . .

ونِهَايَةَ مَقْصُوده، وهُوَ المحبوب لَهُ بِالقَصْدِ الأول، وكل مَا سواهُ إنما يحبه لأجله، لا يحب شيئاً لذاته إلا اللهَ.

هذا الكلام الذي يقوله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ما كل أحد يدركه أو يحس به، فمن المعلوم أن القلب إذا مات فهو كالبدن إذا مات لا يحس بالجراح، ولا يحس بالضرب، وإنما يحس بذلك القلب الحي الذي فيه حياة، وهذا يدرك بالعقل والنظر وسبر الأحوال.

فالله جل وعلا خلق عباده وسماهم عبادًا، فالعبادة لا تنفك عنهم، ومِن عدل الله جل وعلا أن الإنسان العاقل الذي خلق لعبادة الله إذا لم يعبد ربه الحقَّ جل وعلا، فلا بد أن يعبد المظاهر التي حوله، أو المعاني التي تتعلق به، وهذا معنى كون القلب لا ينفك عن العبادة، فإذا لم يعبد الحق عبد الباطل.

ومن سنة الله جل وعلا أيضًا، أن الإنسان إذا ازداد خيرًا واتجه للخير فإنه يزداد خيرًا، والحسنة تجر الحسنة، والعكس كذلك فالسيئة تجر السيئة.

لهذا نقول: ما كل أحد يحس بهذا، فقد يتعلق قلبه بغير الله، سواء تعلق بمعنًى من المعاني، أم بذات من ذوات الناس من امرأة أو غيرها، ثم لا يحس بأنه منصرف عن ربه جل وعلا، بل تجده مستأنسًا بهذا وراغبًا فيه، ثم يستمر فيه إلى أن تنتهي حياته، فيتم الشقاء بهذا، نسأل الله العافية.

فقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «**إن القلب فقير إلى عبادة الله جل وعلا**»، هو فقير في وضعه وخلقه، ولكن إذا لم يعبد ربه عبد غيره، حتى الملاحدة الذين يقولون: الحياة مادة، وما ثمة جنة ولا نار ولا ثمة آخرة، وإنما نهاية الإنسان أن يكون ذرة من ذرات تراب الأرض.. حتى

....

هؤلاء الملاحدة ما ينفكون عن العبادة، فإذا لم يعبدوا ذواتَهم وشهواتِهم، عبدوا رؤساءهم ومعظِّمِيهِم ولا بد من ذلك، والعاقل إذا سبر هذا وجده حقيقة.

وهذا من عدل الله جل وعلا، كونه يعاقِب الإنسان بنقيض قصده، فالعبودية ما ينفك الإنسان عنها، سواء كانت عبودية حق أم عبودية باطل، ولكن عبودية الباطل تزيد الإنسان بعدًا عن الله جل وعلا ثم شقاء في النهاية، أما عبودية الله جل وعلا ففيها نعيم، نعيم في الدنيا، ونعيم في الآخرة، لأن القلب لا يمكن أن يطمئن ويرتاح ويستأنس إلا بعبادة الله، لو أتيته بجميع الملاذ.

وإن كان كثير من الناس أصبحت أحوالهم بهيمية، يعني يعيشون كما تعيش البهائم، يأنسون بهذا، فلا يحسون بموت القلوب، ولا يحسون بالآلام، لكثرة تغطية الآثام على القلوب والران الذي ران عليها، كما قال الله جل وعلا: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

ولهذا كان السلف يقول أحدهم: إذا أذنبت رأيت أثر ذلك في نفسي أو في خلق زوجتي أو خلق دابتي أو خلق ولدي، يحس ذلك ويجده، ولكن مثلنا ما نحس لكثرة ذنوبنا، كما قال المتنبي: ما لجرح بميت إيلام، فالميت إذا ضربته وجرحته ما يألم.

والمقصود أن السعادة سعادة القلب وطمأنينته كما قال الله جل وعلا: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرّعد: ٢٨]، وبغير ذلك لا تطمئن أبدًا، ما تطمئن القلوب إلا بذكر الله، وذكر الله يشمل العمل والتعلق به، واتباع ما أمر به جل وعلا، وهذا الذي يعبر عنه بأنه يذوق حلاوة الإيمان، وبأنه يكون وجد السعادة في الدنيا، ووجد الجنة التي يقول عنها ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة

ومَتى لم يحصل لَهُ هَذَا لم يكن قد حقق حَقِيقَة «لَا إِلَه إِلَّا الله»، وَلَا حقق التَّوْحِيد والعبودية والمحبة لله، وكَانَ فيه من نقص التَّوْحِيد والإِيمَان بل من الأَلَم والحَسْرَة والعَذَاب بِحَسب ذَلِك.

ولَو سعى في هَذَا المطْلُوب ولم يكن مستعيناً بِالله، متوكلاً

الآخرة»، ومقصوده بالجنة التنعم والتلذذ بطاعة الله، وبعض الناس يقول: إن أوامر الشرع تكاليف، وليست تكاليف في الواقع، وإنما هي سعادة للمرء، ولكن قد لا يحس بها.

وعلى كل حال فالعبودية عبودية القلب، وهذا يدلنا على أن الأعمال الظاهرة لا تنفك عن أعمال القلوب أبدًا، فهي متعلقة بها وتبع لها، والذي يريد أن يفصل بين هذه وهذه، ويقول: إن هناك أعمال قلبية تركت ونسيت وذهبت، والناس تعلقوا بالأعمال الظاهرة، وبالأمور المكشوفة، إما أنه يغالط في هذا أو أنه لا يفقه، لأنه كما قال لنا رسول الله ﷺ: **«ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلَحت صلَح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»**[1]، ومعنى ذلك أنه هو الذي يدبر الأعضاء كلها، والأعضاء كلها تصدر عن إرادة القلب، وهو المعبر عنه بالإرادات والنيات، كما قال ﷺ: **«إنما الأعمال بالنيات»**[2].

والله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، والمقصود بالفؤاد أعمال القلوب، فهي الأصل في هذا، وإذا كان القلب متَّجِهًا ومتعلّقًا بربه جل وعلا، فالنية تكون تبعًا له.

قوله: **«ولو سعى في هَذَا المطْلُوب..»** يعني هذا في الوضع الذي وضع له الإنسان وخلق عليه، ولكن يتغير هذا الظاهر، ولا يحس به، ولهذا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (١) ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

عليه، مفتقراً إِلَيْهِ في حُصُوله، لم يحصل لَهُ، فإِنَّهُ مَا شَاءَ الله كَانَ، ومَا لم يَشَأْ لم يكن، فهُوَ مفتقر إلى الله من حَيْثُ هُوَ المطْلُوب المحبوب، المُرَاد المعبود، ومن حَيْثُ هُوَ المَسْؤول، المسْتَعَان بِه، المتَوَكلُ عَلَيْهِ، فهُوَ إلهه الَّذِي لَا إِلَه لَهُ غَيره.

ولَا تتمّ عبوديته لله إِلَّا بِهَذَيْنِ، فمَتَى كَانَ يحب غير الله لذاته، أَو يلْتَفت إلى غير الله أَنه يُعينهُ، كَانَ عبداً لما أحبه، وعبداً لما رجاه،

تجد من يجادل عن الباطل، ويزعم أنه هو الذي ينبغي أن يسلك، فهل هذا لأن القلب سليم مستقيم؟ وهل هذا لأن النظر والعقل مستقيم يدرك الأمور على ما هي؟! لا، لأنها تتغير، تغيرت إدراكاته ونظراته بحسب تغير قلبه وما تعلق به.

وإلا فلو كان الإنسان يصبح على ما خلقه الله، ويسير سيرًا معتدلًا على الخلقة التي أرادها الله جل وعلا له، وطبعه عليها، لم يكن للباطل عنده رواج أو محبة له، ولكن هذه حكمة الله جل وعلا، قسم الناس بين شقي وسعيد، وزين لكل أمة عملُها، فيرى الإنسان أن ما فيه هو الذي ينبغي أن يسلك، وهو على باطل.

فإذا حقت الحقائق وحصل ما في الصدور، تتبين وتجتمع له الحسرات كلها، كما قال الله جل وعلا: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الأنفال: ٣٧]، والخبث الذاتي والمعنوي كله يجمع في هذا، والحسرات كلها تجتمع على عابدِ غير الله جل وعلا، بعد ما تتبين له الأشياء وتعرض عليه أمامه، والمقصود أن هذا لا يظهر في هذه الحياة، إلا لمن كان قلبه سالمًا من الانحرافات والتعلّقات بغير الله جل وعلا.

قوله: «**فمَتَى كَانَ يحب غير الله لذاته**» فالذي يحب لذاته هو الله

بِحَسب حبه لَهُ ورجائه إِيَّاه، وإِذا لم يحب أحداً لذاته إِلَّا الله، وأيّ شَيْء أحبه سواهُ فإِنَّمَا أحبه لَهُ، ولم يرجُ قطّ شَيْئاً إِلَّا الله، وإِذا فعل مَا فعل من الأَسْبَاب أَو حصّل مَا حصل مِنْهَا، كَانَ مشاهداً أَن الله هُوَ الَّذي خلقهَا وقدرها وسخرها لَهُ، وأَن كل مَا فِي السَّموات والأَرْض فالله ربه ومليكه وخالقه ومسخره، وهُوَ مفتقر إِلَيْهِ، كانَ قد حصل لَهُ من تَمام عبوديته لله بِحَسب مَا قُسم لَهُ من ذَلِك.

فقط، ولا يوجد مخلوق من المخلوقات يحب لذاته، وإنما يحب لما يقوم به من الصفات والمعاني، وإلا فالذوات متقاربة، أما رب العالمين جل وعلا فهو يحب لذاته، وهذا الحب يجب أن يكون متميزًا عن حب المخلوقات الأخرى، فنحن نحب الرسول ﷺ لأنه رسول، ولأنه يحب الله، فهذه صفات، ونحن ما نحبه لأنه لحم ودم، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، يعني هو في البشرية مثلنا، ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الأنبياء: ١٠٨]، فتميز بهذا الوحي.

وكذلك الناس كلهم خلقوا من نفس واحدة، فكلهم في الخلق بشر، ومن لحم ودم، ولكن تميزوا بالأعمال فقط، سواء كانت أعمال باطنة أم أعمال ظاهرة، فالمخلوق يحب لما فيه من الصفات والأعمال التي يعملها، وإنما الذي يحب لذاته هو رب العالمين، وهذا هو التميز في المحبة.

وأيضًا يجب أن تتميز هذه المحبة عن غيرها من المحابّ في وصفها، فهي محبة ذل وخضوع وعبادة، تتضمن الخوف والرجاء.

أما إذا كان المحبوب محبوبًا لله، فيجب أن يكون تبعًا لمحبة الله جل وعلا، ويلزم من هذا أنك إذا كنت تحب الله جل وعلا، وتحب ما

والنَّاس في هَذَا على دَرَجَات مُتَفَاوِتَة، لَا يُحصي طُرُقَها إِلَّا الله. فأكمل الخلق، وأفضلهم، وأَعْلَاهُمْ، وأقربهم إِلَى الله، وأَقْوَاهُمْ، وأهداهم: أتمُّهم عبودية لله من هَذَا الوَجْه.

وهَذَا هُوَ حَقِيقَة دين الإِسْلَام الَّذِي أرسل الله بِهِ رسله، وأنزل بِهِ كتبه، وَهُوَ أَن يستسلم العَبْد لله لَا لغيره، فالمستسلم لَهُ وَلغيره مُشْرك، والممتنع عَن الاستسلام لَهُ مستكبر.

وقد ثَبت في الصَّحِيح عَن النَّبِي ﷺ أَن «**الجنَّة لَا يدخلهَا من كَانَ في قلبه مِثْقَال ذرة من كبر**»[1]. كَمَا أَن النَّار لَا يخلد فِيهَا من كَانَ فِي قلبه مِثْقَال ذرة من إِيمَان[2].

فجعل الكبر مُقَابلاً للإِيمَان؛ فإِن الكبر يُنَافِي حَقِيقَة الْعُبُودِيَّة، ....

يحبه، وأنك تكره ما يكرهه، وتُبغض ما يُبغضه، فلا بد من ذلك، لأن هذا من تمام المحبة.

قوله ﷺ: «**مثقال ذرة من كبر**» المقصود بالكبر: الإباء والامتناع عن أمر الله ﷻ، فيتكبر عن عبادة الله وعلى طاعته، كما فعل الشيطان لما أمر بالسجود استكبر وأبى، فهذا الذي لا يدخل الجنة، من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، أما الكبر الذي هو الترفع على بني جنسه، فهذا من الكبائر التي لا تجعل الإنسان خالدًا في النار، أو خارجًا من الدين الإسلامي.

---

(١) أخرجه مسلم (٩١) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) ورد في أحاديث كثيرة، منها ما أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، في حديث الشفاعة الطويل، وفيه قول النبي ﷺ: «ثم يعودون فيقول الله: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا».

كَمَا ثَبت في الصَّحِيح عَن النَّبِي ﷺ أنه قَالَ: «**يَقُول الله: العظمة إزَارِي، والكبرياء رِدَائي، فمن نازعني وَاحِداً مِنْهُمَا عَذبته**»[1].

فالعظمة والكبرياء من خَصَائِص الربوبية، والكبرياء أعلَى من العظمة، ولِهَذَا جعلهَا بِمَنْزِلَة الرِّدَاء، كَمَا جعل العظمة بِمَنْزِلَة الإِزَار.

ولِهَذَا كَانَ شعار الصَّلَاة والْأَذَان والأعياد: هُوَ التَّكْبِير، وكَانَ

وقول الله تعالى في الحديث القدسي: «**العظمة إزاري**» هذه من صفات الله ﷻ التي ينفرد بها عن خلقه، الكبر والعظمة، فالمخلوق لا يجوز أن يكون منازعًا لربه طالبًا واحدة منهما، فإنه إذا فعل ذلك فقد خرج عن العبودية، وخرج عما خُلق له، لأن من صفة العبد أن يكون ذليلًا خاضعًا، والذل يجب أن يكون للمعبود فقط، وليس لنظيره، إلا أن يكون خارجًا عن مقدوره، كأن يقهر ويرغم على ذلك، وإذا قهر وأرغم بالقوة، فلا بد أن يكون قلبه نافرًا من هذا الذل والخضوع، ولذلك فمن ذل وخضع لمخلوق قهرًا تجد قلبه يلعنه ويُبغضه أشد البغض، فمثل هذا لا يكون عبادة، ولا يكون مؤاخذًا على ذلك.

ولكن الكبر الذي هو صفة الله، والعظمة التي هي صفة الله، ما ينازع فيها إلا من يترفع عن عبادة الله جل وعلا، وعن الخضوع له والذل له، وهذا ليس من صفات العبد، فمن صفات العبد أن يكون عبدًا، والعبد يطيع سيده ويخضع له ويذل له، ولهذا يعذب الله جل وعلا من خرج عن هذا الوصف.

قوله: «**ولِهَذَا جعلهَا بِمَنْزِلَة الرِّدَاء..**» ليس المعنى أن الله جل وعلا له رداء وإزار، ولكن هذا تمثيل للعباد حتى يفهموا ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣٨٢)، وأبو داود (٤٠٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

مُسْتَحبّاً في الأَمْكِنَة العَالِيَة، كالصفا والمروة[١]، وَإِذا علا الإِنْسَان شرفاً[٢]، أَو ركب دَابَّة[٣]، ونَحْو ذَلِك، وبِه يُطفأ الحَرِيق وإن عظم[٤]، وعند الأَذَان يهرب الشَّيْطَان[٥].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ۝٦٠﴾ [غافر: ٦٠].

قوله: «**وبه يطفأ الحريق وإن عظم**» هذا ليس في كل حال، وإنما إذا صدر من أهل الإيمان الذين يعرفون هذه الحقائق، فالنار تطلب العلو والارتفاع، فتطفأ بالتكبير، لأن الله فوق كل شيء، وأكبر من كل شيء، وهذا قد جرب، ولكن لا يلزم أن يصح من كل أحد.

والتكبير عند المرتفعات، للعلم بأن المرتفع فوقه من رفعه، والله أرفع من كل شيء، وأعظم من كل شيء، ولهذا شرع ما يقابله من التسبيح، إذا هبط الإنسان في منخفض يقول: سبحان الله، يعني سبحان الله أن يكون منخفضًا أو في مكان منخفض، كما سبق الإشارة إلى هذا.

قوله تعالى: ﴿دَاخِرِينَ﴾ يعني ذليلين حقيرين، فالذين يستكبرون عن عبادة الله جل وعلا، يكون هذا جزاؤهم، يدخلون جهنم وهم أذل من الذر، ولهذا المتكبرون يوم القيامة يحشرون أمثال الذر يطؤهم الناس

---

(١) أخرجه مسلم (١٢١٨) عن جابر بن عبد الله ﭬ في حديث حجة النبي ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٥) من حديث ابن عمر ﭬ.

(٣) أخرجه مسلم (١٣٤٢) عن عبد الله بن عمر ﭬ.

(٤) أخرج ابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٨٩ ـ ٢٩٤)، والطبراني في الدعاء (١٠٠٢، ١٠٠٣)، والعقيلي في الضعفاء (٢١٩) وابن عدي في الكامل (٢/ ٢١١)، عن عبد الله بن عمرو ﭬ، أن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيتم الحريق فكبروا فإنه يطفئه**»، وفيه راوٍ كذاب. انظر: السلسلة الضعيفة (٢٦٠٣).

(٥) أخرجه البخاري (٦٠٨) ومسلم (٣٨٩) من حديث أبي هريرة ﭬ

وكل من استكبر عَن عبَادَة الله لَا بُد أَن يعبد غَيره، فَإِن الإِنْسَان حساس يَتَحَرَّك بالإرادة.

وقد ثَبت فِي الصَّحِيح عن النَّبِي ﷺ أنه قال: «**أصدق الأَسْمَاء حَارِثٌ وهَمَّام**»[١].

فالحارث: الكاسب الفَاعِل، والهمّام: فعّال من الهمّ، والهمّ أول الإِرَادَة، فالإنسان لَهُ إِرَادَة دَائِماً، وكل إِرَادَة فلَا بُد لَهَا من مُرَاد تنتهي إليه.

بأقدامهم، وهذا من أول العذاب الذي يصيبهم في الموقف، والجزاء يكون من جنس العمل، يعني مقابل ما كانوا يترفعون على عباد الله ويتكبرون عليهم، ظهر ذلهم ظاهرًا يشاهده أهل الموقف كلهم.

قوله: «**حساس**» أي عنده الإحساس، ومعنى يتحرك بالإرادة: أي عنده إرادة ومقدرة، والإحساس: عبارة عن المقدرة التي يتصرف فيها، والإرادة: عبارة عن القلب والإرادات والأمور التي تصدر من قلبه وتتحكم بجوارحه.

قوله ﷺ: «**أصدق الأَسماء حارثٌ وهَمَّام**» كانا أصدق الأسماء لأنهما يوافقان وضع الإنسان، فالإنسان همام، أي عنده الهم، وهو حارث أي عامل، فالحرث عبارة عن العمل، والهم عبارة عن الإرادات، والهم لا يحصل إلا بالإرادة. لكن أفضل الأسماء وخيرها ما عُبد أو حُمد، عبد الله وعبد الرحمن وعبد العزيز ونحوها، لأنه عبد في الحقيقة.

قوله: «**كل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه**»، هذا على مذهب أهل السنة، أن كل فعل له إرادة، بخلاف ما يقوله الأشاعرة أن الإرادة

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٠٣٢)، وأبو داود (٤٩٥٠)، من حديث أبي وَهْبٍ الجُشَمي ﷺ.

فَلَا بُد لكل عبد من مُرَادٍ مَحْبُوب هُوَ مُنْتَهى حبه وإرادته.

في الأمور كلها واحدة، وشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ يتكلم الآن في إرادة المخلوق، وهم يتكلمون في هذا يعني بإرادة الله جل وعلا، يقولون: إن كل مراد لله له إرادة، ولكن إذا حقق الأمر أصبحوا يَرجعون الأمورَ كلَّها إلى شيء واحد.

فالمقصود أن هذا شيء مدرك ومشاهد بالنسبة للمخلوق، أنه إذا تجدد له همّ وإرادة تجدد له الفعل، وهذا يختلف باختلاف ما يحدث له من الإرادات القلبية، ويتبعها الفعل الذي يريد به حصول هذا الشيء الذي أراده.

وبهذا يَعلم الإنسان أنه لا داعي إلى أن ينطق بالإرادة، ويقول: أنا أردت أن أفعل كذا وكذا، لأن الذي بعثه على هذا الفعل، هو الإرادة، فمثلًا يأتي الإنسان إلى المسجد، فإذا وقف في الصف قال: اللهم إني أريد أن أصلي صلاة كذا وكذا، هذا عبث! لأن الذي أثاره للوضوء ثم جاء به إلى المسجد هي الإرادة، فهل يريد أن يُعلم ربه بأنه يريد أن يفعل كذا وكذا؟! الله علام الغيوب يعلم ما في قلبه، فنطق الإنسان بما يريد يدل على أنه لم يَتصور الإرادة ما هي، لأن الإرادة هي التي بعثته على العمل.

قوله: «**فلا بد لكل عبد من مرادٍ محبوب هو منتهى حبه وإرادته**» إذا كان الله جل وعلا أراد بالعبد السعادة، فلا بد له أن تكون غاية إرادته ومحبوبه هي حب الله الحب الذي يقتضي العبادة والذل لله جل وعلا، يعني حب التأله، وليس الحب الذي يكون للمخلوق، أو يكون لأجل انتفاع بشيء، فحب التأله هو حب عبادة لا يمكن أن ينتهي، ولا يمكن أن يشاركه فيه غيره، فهذا الذي تحصل به السعادة، ثم كل مراداته وكل تصرفاته يجب أن تكون تبعًا لهذا.

فمن لم يكن الله معبودَه ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذَلِك، فلَا بُد أَن يكون لَهُ مُرَادٌ مَحْبُوب يستعبده غيرَ الله، فيكون عبداً لذَلِك المُرَاد المحبوب، إِمَّا المَال، وإِمَّا الجاه، وإِمَّا الصُّوَر، وإِمَّا مَا يَتَّخِذهُ إِلَهاً من دون الله، كالشَّمْسِ والقَمَر والكَوَاكِب والأوثان، وقبور الأَنْبِيَاء والصَّالِحِينَ، أَو من المَلَائِكَة والأنبياء الَّذين يتخذهم أَرْبَاباً، أَو غير ذَلِك مِمَّا عُبد من دون الله.

والناس يتفاوتون في هذا تفاوتًا عظيمًا، فمنهم من يأخذ منه نصيبًا كبيرًا، ومنهم من يكون غافلًا عن ذلك، ولكنه إذا تحققت له الأمور، تبين له أن هذا المراد، غير أنه قد يكون عنده سهو وغفلة، ولهذا يحصل له شذوذ وانحراف عن هذا المقصود، ولا يتنبه لهذا إلا إذا جاءه ما ينبهه، إما أن يقع في شدة، أو يقع في حاجة شديدة تَلفته إلى الحق، وهذا قد يكون من سعادته ومن فضل الله عليه.

قوله: «**فمن لم يكن الله معبودَه ومنتهى حبه وإرادته**» عبادة غير الله ملأت الأرض قديمًا وحديثًا، والناس فيها يختلفون، فمنهم من تكون عبادته لهذه الأشياء جزئية ويكون عنده شرك، ومنهم من تكون عبادته لها كلية، ويكون منصرفًا عن عبادة الله، والله جل وعلا لا يقبل الشرك في ذلك، فإذا حصل في العبادة اشتراك بين الله جل وعلا وبين الخلق، فسدت العبادة، فالعبادة الشرعية هي التوحيد، أن تكون العبادة لواحد فقط، وهو الله تعالى.

ولهذا أخبر الله جل وعلا في سورة الكافرون بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون: ١-٣]، هل كانوا ما يعبدون الله؟ بل كانوا يعبدون الله، ولكن يعبدون معه غيره، فلما كانوا يعبدون معه غيره، صارت عبادتهم كأنها لا وجود لها، لأن الله لا يقبل الاشتراك في العبادة، ولهذا جاء عن ابن

وإذا كانَ عبداً لغير الله يكون مُشْركاً، وكل مستكبر فهُوَ مُشْرك، ولِهَذَا كَانَ فِرْعَوْن من أعظم الخلق استكباراً عن عبَادَة الله.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾، إلى قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾﴾ [غافر: ٢٣ ـ ٢٧].

عباس رضي الله عنهما قوله: «كل عبادة في القرآن يقصد بها التوحيد»، يعني أن تكون لله وحده لا اشتراك فيها، وإلا إذا وجد الاشتراك فالعبادة باطلة، والله جل وعلا لا يقبل الشرك.

فلا بد من الإخلاص في العبادة، وهو شرط كما سبق، شرط في قبول العمل، وفي اعتبار العبادة عبادةً، فلا تسمى العبادةُ عبادةً في الشرع، إلا إذا كانت خالصة، أما في اللغة فتسمى عبادة، ولكن في الشرع فالعبادة دون إخلاص غير مقبولة وغير معتبرة، لأن العبادة في اللغة من الذل والخضوع، وكونه ذل وخضع لشيء معناه أنه عبده.

قوله: «**وكل مستكبر**» أي عن العبادة، فإذا استكبر عن عبادة الله «**فهو مشرك**» ولا بد، ولو أشرك نفسه، كيف تكون نفسه شريكة لله؟ نقول: نعم، مثل ما قال الله جل وعلا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجَاثيَة: ٢٣]، بمعنى أنه صار هواه مقدمًا أو أنه معتبر مع طاعة الله واتباع رسوله ﷺ، وإن كان بعض المفسرين يقول: يكون إلهه هواه، أي إذا هوي شيئًا فعله بدون مبالاة من أنه حرام أو ممنوع، فلا يمنعه نهي الله أن يفعل المحرم، ولا يستحثّه أمر الله أن يفعل ما أمره الله جل وعلا به، فهو مقدِّم مراداته على مراد الله جل وعلا، فهذا عَبَد هواه، وهذا كثير جدًّا في الناس، ولكن منهم مستكثر ومستقل.

قوله تعالى: ﴿مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾ هذه صفة فرعون، أنه تكبر وتجبر

إلى قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [العنكبوت: ٣٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ﴾ [القصص: ٤].

وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، يقوله يخاطب به الناس، وإن كان هذا كذبًا، فلا أحد لديه عقل، إلا ويعلم أن ربه الله، لكن عند الغطرسة وقلب الحقائق، والاستعلاء بالكبر وبالظلم والعدوان قد يخضع الإنسان لمن هذه صفته، إما طمعًا أو خوفًا.

والطمع يكون لمن له مصالح، كالوزراء والكبراء الذين يكونون معه، هم يقولون بقوله، بل هم يبحثون عن الأمور التي تصلح له وترضيه، مثل ما قال أقرباء فرعون من وزرائه: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، هكذا قالوا! يقترحون لفرعون هذا قبل أن يقول هو لهم! فهم رأوا أن هذا يرضيه ويصلح له.

وهكذا سنة الناس، كثير منهم بهذه الصفة، إذا رأوا مثلًا رئيسهم وكبيرهم على نهج، صاروا يبحثون عن الذي يرضيه ويصلح له فيأتون به، وإلا فهل كان موسى يفسد في الأرض! وهل كان فرعون يصلح! لولا أن الأنظار انقلبت، والأمور والحقائق قلبت، والكذب الظاهر هو الذي يطرح في مثل هذا.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ﴾ الطبع معناه أنه لا يدخله الخير ولا يدخله الإيمان، والطبع أضيف إلى الله جل وعلا في الآية بمعنى أنه يعاقبه بذلك نظير ما تكبر وتجبر.

معنى قوله: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ أي جعلهم فِرَقًا، فرقة تواليه

....

وتناصره وتكون مقربة لديه، وفرقة يعاديها ويجعلها تحت أوامره ويشقيها في الأعمال التي يطلبها منهم، هكذا صنعوا بعباد الله، لهذا لما قال فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا﴾ [الشُّعَرَاء: ١٨]، يعني ربيناك وأنت صغير في بيتنا، فقال له موسى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٢٢]، ومعنى عبدت بني إسرائيل أي جعلتهم كلهم عبيدًا لك، تمنّ علي بنعمة واحدة، برجل واحد أنعمت عليه! مقابل أنك جعلتَ أمة كاملة عبيدًا لك! فتذكر هذه وتنسى تلك!.

وقوله: ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ كان فرعون يذبح الذكور، ويترك الإناث، ولما شكا إليه قومه أنه يوشك ألا نجد عمالًا، لأنهم كانوا يستعبدون بني إسرائيل استعباد البهائم، ويوسعونهم ضربًا، ويسخّرونهم في العمل بالسياط التي تلهب الظهور، فقال له قومه: ما دمت تقتل الأولاد، فحين يموت الكبار لا نجد عمالًا، فاقترحوا عليه أن يقتلهم سَنَةً، ويُبقيهم السنة التي بعدها، وفعل هذا من أجل السخرة والعمل، لا لأنه رأف بهم.

وسبب قتله الذكور أنه قالت له كهنته وأتباعه ومن يزين له الباطل: إننا نجد أن زوال ملكك على يد رجل من بني إسرائيل، فصار يقتل الصبيان، ويترك البنات، فولد هارون في السنة التي لا يقتل فيها الأولاد، وولد موسى في السنة التي يقتل فيها الأولاد، فخافت عليه أمه وأَخْفَتْه.

فأوحى الله جل وعلا إلى أمه، أي ألهمها أنها إذا خافت عليه أن ينكشف أمره أن تجعله في تابوت، أي صندوق من الخشب، وتلقيه في النيل، فذهب حاشية فرعون ببيته يتفرجون على نهر النيل فوجدوا هذه الخشبة تعوم على جانب النيل، فأخذوها ففتحوها فوجدوا الصبي، فقال

. . . .

فرعون: اقتلوه، فقالت امرأته: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القَصَص: ٩]، فصار قرة عين لها فقط، لأنه جاء في التفسير أنه لما قالت هذا قال: قرة عين لك وأما أنا فلا.

فاقتضت حكمة الله أنه عاش في بيت فرعون، يأكل من طعامه ويعيش معه، حتى بلغ أشده وكَبِرَ، وكان من حكمة الله جل وعلا أن يتولى الرسول رعي الغنم قبل أن يرعى بني آدم، فحدثت الحادثة التي قصها الله علينا، وجد موسى إسرائيليًّا وقبطيًّا يتخاصمان، فاستغاثه الإسرائيلي، فضرب موسى القبطي بيده، ولم يرد أن يقتله، ولكن موسى كان ببدنه قوة، فضربه فقضى عليه ومات.

ثم من الغد وجد موسى هذا الرجل الإسرائيلي في خصام مع آخر، فقال له موسى: إنك شقي، وإنك لا تريد إلا الشقاوة والمخاصمات، فخاف أنه يضربه فيقتله مثل ما قتل الرجل القبطي، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القَصَص: ١٩]؟ فسمع الناس ذلك، وكانوا يبحثون عمن قتل الرجل السابق، فعرفوا من قتله.

فجاءه الرجل الذي ذكر الله أنه جاء يسعى، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القَصَص: ٢٠]، فخرج إلى بلاد مدين، وبقي يرعى الغنم كما ذكر الله، ثم أتاهم مرسلًا من الله ﷻ.

فكل ما وقع كان حكمة من الله، انظر كيف أن الشيء الذي خافه فرعون مع خبثه وحرصه، تربى في بيته، فصار عدوًّا له وحَزَنًا، كما قال الله جل وعلا: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القَصَص: ٨]، واللام في قوله ﴿لِيَكُونَ﴾ هي لام العاقبة.

وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤﴾ [النمل: ١٤]، ومثل هَذَا في القُرْآن كثير.

وقد وُصف فِرْعَوْن بالشرك في قَوْله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

بل الاستقراء يدل على أنه كلما كانَ الرجل أعظمَ استكباراً عن عبَادَة الله، كانَ أعظمَ إشراكاً بالله، لأَنَّهُ كلما استكبر عن عبَادَة الله ازْدَادَ فقراً وحاجة إلى المُرَاد المحبوب الَّذِي هُوَ المَقْصُود: مَقْصُودُ القلب بالقَصْدِ الأول، فيكون مُشْركاً بِمَا استعبده من ذَلِك.

وقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ يعني أنهم استيقنوا أن موسى رسول من عند الله، وأن هذه الآيات التي جاء بها آيات من الله، لا يمكن لبشر أن يأتي بمثلها، عصًا طبيعية مأخوذة من الشجر يمسكها بيده، ثم إذا ألقاها صارت حية عظيمة تلتهم كل ما أمامها ولا تتغير!

ولهذا لما جاء السحرة بالحبال والعصي التي ملؤوها بالزئبق وجاؤوا بالحيل، وصار الوادي كله حيات تسعى في منظر العين، قال الله جل وعلا له: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۝١١٧﴾ [الأعراف: ١١٧]، فالتهمت كل هذه الحيات، هل هذا بمقدور أحد من البشر ساحر أو غيره؟ ولهذا السحرة الذين يعرفون السحر، عرفوا أن هذا حق وأنها آية، فسجدوا لله، خاضعين مؤمنين بالله جل وعلا.

قوله: «**الاستقراء**» معناه التتبع، استقراء الشيء: أن تَتَبَّعه وتسبُره حتى تجد الحقيقة، فالاستقراء يدل على أنه كلما كان الرجل أعظمَ استكبارًا عن عبادة الله كان أعظم شركًا، وأعظم الشرك شرك فرعون، الذي يقول: أنا إلهكم، أنا معبودكم، ما علمت لكم من إله غيري، فيموه على الناس، وهو يعلم بحقيقة قلبه أنه كاذب.

....

كمثل ما يذكر عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قاله لمسيلمة لما ذَكر له شيئًا من قرآنه الكذب الذي لا ينطلي على عاقل، إذ مر عمرو بمسيلمة في اليمامة بعد ما تنبأ، وكان صديقًا له في الجاهلية، فقال له مسيلمة: ما أُنزل على صاحبك؟ فقال له: أُنزلت عليه سورة وجيزة عظيمة! قال: ما هي؟ قال: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهُمَزة: ١-٣]، ففكر مسيلمة ثم قال: أنا أُنزل علي مثلها، قال: ما هي؟ قال: يا وَبْرُ يا وَبْر، إنما أنت أُذُنانِ وصَدْر، وسائرك حَقِرٌ نَقِر، كيف ترى يا عمرو؟ قال: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك كاذب[1].

أي إن هذا ما يحتاج إلى تفكير، أنت نفسك تعلم أني أعلم أنك كاذب، هذه خزعبلات، وتُعارض به كلام الله جل وعلا! هذا عند المشركين، فكيف عند من يؤمن بالله ويؤمن بكتابه.

فحاشية فرعون كلهم يعلمون في قرارة أنفسهم أنه يعلم حقًّا أنه كاذب، ولهذا لما عاين الموت وأدركه قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فقيل له: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١]؟! الآن ما ينفعك، فلو كان قبل! أما الآن وقد انقطعت حياتك وعاينت الموت فلا يفيدك الرجوع والإقرار، ولهذا قال الرسول ﷺ: «**إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**»[2]، أي يعاين

---

(١) روى القصة بنحوها الخطابي في رسالته في إعجاز القرآن ص٥٦، من طريق سعيد بن نشيط أن النبي ﷺ أرسل عمرو بن العاص رضي الله عنه إلى البحرين.. والخبر مع إرساله فإن سعيد بن نشيط مجهول لا يعرف! انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني.

(٢) أخرجه أحمد (٦١٦٠)، والترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

ولن يَسْتَغْنِيَ القلب عن جَمِيع المخلوقات إِلّا بِأَن يكون الله هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يعبد إِلّا إِيَّاه، ولَا يَسْتَعِين إِلّا بِه، ولَا يتوكل إِلّا عَلَيْه، ولَا يفرح إِلَّا بِمَا يُحِبه ويرضاه، ولَا يكره إِلّا مَا يُبغضه الرب ويكرهه، ولَا يوالي إِلَّا من وَالَاهُ الله، ولَا يعادي إِلّا من عَادَاهُ الله، ولَا يحب إِلَّا لله، ولَا يُبغض شَيْئاً إِلَّا لله.

الملائكة وتنتهي حياته، فإذا عاين الموت وانتهت حياته فما يقبل منه توبة ولا رجوع.

قوله: «**ولن يستغني القلب عن جميع المخلوقات..**» هذا يحصل لبعض عباد الله، لا لكل مسلم أو كل مؤمن، لأن الإيمان يتفاوت تفاوتًا عظيمًا، فهناك إنسان يكمل عنده الإيمان ويكون بهذه الصفة، وهناك إنسان يعتريه ما يعتريه من النقص، فإذا اعتراه النقص فليس معنى ذلك أنه لا يكون مؤمنًا، ولكن ما يدرك الدرجات العليا، ولا يصل إلى حقائق الإيمان التي وصل إليها الكمّل من عباده.

فتأمل مثلًا حارس رسول الله ﷺ، لما رجع من غزوة ذات الرقاع، وصار في مكان يريد النوم، يبيتون فيه، قال ﷺ: «**من رجلان يكلآنا في ليلتنا هذه من عدونا**»، فقال رجل من الأنصار ورجل من المهاجرين: نحن نكلؤك يا رسول الله، فعيّن لهما ﷺ مكانًا من الشِّعب يكونان فيه، فلما صارا فيه قال الأنصاري للمهاجري: ما الداعي إلى أن كلانا يبقى يقظًا، إما أن تكفيَني أولَ الليل وأكفيَك آخِرَه، أو تكفيَني آخرَه وأكفيَك أوله، فقال المهاجري: بل اكفني أوله، وأكفيك آخره، فنام المهاجري وقام الأنصاري يصلي فافتتح سورة من القرآن، لا يتركون الوقت يذهب سدًى ﷺ، وما يذهب عليهم وقت بدون عبادة، فلا يحرس ويجلس، بل يحرس ويصلي، فقام يصلي.

فجاء مشرك قد أصيبت زوجته، وأقسم ألا يرجع حتى يصيب في

. . . .

أصحاب محمد دمًا، فجاء وشاهد الرجل يصلي، فأطلق عليه السهم، فوقع السهم في بدنه، فأزاله واستمر يصلي ويقرأ السورة التي هو فيها، ولم يتحرك كراهية أن يقطعها، ثم أطلق السهم الثاني، فأزاله واستمر يقرأ، ولما أصابه الثالث انتزعه، ثم ركع فسجد، ثم أيقظ صاحبه، فلما وجد صاحبه الدم يسيل، قال: سبحان الله! لماذا لم توقظني من أول الأمر؟ قال: كنت في سورة من القرآن، فكرهت أن أقطعها، وايم الله لولا أني خفت أن أضيع ثغرًا أمرني به رسول الله ﷺ بحفظه لقطع نفْسي قبل أن أقطعها[1].

كيف هذا؟ تحمل رضي الله عنه الألم والضرب والدماء التي يسيل لوجود لذة الخطاب، وتلاوة الآيات، يقول: ما أردت أن أقطعها قبل أن أنتهي منها.

فمثل هذا هل يقارن بمن يقرأ القرآن مجرد تلاوة فقط، من دون أن تصل المعاني إلى قلبه؟ فبين هذا وهذا تفاوت، وبينهما أيضًا أعمال كثيرة، والناس درجات، ولهذا صارت الجنة درجات متفاوتة، وكلٌّ يسكن الدرجة التي تناسب عمله وإيمانه، فكلما كان الإيمان أقوى وأتم، صار العمل كذلك، والمنزلة هكذا، والله عليم حكيم، فاوَتَ بين عباده بهذه الأشياء.

فالمقصود أن الذي لا يستغني عن ربه جل وعلا طرفة عين، ولا تلذ حياته إلا بعبادته، والركون إليه، والتوكل عليه، والاستعانة به، فهذا المؤمن الكامل، وإلا فكثير من المؤمنين تغطي عنده هذه المعانيَ إما أعمال تؤثر على إيمانه، من محابّ الدنيا وغيرها وقد لا تظهر، أو ذنوب

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٧٠٤، ١٤٨٦٥)، وأبو داود (١٩٨)، من حديث جابر رضي الله عنه.

فكلما قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المَخْلُوقَات، وبكمال عبوديته لله تكمل تبرئته من الكبر والشرك.

والشرك غَالب على النَّصارَى، والكبر غَالب على اليَهُود.

قال تعالى في النَّصارَى: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، وقال في اليهود: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البَقَرَة: ٨٧].

تتراكم وتكون مانعة حائلة بينه وبين أن يصل إلى مثل هذه الحال.

قوله: «**الشرك غالب على النصارى**»، لأنهم جهلة يعبدون بلا علم، أما اليهود ففيهم علماء وعندهم علم، ولكن عندهم إباء وتكبر وعدم انقياد للحق، وهذا الغالب. وترى في أمتنا هذه الصفات، لأننا أخبرنا نبينا ﷺ أننا نتبع من سبقنا من الأمم، فقيل له: اليهود والنصارى؟ قال: «**فمن؟!**»[(١)].

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾ الأحبار هم العلماء، مأخوذ من الحبر، لأن أصل العلم هو بالكتابة، كما قال الله جل وعلا: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾﴾ [العَلق: ١-٤]، فأصل التعليم بالقلم بالكتابة، فسمي حبرًا، لأن أصل علمه ووصوله إلى معلوماته بالحبر الذي هو مادة الكتابة.

أما «الرهبان» فهم العُبّاد، من الرهبنة وهي الذل والعبادة لله جل

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦) ومسلم (٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦].

وعلا، والغالب أن الرهبان في النصارى، والأحبار في اليهود، هذا هو الغالب، فاليهود لديهم علم، ولكنهم أهل كبر وعناد، والنصارى فهم أهل تعبّد ولكنه تعبد بجهل.

قوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ هذا دليل على أن الإنسان يفعل ذلك باختياره ومقدوره، أي يرى الحق حقًّا ويعرف أنه حق، فلا يتبعه ولا يريده، ويرى الباطل ويعرف أنه باطل، ويريده ويتبعه ويحبه، فالله جعل للإنسان إرادة، ويَتْبع الإرادةَ القدرة، فإذا وجدت الإرادة والقدرة لا بد أن يوجد المراد.

فبهذا يتبين أن الإنسان مخلوق وعمله مخلوق، لأن الإرادة والقدرة مخلوقتان لله جل وعلا، غير أن الاختيار جعل للإنسان، أي جعل له قدرة خلقها الله فيه، وإرادة خلقها الله فيه، ثم قيل له: هذا طريق الخير، وهذا طريق الشر، فإن فعلتَ الخير جزيت أفضل منه، وإن فعلت الشر جزيت به، والأمر إليك، ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، هذا بعد الإيمان وبعد مجيء الرسول، وبعد إقامة الحجج وإظهار البينات، فبهذا استحق الإنسان إما الثواب أو العقاب.

وليس كما يقول أهل الضلال، الذين انقسموا في هذا إلى قسمين متقابلين تمامًا، قسم قالوا: إن الأمر كله إلى الإنسان، هو الذي يخلق فعله، وهو الذي يكفر ويؤمن، دون أن يكون لله عليه منّة أو فضل، وقسم قالوا: إن الإنسان بمنزلة الآلة التي تدار، وكلا هذين القولين، باطل على الإطلاق.

ولما كانَ الكبر مستلزماً للشرك، والشرك ضد الإِسْلَام، وهُوَ الذَّنب الَّذِي لَا يغفره الله ـ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: ٤٨]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء: ١١٦] ـ كانَ الأَنْبِيَاء جَمِيعُهم مبعوثين بدين الإِسْلَام، فهُوَ الدِّين الَّذِي لَا يقبل الله غَيرَه، لَا من الأَوَّلين، ولَا من الآخرين.

قوله: **«كان الأنبياء جميعهم مبعوثين بدين الإسلام»** الإسلام معناه: التسليم لله، والاستسلام له بالطاعة والانقياد له، فهذا الدين الذي بعثت به الرسل، ودينهم كلهم واحد، وإن كانت شرائعهم مختلفة، أما أصل الدين الذي هو عبادة الله فلا يختلف، فكل الرسل جاؤوا به، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المائدة: ١١٧]، لم يقل رسول منهم: اعبدوا الله واعبدوا جبريل، أو اعبدوا فلانًا وفلانًا! أبدًا، من أول الخليقة إلى أن تنتهي، فالدين واحد من ناحية العبادة.

أما من جهة الأوامر والشرائع، فهي قد تختلف، فالله له أن يحكم بما يشاء، وله أن يثبت ما يشاء، ويمحو ما يشاء، من الأوامر التي قد يكون فيها شيء من الزيادة على قوم، ولهذا فهذه الأمة خفف عنها كثيرًا، قال رسول الله ﷺ، إن هذه الملة حنيفية في العبادة والدين نحو هذا الكلام، وسمحة في العمل سهلة.

وقال الله جل وعلا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهذا يقوله عندما يشرع الشرائع، ذكر هذا في الصوم، وذكر أن المريض والمسافر خفف عنهما، وأنهما لها أن يفطرا ويصوما أيامًا أخرى ليست من رمضان، وكذلك في النكاح، أنه يجوز للإنسان أن

قال نوح: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [يونس: ٧٢]، وقال في حق إبراهيم: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣١]، إلى قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢]، وقال يوسف: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال موسى: ﴿يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤].

وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]، وقال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣].

يتزوج الأَمَةَ إن لم يجد الطَّوْل للحرة.

ثم في النهاية قال: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [النساء: ٢٦]، فهذه إرادة دينية شرعية، أي فيها التيسير والتسهيل، وهذه الإرادة لا تشمل غير المسلمين، بل لمن قَبِلَ الدين فقط، ومن هنا قال العلماء: إن إرادة الله تنقسم إلى قسمين: إرادة كونية قدرية، وإرادة دينية علمية شرعية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ كل هذا يدل على أن الإسلام هو الانقياد لله جل وعلا، وطاعته والاستسلام له،

فذكر إِسْلَامَ الكائنات طَوْعاً وكرهاً، لِأَن المَخْلُوقَاتِ جَمِيعهَا متعبّدةٌ لَهُ التَّعَبُّدَ العَام، سَوَاءٌ أقرّ المقر بذلك أَو أنكره.

والاستسلام لا يزال الناس يستعملونه، أي لا يكون عنده أيّ إباء وأيّ اعتراض، بل استسلم وانقاد وأطاع، ولهذا كان هذا هو الذي أمر الله جل وعلا به عباده كلهم، والإسلام يدخل فيه الدين كله.

قوله: «**فذكر إسلام الكائنات..**» استسلام الكائنات استسلام قهر، وكون وقدر، وإن كانت ليست مكلفة، فهي مطيعة لله جل وعلا، منقادة له، لا يمكن أن تتأبى عليه، فكل الكائنات منقادة لله جل وعلا، وقد يكون مع هذا أيضًا عبادة منها وإن لم تكن كلفت بذلك، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم: ٩٣]، وأخبر أنها كلها تسبح بحمده، كل من في السماوات والأرض يسبحون، ولكن لا نفقه تسبيحهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

والصحيح من أقوال العلماء أن التسبيح بلسان المقال، وليس بلسان الحال، وبعضهم يقول: تسبيح الكائنات بلسان الحال، بمعنى أن العاقل إذا نظر إليها صارت دليلًا على وجوب عبادة الله، والصحيح خلاف هذا، أنها هي نفسها تسبح.

ولهذا ثبت أن الصحابة كان يسمعون تسبيح الطعام وهو يؤكل عند رسول الله ﷺ[١]، وتسبيح الحصى[٢]، والجذع كان يحن[٣]، والحَجَر

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٧٩) والترمذي (٣٦٣٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (١٢٤٤، ٤٠٩٧) وفي مسند الشاميين (١٨٣٧، ٣١٩٨) والبزار في مسنده (٣٤١٧، ٣٤١٩)، من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٩١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وأخرجه أيضاً (٣٥٨٣) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

....

كان يسلم على النبي ﷺ، يقول: السلام عليك يا رسول الله[1]، وقد أخبر الله جل وعلا أن الجبال كانت تسبح مع داود عليه السلام، وغيرها.

وذكر الله جل وعلا أشياء تتكلم، مثل أعضاء الإنسان، قال الله جل وعلا: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٠ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖۚ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٢١ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ۝٢٢﴾ [فصلت: ٢٠ ـ ٢٢].

فأعضاء الإنسان تشهد عليه وتتكلم، وتنطق بالنطق الذي يعرفه هو وغيره ويسمعه، فهذا يجب أن نفهمه على ظاهره، وكذلك الكائنات تسبح حقيقة ولكن لا نعرفه، وما من مخلوق من مخلوقات الله المتحركة والجامدة إلا وهي تخضع لله وتعبده.

وذكر الله جل وعلا شيئًا من هذه النماذج، في قصة سليمان عليه السلام، علّمه الله منطق الطير، وسمع كلام النملة وفيه الفصاحة والبلاغة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا﴾ [النمل: ١٧ ـ ١٨]، قول فصيح بليغ، وفيه الاتقاء من الخطر، خطر كونهم يحطمونهم.

وكذلك الهدهد لما تفقد سليمان الطير لم يَجِدْه، فسأل عنه، فقالوا: هو غائب، فتوعده ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابٗا شَدِيدًا أَوۡ لَأَاْذۡبَحَنَّهُۥٓ أَوۡ لَيَأۡتِيَنِّي بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝٢١﴾ [النَّمل: ٢١]، أي ببرهان ودليل، فجاءه يقابله بجرأة بكلام عجيب ومنطق فصيح، ﴿فَمَكَثَ غَيۡرَ بَعِيدٖ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ وَجِئۡتُكَ مِن

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنهما.

وهم مَدِينون لَهُ مدبَّرون، فهم مُسلمُونَ لَهُ طَوْعاً وكرهاً، لَيْسَ لأحد من المَخْلُوقَات خُرُوج عَمَّا شاءه وقدره وقضاه، ولَا حول ولَا قُوَّة إِلَّا بِهِ، وهُوَ رب العَالمين ومليكهم، يصرفهم كَيفَ يَشَاء، وهُوَ خالقهم كلهم، وبارئُهم ومصوِّرُهم، وكل مَا سواهُ فهُوَ مربوب مَصْنُوع مفطور، فَقير مُحْتَاج معبَّد مقهور، وهُوَ سُبْحَانَهُ الوَاحِد القهار الخَالِق البارئ المصور.

وهُوَ وإِن كانَ قد خلق مَا خلقه بِأَسْبَاب، فهُوَ خَالق السَّبَب والمقدِّرُ لَهُ، وهَذَا مفتقر إِلَيْهِ كافتقار هَذَا، ولَيْسَ في المَخْلُوقَات سَبَب مُسْتَقل بِفعلِ خير، ولَا دفع ضرّ، بل كل مَا هُوَ سَبَب فهُوَ مُحْتَاج إِلَى سَبَبٍ آخَرَ يعاونه، وإِلَى مَا يدْفع عَنهُ الضِّدّ الَّذِي يُعَارضهُ ويمانعه.

سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٢ ـ ٢٤] إلى آخره، ثم جعله رسولًا أرسله بكتاب، وصار داعية إلى التوحيد.

إذن فالأشياء عندها عبادة لله جل وعلا، وعندها شعور، سواء كانت حية أم غير حية، ويذكر عن الهدهد أنه أراد أن يمزح مع سليمان، فقال له: يا نبي الله، أريد أن أغديك أنت وجنودك، فقال سليمان: أنت تغدينا؟! قال: نعم بشرط أن يكون في الجزيرة الفلانية التي في البحر، فقال: لا بأس، لا مانع، فذهب هو وجنوده، ووصلوا المكان، ذهب الهدهد يأتي بالغداء فأحضر جرادة، يمسكها بمنقاره، فغمسها في البحر أمام سليمان، وقال: يا بني الله من يفوته اللحم لا يفوته المرق، هذا غداؤكم، يقال: فبقي سليمان يضحك عامًا حين يتذكر هذا، فكل هذا يدل على أنه لها عقل ولها فكر.

قوله: «**وهم مدينون له..**» في هذا المقطع ذكرُ الربوبية العامة، والحكمِ الكوني القدري العام، الذي لا يخرج عنه شيء، سواء كان

وهُوَ سُبْحَانَهُ وحده الغني عن كل مَا سواهُ، لَيْسَ لَهُ شريكٌ يعاونه، ولَا ضدٌّ يناوئه ويعارضه.

عاقلًا أم غير عاقل، وهذا لا اختيار للمخلوق فيه، ولهذا لا يثاب على ذلك إلا إذا صار عنده نية صالحة في هذا، وقصد في ذلك طاعة لله جل وعلا واستسلام له، أما كون هذه الكائنات تجري على وفق تقديره ومشيئته فلا دخل للخلق في ذلك، سواء رَضُوا أم سخطوا، فهو جل وعلا المدبر لكل شيء.

ولكن بعض الناس قد لا يعقل هذا ولا يستشعر به، فيصبح متعلقًا بالأسباب، وينظر إلى الأسباب أنها هي التي صار بها كذا وكذا، وقد يكون هذا قريبًا أو بعيدًا، لهذا تجد كثيرًا من الناس يعتمد على الشيء الذي يتصرف فيه، فإذا وقع في أمر مقدر وجدته إما يلوم نفسه أو يلوم الآخرين الذين كانوا جزءًا من السبب أو بعض السبب، وربما غضب غضبًا شديدًا، ووجدته يلعن ويشتم، مع أنه لا دخل للناس في هذا.

غير أن الأسباب التي يتسبب فيها الإنسان هو مسؤول عنها، ويجب أن يسأل عن ذلك، ولهذا نقول: إن ما تقوله طائفة الجبرية التي ترى أن الإنسان مدبَّر، خطأ ظاهر، ولا يمكن أن تستقيم وتسير هذه الحياة وهذا الكون على وفق هذا المذهب، لأنهم يجعلون الإنسان العاقل الذي يتصرف غير مسؤول عن تصرفاته، مع أن الإنسان مسؤول ولا بد، فهذا شيء فطر الله جل وعلا عليه الخلق، حتى الصغار، فالولد الصغير إذا ضربه أحد فبكى، فتقول: اسكت، لم يضربك أحد، ما يقتنع، لأن الله جل وعلا فطر الخلق على أن كل أثر له مؤثر ولا بد.

فلا بد أن يؤخذ الإنسان بفعله، بغض النظر عن كون المدبِّر للأصل والمقدر هو الله جل وعلا، فإن كانت الأمور جرت من غير عاقل مكلف فهذا أمر معلوم، أما إن كانت بفعل عاقل مكلف، فلا بد أن يسأل عن

قال تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزُمَر: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنعام: ١٧].

أفعاله وإن كان هو السبب أو جزءًا من السبب.

ثم يجب أن يكون التعلق بالله جل وعلا، وأن نعلم أن الله جل وعلا هو المدبر لكل شيء، وهو المصرف لكل حركة وسكون، فهذا يدخل في الإيمان بالقدر، بأقدار الله جل وعلا، ولا ينافي النظر إلى السبب.

ولهذا أُمرنا بفعل السبب الذي جعله الله سببًا، وأمرنا ألا نعتمد عليه، بل نعتمد على ربنا جل وعلا، فلا بد من الجمع بين هذا وبين الأمر الشرعي، فنجمع بين الأمر القدري، وننظر إلى السبب على أنه سبب، وليس هو الذي يعتمد عليه في الشيء الذي يقع أو لا يقع، ثم نوفق بينه وبين الشرع الذي أُمرنا به، حتى تستقيم الأحوال، ونصبح عبيدًا لله جل وعلا.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ يعني أن المعبودات لا تصرُّفَ فيها، فكيف تتجهون إليها وتطلبون منها الشفاعة وهي لا تنفع ولا تضر؟! فهذا أصل في أن العبادة وتعلق القلب: فيمن يجلب النفع ويدفع الضر، فإن لم يكن كذلك فهو باطل.

لهذا أمره الله جل وعلا أن يسأل المشركين: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، يعني أخبروني عما تدعون من آلهتكم، ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ [الزمر: ٣٨] هل تستطيع أن تكشف هذا الضر أو تمنعه؟ وهل تزيله أو تخففه؟ أو تمنعه قبل حصوله؟ ﴿أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ﴾،

وقال تعالى عن الخليل: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْـًٔا ۗ﴾، إلى قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

هل تستطيع أن تمسك الرحمة ولا توصلها إليَّ؟! وفُسّر الضرُّ هنا إما بالمرض أو بالفقر أو بإدالة عدو وما أشبه ذلك، وفسرت الرحمة بضد ذلك، بالعافية والرزق والصحة والتوحيد والنصر.

يقول مجاهد: فسألهم فسكتوا، لأنهم يعلمون أنها لا تفعل شيئًا، وأنها لا تنفع ولا تضر، وهذا أمر ظاهر، فهم يعرفون هذا، ولهذا كانت دعوتهم إياها وعبادتهم لها مجرد طلب شفاعة يقولون: اشفعي لنا، وقد عُرف أنهم يقولون: إننا أصحاب ذنوب، وهذه لا ذنوب لها، فنجعلها وساطة ببيننا وبين ربنا.

ثم قال له جل وعلا: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ﴾، يعني هو كافيني في كل ما يتوقع من أذًى أو ضر، سألتجئ إليه وأجعل عمدتي واتكالي عليه، ﴿حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وهذا كثير في القرآن، ويبين جل وعلا أن المعبودات لا تنفع ولا تضر، فتكون عبادتها ضررًا بلا نفع، وليس معنى ذلك أن الضر منها، بل الضر من الفاعل نفسه، لأنه وضع العبادة في غير موضعها، فصار ظالمًا، فيعاقب على ظلمه.

وقوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: هذا من تمام المناظرة التي وقعت بين إبراهيم وقومه، على القول الصحيح عند المفسرين، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأنعام: ٧٥-٧٦]، إلى آخر الآيات التي ذكرها شيخ الإسلام رحمه الله.

. . . .

وقد قال بعض المفسرين في هذا قولًا باطلًا، وهو أن إبراهيم أول ما عقل ونظر شاهد كوكبًا، فقال: هذا ربي، ثم ترقى.. وهذا لا يجوز أن يقال، والصحيح أن هذه مناظرة، فإن قومه كانوا يعبدون الكواكب، ويبنون لها الهياكل، فناظرهم في ذلك، يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾.

والأفول هو الذهاب، وإذا كان إلهًا فكيف يذهب؟! إن الإله الذي يُعبد يجب أن يكون رقيبًا شاهدًا، يراقب معبوده ويعلم تصرفاته، ويكون عليه أيضًا حسيبًا في ذلك، أما إذا غاب وذهب، فمعنى ذلك أنه لا يصح أن يكون إلهًا، وهكذا ترقى إبراهيم معهم في المناظرة من شيء إلى شيء.

ثم قال تعالى: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ﴾، يعني أن هذه الحجة بدأت من الأول، ثم تبرأ من شركهم، وأخبر أن آلهتهم كلها لا تنفع ولا تضر، ثم كعادة المشركين يهددون من نعى عليهم وخالفهم بأن آلهتهم قد تضره، كما قالوا لهود عليه السلام: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هُود: ٥٤]، أي بجنون، لأنك خالفت الجميع وجئت بشيء لا نعرفه، فأنت مجنون، والذي أجنك هو بعض الآلهة لأنك خالفتها، فقال: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (٥٥)﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥]، يعني اجتمعوا أنتم كلكم واستدعوا آلهتكم، ثم اصنعوا ما تستطيعون صنعه بي، فلن تصلوا إلى هذا، وهذا تحدٍّ لهم.

وكذلك الآية التي مرت معنا بالنسبة لنبينا ﷺ فإنه تحداهم أن يضروه بشيء وآلهتهم، فما استطاعوا، وكذلك نوح: ﴿يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]، فهذه سنة الكافرين، كانوا يخوفون من خالفهم بآلهتهم.

وفي الصَّحِيحَيْنِ عن عبد الله بن مَسْعُود رضي الله عنه، أن هَذِه الآيَة لما نزلت شقّ ذَلِك على أَصْحَاب النَّبِي ﷺ وقالُوا: يا رسول الله، أَيُّنَا لم يَلْبِسْ إيمانَه بظُلْم؟! فقال: «**إِنَّمَا هُوَ الشّرك، ألم تسمعوا إلى قَول العَبْد الصَّالح:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]»[1].

وبعضهم إلى الآن على هذه السبيل وهذه الطريقة، لو جئت إلى عابد القبر وقلت له: اتق الله، فالقبر ما ينفعك ولا يضرك، اعبد ربك، فيجيبك: أنا أخوفك هذا الولي، إذا خالفته تراه يعمل فيك كذا وكذا! فهم على سنة واحدة سائرون. ففي نهاية هذه المناظرة قال لهم إبراهيم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ﴾، يعني كيف تخوفوني بأصنامكم وكيف أخافها؟ وأنتم لا تخافون الله لأنكم أشركتم به؟! ثم قال: ﴿فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١]؟

فجاء الحكم على هذا السؤال، وسواء كان الحكم هذا من تمام كلام إبراهيم في المناظرة، أم أنه حكمٌ حَكَمَ الله به بين إبراهيم وقومه، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢]، فجاء الأمن معرفًا بأل التي تدل على الكمال والاستغراق، وغلبة الشيء، يعني الأمن يكون لهم في الدنيا والآخرة، وهم مهتدون إلى ما خُلقوا له وأُمروا به، وهو عبادة الله وحده جل وعلا.

قوله ابن مسعود: «**لما نزلت**» أي هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾، وقد شق ذلك على الصحابة لأنهم فهموا من كلمة ظلم مطلقَ الظلم، أي كل سيئة فهي ظلم، وأن كل من عمل سيئة فلا يكون له أمن ولا اهتداء، هذا الذي شق عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٠)، ومسلم (١٢٤).

وإبْرَاهِيم الخَلِيل إمَام الحنفاء المخلصين، حَيْثُ بُعث وقد طبّق الأَرْضَ دينُ المُشْركين، قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ [البَقَرَة: ١٢٤]، فبيّن أَن عَهده بالإمَامَةِ لَا يتَنَاوَل الظَّالِم، فَلم يَأْمر الله سُبْحَانَهُ أَن يكون الظَّالِم إمَاماً، وأعظم الظُّلم الشّرك.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠]، والأمّة هُوَ معلِّم الخَيْر الَّذِي يؤتمّ بِهِ، كمَا أَن القدْوَة: الذي يُقْتَدى بِه.

فعند ذلك أخبرهم الرسول ﷺ بأن الظلم الذي ليس معه أمنٌ مطلق هو الشرك، أما الظلم ما عدا الشرك، وإن كان ظلمًا، فلا يقتضي أن لا يكون لصاحبه أمن أبدًا، وليس له اهتداء أبدًا، وإن أصيب بما يصاب من جراء ذنوبه، فالعاقبة تكون إلى الجنة، ولهذا جاء الأمن معرفًا بـ(ال)، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾، والأمن هنا يشمل الأمن في الدنيا والأمن في الآخرة، فلا يصيبه العذاب في الدنيا مما يصيب الكفار، ولا يصيبهم عذاب في الآخرة.

وقوله: «**ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾**»، يعني أن الشرك هو الظلم المطلق الذي ليس معه أمن ولا اهتداء، أما الذنوب فمعها أمن ومعها اهتداء، ولكن ليس هو الأمنَ الكامل ولا الاهتداءَ الكامل، وإذا لم يكن مع الإنسان الأمن الكامل والاهتداء الكامل، فإنه يصاب بعذاب في الدنيا أو بعذاب في الآخرة، ولكن لا يكون كالذي معه الشرك، فهذا الذي بيّنه لهم ﷺ، وهم فهموا هذا تمامًا، وعلموا أن مطلق الذنوب تؤثر في الإيمان.

قوله: «**والأمّة هو معلم الخير**» هذا معنًى من معاني الأمّة، وإلا فالأمّة تطلق على أشياء كثيرة:

....

منها **الجماعة**، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [القَصَص: ٢٣]، وهذا ظاهر جدًا.

ومنها: **الملة والدين والنحلة**، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبيَاء: ٩٢]، أي دينكم وشرعكم، ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبيَاء: ٩٢]، أي أن الذي يؤمر به الخلق هو عبادة الله، فما جاء رسول إلا يأمر الناس بعبادة الله، فهذا معنى ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الأنبيَاء: ٩٢]، كقوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عِمرَان: ١٩].

ومنها: **الطائفة من الزمن**، كما قال الله جل وعلا في قصة يوسف عليه السلام، قال يوسف للذي نجا منهما: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يُوسُف: ٤٢]، فلما رأى الملك الرؤيا العجيبة، تذكر الذي نجا، قال الله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يُوسُف: ٤٥]، أي بعد وقت فات، وقال الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾ [هُود: ٨]، أي إلى وقت محدد، فهذه بعض المعاني والإطلاقات لكلمة الأمّة.

وينبغي لإنسان أن يعرف الألفاظ التي تأتي في القرآن، يكون لفظها واحدًا ومعانيها مختلفة، فمعرفة ألفاظ القرآن ومعانيه ومفرداته، وتتبعها، نافع جدًا للإنسان، حتى لا يقع في الخطأ.

وكذلك قد تأتي ألفاظ في القرآن لفظها واحد، ولكن المعنى يختلف، والاختلاف يجب أنه ينظر إلى مراد المتكلم فيه، ومراد المتكلم يتبين بالنظر الحال وبما يحيط بالكلام نفسه، وهذا قد يتعلق بصفات الله جل وعلا وأفعاله، ويتعلق بما يؤمر به الإنسان.

....

ولهذا نقول: لا يجوز للإنسان أن يأخذ شيئًا على وتيرة واحدة، ثم يتمسك به دائمًا، يجب أن يكون مقصوده ونظره إلى مراد المتكلم، ومراد المتكلم يتبين بالقرائن والسياق، والنظر إلى الحال، والأمثلة كثيرة، ولكن نذكر مثالًا في صفات الله تعالى، يتبين منه أن أهل السنة لا يأخذون الشيء فيجعلونه قاعدة على وتيرة واحدة.

فمثلًا: لفظة المجيء المضافة إلى الله، هل نأخذها على وتيرة واحدة أينما جاءت؟ وهل نقول: يجب أن يكون هذا على ظاهره؟ لا، لا يجوز هذا، بل حسب السياق ومراد المتكلم.

فقول الله جل وعلا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾﴾ [البقرة: ٢١٠]، إذا قال لنا قائل: معنى قوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠]، أي يأتيهم عذابه، أو يأتيهم جنده وملائكته، أو يأتيهم أمره، أو يأتيهم سلطانه، كما تقوله المؤولة.

نقول: هذا باطل، فالإتيان أضيف إلى الله جل وعلا فعلًا يفعله حقيقة، ولم يأت ما يصرفه، ولا في ذلك محذور، ولهذا قال: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ [الفجر: ٢٢].

وقد يقول أهل الباطل: إن هذا من مجاز الحذف، والمجاز موجود في لغة العرب، والتقدير وجاء أمر ربك، أو جاء ملك ربك، نقول: هذا المعنى يأباه السياق ويبطله، لأنه جاء في آية أخرى قول الله جل وعلا: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨]، فهذا التعداد والتنوع يأبى هذا التأويل من كل جانب، ويجعل هذا التأويل باطلًا.

والله تعالى جعل في ذُريَّته النُّبوَّة والكتاب، وإنَّما بعث الأَنْبيَاء بعده بملته، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣] ....

لكن إذا ذُكر المجيء والإتيان في سياق يجب أن ننزه ربنا عنه، وهو مضاف إلى الله، كما في قوله جل وعلا: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ﴾ [الحشر: ٢]، وقوله تعالى: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، فهل نقول هنا: إن الله يأتي من أساسات الحيطان؟! بالتأكيد لا يجوز.

فإذا قال لك المبطل لنا: أنت تتناقض، فلماذا هنا تقول: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي يأتيهم عذاب الله، وهناك تقول: يأتي الله؟

نقول: لا نتناقض، لأننا ننظر إلى مراد المتكلم وما يليق به جل وعلا، فنعلم أنه لا يليق بجلال الله جل وعلا أنه يأتي من تحت، وإنما الله جل وعلا يأتي من العلو.

وكذلك قوله جل وعلا: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]، إن قال لنا قائل: يلزمك أن تقول في هذه الآية كما قلت في آية البقرة.

أقول: لا يلزمني، لأن هذا المعنى شيء معلوم، فبنو النضير أتاهم عذاب الله وجنده مع رسوله ﷺ، فخربوا بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين خوفًا ورعبًا مما أحاط بهم من جنود الله جل وعلا مع رسوله، والله لا يأتي إلى الأرض في هذا الوقت في هذه الحياة.

فهكذا نقول: إن الذي يعين المعنى هو السياق والقرينة، فإذا تبين لنا مراد المتكلم فليس تأويلًا، بل هو الظاهر وهو الحقيقة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عِمران: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عِمران: ٦٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ المقصود الثناء على إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والأمر باتباع طريقته في التبرّي من المشركين، وكونِه اتجه إلى ربه وتعلق به وحده، وتبرأ من كل معبود دونه، فأُمرنا أن نتأسى به في هذا، ولهذا نهينا أن نتأسى به في دعائه واستغفاره لأبيه، ولهذا قال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤]، يعني هذا لا تتأسوا به، فلا تستغفروا للمشركين ولو كانوا آباءكم.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ وإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ يتنازعه كل طائفة، فاليهود يزعمون أنه منهم، والنصارى كذلك، والمشركون كذلك، فأخبر الله جل وعلا أنه ليس من طائفة من هذه الطوائف، بل هو حنيف لله، والحنيف هو المائل عن كل قصد وإرادة وفعل بالاختيار، والفعل الذي يعتمد إلى توحيد الله وحده، فهو مجانب أهل الأرض كلهم في عباداتهم واتجاهاتهم إلى عبادة الله وحده، وهذا هو الحنيف في لغة العرب، فالحنيف في لغتهم هو الموحد الذي يعبد الله وحده.

لهذا لما جاء عَدِيّ بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو عربي، ولكنه دخل في النصرانية، فقال له الرسول ﷺ: «**ما يُفِرُّك أن تقول: لا إله إلا الله؟ فهل تعلم من إله سوى الله**»؟ قلت: لا، ثم تكلم ساعة، ثم قال: «**إنما تفر أن تقول: الله أكبر، وتعلم شيئًا أكبر من الله**»؟ فقال له عدي: فإني حنيف مسلم، ففرح الرسول ﷺ من قوله: أنا حنيف، يعني أنا موحد،

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾، إلى قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٥ ـ ١٣٦].

وقد ثَبت في الصَّحِيح عن النَّبي ﷺ أن «إِبْرَاهِيم خير البَرِيَّة»[١]، فهُوَ أفضل الأَنْبِيَاء بعد النَّبي ﷺ، وهُوَ خَلِيل الله تعالى.

قد دخلت في التوحيد، وتركت هذا الدين وهذا المذهب[٢].

والمقصود أن كلمة حنيف في اللغة العربية تطلق على الموحد الذي لا يعبد إلا الله.

قوله: «**بعد النبي**» من هو النبي؟ هو نبينا ﷺ، ولا يحتاج أن يقول: «بعد نبينا»، فهذا صار معروفًا لدى المخاطبين، وإذا كان معروفًا جاز هذا.

أما إذا كان في مقام أداء الشهادة أو أداء الواجب الذي لا بد منه، فلا بد من تعيينه باسمه العَلَم، أن تقول: محمد، فإذا قلت في التشهد: أشهد أن لا إله إلا الله، هل يجوز أن تقول: أشهد أن النبي رسول الله؟ أو أشهد أن رسول الله النبي؟ أو أن سيدنا رسول الله؟ هذا لا يجوز ولا يكفي، بل لا بد أن تذكره باسمه العلم، تقول: أشهد أن محمدًا عبده ورسوله، بهذا يذكر في الأذان وفي الشهادات وفي غيرها، وحين يتشهد الكافر عند دخوله الإسلام فلا بد أن يذكر اسمه العلم.

وليس هذا معارَضًا بقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ

---

(١) أخرجه بنحوه مسلم (٢٣٦٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد (١٩٣٨١)، والترمذي (٢٩٥٣، ٢٩٥٤).

....

﴿كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ [النور: ٦٣]، بل المعنى كما يقوله المفسرون: لا تقولوا: يا محمد، ولكن قولوا: يا نبي الله، يا رسول الله، بخلاف ما تقدم، فلا بد فيه من التعيين، ولهذا كان النبي ﷺ نفسه يقول في تشهده: أشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وما يقول: أشهد أني عبد الله ورسوله، وهذا معروف، بل صار يعلم الصحابة هذا مثل ما يعلمهم السورة من القرآن، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وهل يجوز ذكر السيد في التشهد؟ لا، فهذا من البدع لم يأت، يقول: أشهد أن سيدنا رسول الله، وهذ صار الآن يذكر في الخطب وفي المقامات التي يجتمع فيها الناس، وصار بعضهم يخجل أن يقول: أشهد أن محمدًا عبده ورسوله، لماذا؟ لأن كثيرًا من المخرفين يَعيب عليه، يقول: أنتم تُبغضون الرسول وتكرهونه، لأنكم لا تقولون سيدنا!

ولا يجوز أن تؤثر مثل هذه الأشياء في الإنسان، بل يجب أن يقول الحق ويقوم به ويعلمه للناس، هكذا كان الصحابة.

بل جاء النهي عن التسويد، فقد جاء في قصة وفد بني عامر فقالوا: يا محمد، يا سيدَنا وابنَ سيدِنا، وخيرَنا وابنَ خيرنا، فقال رسول الله ﷺ: **«يا أيها الناس، عليكم بتقواكم، لا يستهوِيَنّكم الشيطان، أنا محمد ابن عبد الله، عبدُ الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله»**. وفي رواية: **«لا يَسْتَجْرِيَنَّكم الشيطان»**، وفي رواية: **«لا يَستَفِزَّنّكم»**[(١)].

إذا قلنا مثل هذا وتركنا التسويد فقد امتثلنا أمره، مع أنه بلا شك سيد، لأن السيد هو المقدم المطاع المقدم في قومه، ولهذا لما جاء ذكر

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٥٥١، ١٣٥٢٩، ١٣٥٩٦)، من حديث أنس رضي الله عنه.

وقد ثَبت في الصَّحِيح عن النَّبِي ﷺ من غير وَجه أنه قال: «**إِن الله اتخذني خَلِيلاً كَمَا اتخذ إِبْرَاهِيم خَلِيلاً**»(١)، وقال: «**لَو كنت متخذاً من أهل الأَرْض خَلِيلاً لاتخذت أَبا بكر خَلِيلاً، ولَكِنّ صَاحبَكُم خَلِيل الله**» يعْني نَفسَه(٢).

التعليل والفضل، كما في حديث الشفاعة، قال: «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بم ذاك؟**»(٣)، فذكر العلة، لأنه هو المقدم في ذلك الموقف، الذي قال الله جل وعلا فيه: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسراء: ٧٩].

والمقام المحمود على القول الصحيح هو الشفاعة التي تكون في الموقف، لأنها تشمل الخلق كلهم، من أولهم إلى آخرهم، فهذا المقام الذي يحمده عليه الأولون والآخرون، لأنه والشفاعة كانت بإذن ربه جل وعلا، وهو الذي وعده الله جل وعلا إياها، رفعًا لذكره وإكرامًا له، وإلا فالأمر كله بيد الله جل وعلا.

قوله ﷺ: «**ولَكِنّ صَاحبَكُم خَلِيل الله**» معنى هذا أن الخُلة لا تقبل المشاركة، فالخليل هو الذي تخلل القلب كله، فلم يبقَ فيه موضع لغير الخليل، لهذا قال: «**لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا**»، لأن أبا بكر ﷺ هو أحب الصحابة إليه، وهو كما قال ﷺ: «**إنّ أمَنَّ الناسِ عليَّ في صحبته وماله أبو بكر**»(٤)، فلم يزل مصاحبًا له منذ دخل في الإسلام ـ بل من قبل الإسلام ـ إلى أن توفي رسول الله ﷺ.

ومن العجائب أنه لما توفي الرسول ﷺ، صار الصحابة كلهم يقولون

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبد الله بن سفيان البَجَلي ﷺ.
(٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﷺ.
(٣) أخرجه البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.
(٤) أخرجه البخاري (٤٦٦) ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

. . . .

لأبي بكر ﷺ: خليفة رسول الله، ولم يحدث هذا لغير أبي بكر، فلما استخلف عمر ﷺ قالوا: نقول: خليفةُ خليفةِ رسول الله، قال: هذا شيء بعيد، ولكن أنتم المؤمنون وأنا أميركم، قولوا: أمير المؤمنين، فانقطع هذا الوصف: خليفة لرسول الله.

وهذا لا ينافي قولهم: الخلفاء الراشدون، فالخليفة يطلق على الذي يخلف غيره، فعمر خَلَفَ أبا بكر، وعثمان خلف عمر، وعلي خلف عثمان ﷺ، وهكذا الخلفاء واحد يخلف مَن قبلَه.

أما أن يقال مثلًا: آدم خليفة الله، أو أن الإنسان خليفة الله، فهذا خطأ، فالله ليس له خليفة، تعالى الله وتقدس، فالخليفة لمن يغيب أو يذهب أو يموت، فيُحتاج لمن يقوم مقامه، أما الله جل وعلا فهو الرقيب الحي الذي لا يموت.

فالمقصود: أن صلة أبي بكر برسول الله ﷺ صلة قوية جدًّا، وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص ﷺ، أن النبي ﷺ أمّره في سرية ذات السلاسل، وأرسله إلى قوم من أقربائه، كانوا أخوال أبيه، فلما عاد من الغزو سأله قال: أي الناس أحب إليك؟ فقال: «**عائشة**»، وبعض الناس لو قيل له: أتحب زوجتك، ما يذكر ذلك ولا يخبر به، بل يقول: ما لك ولهذا! أما رسول الله ﷺ فلا يبالي بهذا، بل يذكر الواقع، فلما قال له: أي الناس أحب إليك؟ قال: «**عائشة**»، فقلت: من الرجال؟ قال: «**أبوها**»، فهو أحب الناس إليه ﷺ، يقول: ثم من؟ قال: «**عمر**»، يقول عمرو بن العاص: فعدّ رجالًا، فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم[1].

فالمقصود: أن الرسول ﷺ قال: «**لو كنت متخذًا من أهل الأرض**

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥٨) ومسلم (٢٣٨٤).

وقال: «لَا تَبقَيَنَّ في المسْجِد خَوْخةٌ إِلَّا سُدَّتْ إِلَّا خوخةَ أَبي بكر»[1].

خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن صاحبكم خليل الله»، يعني أن الخُلة لا تقبل المشاركة فيمن هو غير الخليل، وهذا لا ينافي كونه يحب من يحبه، فالحب غير الخلة، فالخلة هي أعلى مراتب الحب ليس فوقها شيء إلا العبادة، والعبادة لا يجوز أن تكون إلا لله جل وعلا وحده.

وبهذا يتبين خطأ الذين يقولون: إبراهيم خليل الله، ونبينا حبيب الله، ويقولون: الحبيب أقدم من الخليل وأتم، هذا خطأ.

قوله ﷺ: «**خَوْخة**» الخوخة هي نافذة كالباب الصغير تخرج إلى المسجد، كان النبي ﷺ اتخذ بيوته إلى حائط المسجد، ففتح إلى المسجد خوخة، أي بابًا صغيرًا يخرج ويدخل منه، فاقتدى به الصحابة الذين جعلوا بيوتهم إلى حائط المسجد، ففتحوا أيضًا خوخات حتى يدخلوا ويخرجوا من قريب.

فأمر النبي ﷺ في مرض موته أن تسد كل هذه الخوخات، إلا خوخة أبي بكر رضي الله عنه، يقول أهل السنة: هذا إشارة إلى أنه الخليفة بعده، وإشاراته ﷺ في هذا كثيرة، تقرب من التصريح، منها قوله ﷺ: «**مروا أبو بكر فليصل بالناس**»، تقول عائشة رضي الله عنها: علمت أن الذي يقوم مقام رسول الله سيكرهه الناس، لأنه لا أحد يعدل رسول الله ﷺ، أن تقوم مقامه وتصلي مكانه وتخطب خطبه وهكذا، وأنت لا تساوي شيئًا مما هو عليه، كانت هذه نظرتها، تقول: فقلت له: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق أسيف، إذا قام مقامك لا يسمع الناس من البكاء، فلو أمرت

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٧) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.
وأخرجه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٢٣٨٢)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وقال: «**أَلا وإن من كَانَ قبلَكُمْ كَانُوا يتخذون القُبُور مَسَاجِدَ، أَلا فلَا تَتَّخِذُوا القُبُور مَسَاجِدَ، فإني أنهاكم عَن ذَلِك**»[١].

وكلّ هَذَا في الصَّحِيح، وفِيه أَنه قال ذَلِك قبل مَوته بأيام، وذَلِكَ من تَمام رسَالَته، فإِن في ذَلِك تَمامَ تَحْقِيقِ مُخَالّتِه لله، الَّتِي أَصْلُها محبَّة الله تعالى للعَبد، ومحبة العَبْد لله، خلافاً للجهمية.

وفي ذَلِك تَحْقِيق تَوْحِيد الله، وألّا يعبدوا إِلَّا إِيَّاه، ردّاً على أشباه المشْركين، وفيه ردّ على الرافضة الَّذين يبخسون الصّديق رضي الله عنه

غيره أن يصلي بالناس، لو أمرت عمر، فقال: «**مروا أبا بكر فليصلي بالناس**».

تقول عائشة: فذهبت إلى حفصة وقلت لها: اذهبي فقولي له: إن أبا بكر كذا وكذا، للكلام الذي قالته، فذهبت حفصة فقالت للرسول ﷺ ذلك، فقال: «**إنكن صواحب يوسف! مروا أبا بكر فليصل بالناس**»، فقالت حفصة لعائشة: لم ألق منك خيرًا، تعني أن الرسول غضب من ذلك، وقال هذا القول: «**إنكن صواحب يوسف**»[٢].

والمقصود أن هذا من الأمور الظاهرة على أن الرسول ﷺ أراد أبا بكر أن يكون هو الخليفة بعده، وفي ذلك أشياء كثيرة، حتى ادعى بعض أهل السنة أن فيها نصوصًا.

وقوله رحمه الله: «**خلافًا للجهمية**» الجهمية ينكرون أن يكون الله يحب أحدًا أو يحبه أحد، وهذا من العجب! فإن هذا هو أصل الدين الإسلامي، وهذا مما يدل على أنهم ليس مقصدهم الحق، وإنما مقصدهم إفساد عقائد المسلمين.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢) من حديث جندب بن عبد الله بن سفيان البَجَلي رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٦٧٩) ومسلم (٤١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

حَقَّه، وهم أعظم المنتسبين إلى القبْلَة إشراكاً بِعبَادة عَليّ وغَيره من البشر.

والخُلة: هي كَمَال المحبَّةِ المستلزِمةِ منِ العَبْد كَمَالَ العُبُودِيَّة لله، ومن الرب سُبْحَانَهُ كَمَالَ الربوبية لِعِبَادِهِ الَّذين يُحِبهُمْ وَيُحِبُّونَهُ.

ولَفظ العُبُودِيَّة يتَضَمَّن كَمَال الذل وكَمَال الحبّ، فإِنَّهُم يَقُولُون: قلبٌ متيَّم، إِذا كَانَ متعبِّداً للمحبوب، والمتيَّم: المتعبِّد، وتيمُ الله: عبد الله، وهَذَا ـ على الكَمَال ـ حصل لإِبْرَاهِيم وَمُحَمّد صلى الله عليهما وسلم.

ولِهَذَا لم يكن لَهُ ﷺ من أهل الأَرْض خَلِيل، إِذِ الخُلَّة لَا تَحْتَمل الشّركَة، فَإِنَّهُ كَمَا قيل في المعْنى:

قد تخللت مَسْلَكَ الرّوح مني وبذا سُمّيَ الخَلِيلُ خَلِيلا

بِخِلَاف أصل الحبّ، فإِنَّهُ ﷺ قد قال في الحَدِيث الصَّحِيح، في الحسن وأُسَامَة: «**اللَّهُمَّ إني أُحِبُّهما، فأَحِبَّهما وأَحِبَّ مَن يُحبُّهما**»[١].

وسَأَلَهُ عَمْرُو بن الْعَاصِ: أَيّ النَّاس أحبُّ إِلَيْك؟ قال: «**عَائِشَة**»، قال: فمِن الرِّجَال؟ قال: «**أَبوهَا**»[٢].

وقال لعَلي رضي الله عنه: «**لَأُعْطيَنَّ الرَّايَةَ غَداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورَسُولَه، ويُحِبُّه الله ورَسُولُه**»[٣]. وأمثال ذَلِك كثير.

وقد أخبر تعالى أنه ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤]، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

. . . .

(١) أخرجه البخاري (٣٧٤٧)، من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٤٣٥٨) ومسلم (٢٣٨٤) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٣٠٠٩) ومسلم (٢٤٠٦) من حديث سهل بن عبد الله رضي الله عنهما.

[البَقَرَة: ١٩٥]، و﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المَائدة: ٤٢]، و﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢]. و﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصَّف: ٤]، وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: ٥٤]، فقد أخبر بمحبته لِعِبَادِهِ المؤمنِينَ، ومحبة المؤمنِينَ لَهُ، حتَّى قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البَقَرَة: ١٦٥].

أما الخُلَّة فخاصة، وقَول بعض النَّاس: إن مُحَمَّداً حبيب الله، وإِبْرَاهِيم خَلِيل الله، وظنُّه أن المحبَّة فَوق الخلَّة، قَولٌ ضَعِيف.

فإن مُحَمَّداً أَيْضاً خَلِيل الله، كَمَا ثَبت ذَلِك في الأَحَادِيث الصَّحِيحَة المستفيضة.

قوله ﷻ: ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ المقسطون هم أهل العدل، الذين يعدلون فيما وَلُوا وما حكموا به.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ مقتضى محبة الله جلا وعلا هي طاعته واتباع أمره، وكذلك الذي يحبه الله ويحبه رسوله، وقال الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمـرَان: ٣١]، واتباع الرسول ﷺ هو علامة محبة الله جل وعلا، ولا تحصل إلا بهذا، فالمحبة مشتركة ولها درجات.

وهؤلاء الذين يحبهم الله جل وعلا هم على درجات، وليسوا على نمط واحد، فكل من كان لله أتقى وأورع، فحب الله له أتم وأكثر، وكذلك هم أيضًا يتفاوتون في حبهم لله، ولهذا تفاوتت درجاتهم في الجنة، فبعضهم في أعلى عليين، وبعضهم في أدنى الجنة.

قوله: «**قَولٌ ضَعِيف**» بل هو قول باطل وليس قولًا ضعيفًا فقط، لأنه خلاف الأدلة، وما كان خلاف الأدلة فهو باطل.

ومَا يرْوى أَن العَبَّاس يحْشر بَين حبيب وخليل[١]، وأمثال ذَلِك، فأحاديث مَوْضُوعَة لَا تصلح أَن يعْتَمد عَلَيْهَا.

وقد قدمنَا أَن محبَّةَ الله تعالى هِيَ محبتُه ومحبةُ مَا أحب، كَمَا في الصَّحِيحَيْنِ عن النَّبِي ﷺ أنه قال: **«ثَلَاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَد حلاوةَ الإِيمَان: مَن كَانَ الله ورَسُولُه أحبَّ إليه مِمَّا سواهُمَا، ومن كَانَ يحب المرْءَ لَا يُحِبهُ إِلَّا لله، ومن كَانَ يكره أَن يرجع في الكفْر بعد إِذْ أنقذه الله مِنْهُ كَمَا يكره أَن يُلقى في النَّار»**[٢].

أخبر النَّبِي ﷺ أَن من كَانَ فِيهِ هَذِه الثَّلَاثُ وجد حلاوة الإِيمَان، لِأَن وجود الحَلَاوَة بالشَّيْء يتبع المحبَّة لَهُ، فمن أحب شَيْئاً أَو اشتهاه، إِذا حصل لَهُ مُرَادُه فإِنَّهُ يجد الحَلَاوَة واللذة والسُّرُور بذلك، واللذة أَمر يحصل عقيب إِدْرَاك الملائم الَّذِي هُوَ المحبوب أَو المشتهَى.

ومن قال: إِن اللَّذَّة إِدْرَاك الملائم - كَمَا يَقُوله من يَقُوله من المتفلسفة والأطباء - فقد غلط في ذَلِك غَلطاً بَيّناً، فإِن الإِدْرَاك يتوسط بَين المحبَّة واللذة، فإِن الإِنْسَان مثلاً يَشْتَهِي الطَّعَام، فإِذا

قوله: «**فأحاديث مَوْضُوعَة..**» الموضوع لا يصلح لشيء أصلًا، لأن الموضوع معناه المكذوب، الذي كُذب على رسول الله ﷺ، فلا يقال: إنه لا يستدل بها فقط، بل يجب ألا يلتفت إليها في شيء.

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٤/ ٣٨٦)، ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات (١/ ٣١٧)، وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال (٣/ ٤٦٥)، وتلخيص الموضوعات (٢١٦)، والحافظ ابن حجر في لسان الميزان (٦/ ٥٣٥)، والسيوطي في اللآلئ المصنوعة (١/ ٢٧١)، وفيه ذكر أبي بكر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٦) ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

أكله حصل لَهُ عقيب ذَلِك اللَّذَّةُ، فاللذة تتبع النّظر إِلَى الشَّيْء، فإذا نظر إِلَيْهِ التذَّ بِهِ، واللذة الَّتِي تتبع النّظر لَيست نفس النّظر، ولَيْسَت هِيَ رُؤْيَةَ الشَّيْء، بل تحصل عقيب رُؤْيَته، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

وهَكَذَا جَمِيع مَا يحصل للنَّفس من اللَّذَّات والآلام: من فَرح وحزن ونَحْو ذَلِك، يحصل بالشعور بالمحبوب، أَو الشُّعُور بالمكروه، ولَيْسَ نفسُ الشُّعُور هُوَ الفَرحَ وَلَا الحزن.

فحلاوة الإِيمَان المتضمنةُ من اللَّذَّة بِهِ والفرح مَا يجده المؤمن الوَاجِد حلاوة الْإِيمَان، تتبع كَمَال محبَّة العَبْد لله، وذَلِكَ بِثَلَاثَة أُمُور: تَكْمِيل هَذِه الْمحبَّة، وتفريعها، ودفع ضدها.

فتكميلها أَن يكون الله وَرَسُوله أحبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا، فإن محبَّة الله وَرَسُوله لَا يكْتَفى فِيهَا بِأَصْل الْحبّ، بل لا بد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، كما تقدم.

وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله.

قوله: «**فتكميلها أَن يكون الله وَرَسُوله أحبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سواهُمَا..**» وتكميلها أيضًا أن يكون الرسول ﷺ أحب إليك من نفسك وولدك والناس أجمعين، كما قال النبي ﷺ[1] فهذا من كمال محبة الله جل وعلا.

قوله: «**وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله**» وكذلك من تفريعها: أن تحب ما يحبه الله .

---

(١) أخرجه البخاري (١٥) ومسلم (٤٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.
وأخرجه البخاري (١٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ودفع ضدها: أَن يكره ضد الإِيمَان أعظَم من كَرَاهَته الإِلْقَاء فِي النَّار.

فإذا كَانَت محبَّة الرَّسُول والمؤمنِينَ من محبَّة الله، وكَانَ رَسُول الله ﷺ يحب المؤمنِينَ الَّذين يُحِبّهُم الله، لِأَنَّهُ أكملُ النَّاس محبَّةً لله، وأحقَّهم بِأَن يحب مَا يُحِبهُ الله، ويُبغض مَا يُبغضه الله، والخُلةُ لَيْسَ فِيهَا لغير الله نصيب، بل قال: «**لَو كنت متخذاً من أهل الأَرْض خَلِيلاً لاتخذت أَبَا بكر خَلِيلاً**»[١]، عُلِمَ مَزِيدُ مرتبَة الخُلَّة على مُطلق المحبَّة.

والمقْصُود: هُوَ أَن الخُلَّة والمحبة لله تَحْقِيقُ عبوديته، وإِنَّمَا يغلَط مَن يغلَط فِي هَذِه من حَيْثُ يتوهمون أَن الْعُبُودِيَّة مُجَرّدُ ذلّ وخضوع فَقَط، لَا محبَّة مَعَه، وأَن المحبَّة فِيهَا انبساط فِي الأَهْوَاء، أَو إدلال لَا تحتمله الربوبية، ولِهَذَا يُذكر عَن ذِي النُّون أَنهم تكلمُوا عِنْده فِي مَسْأَلَة المحبَّة، فقال: أَمْسكُوا عَن هَذِه المسْأَلَة لَا تسمعها النُّفُوس فتدَّعِيَها[٢]. وكره من كره من أهل المعرفَة والعلم مجالسة أَقوام يكثرون الكَلَام فِي المحبَّة بِلَا خشيَة.

قوله: «**ودفع ضدها..**» أي أن تكره ما يُبغضه الله جل وعلا، بل ما تكفي الكراهة فقط، لا بد من البغض والمعاداة. ومِن دفع ضدها أيضًا: ألا يكون هناك مشاركة لمحبة الله.

قوله: «**يكثرون الكَلَام فِي المحبَّة بِلَا خشيَة**» أي حتى لا يدعي الإنسان المحبة وهو بعيد عنها، أو أنه ليس معه إلا مجرد الحب الذي لا بد منه وهو التأله، مجرد التأله فقط، فالحب درجات، ينتهي بأن يكره أن يخالف ربه كما يكره أن يقطَع إِرْبًا أو يلقى في النار، ومعلوم أن الألم

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٨٣) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أوردها القشيري في الرسالة القشيرية ص٥٢٧ دون إسناد.

وقال من قال من السّلف: مَن عبَدَ الله بالحب وَحده فهُوَ زنديق، ومَن عَبَدَه بالرجاء وَحده فَهُوَ مرجئ، ومن عَبَده بالخوف وَحده فَهُوَ حَرُوريّ، ومن عَبَده بالحب والخَوْف والرجاء فهُوَ مُؤمن موحد.

في النار شديد جدًّا لا يحتمل، فهكذا ينبغي أن يكره الوقوع فيما يكرهه ربه جل وعلا.

وقول السلف: «**مَن عبَدَ الله بالحب وَحده فهُوَ زنديق..**» وفي ذلك رد على الذين يقولون: إننا نعبد الله جل وعلا لذاته فقط، والذين يقولون: نحن لا نعبده لأننا نخاف من النار أو نريد الجنة، بل نعبده حبًّا له، وشوقًا إليه فقط.

وقد حكي أن أحد هؤلاء الذين يقول مثل هذا القول ابتلي بحبس البول، فكان يمشي ويمر على الصبيان الصغار الذين يظن بأنهم تستجاب دعوتهم لأنه ليس لهم ذنوب، ويقول: استغفروا لِعَمِّكم الكذاب، واسألوا له العافية، فإني كنت أقول كذا، فابتليت بهذا، فما استطعت أن أصبر[1].

فالإنسان ضعيف إذا ابتلي بالألم يألَمُ، فكيف النار؟! وهذا يبيّن كذب الذي يقول: لو أحرقني بالنار ما تغيرت، فأنا أريد حبه فقط، وأعبده لحبه، ولا أريد بحبه الجنة، وهذا مخالف لأمر الله، لأن الله جل وعلا يذكر لنا الجنة ويذكر لنا النار، لماذا؟ حتى نخاف الوقوع في النار ونرغب في الجنة، ويكون ذلك من الدوافع على العمل والطاعة.

الإنسان ضعيف لا يستطيع أن يصبر عن الشيء الذي يحتاجه، ولا

(١) وهو سمنون بن حمزة، أورد خبره القشيري في الرسالة القشيرية ص٥٢٧ دون إسناد.

ولِهَذَا وُجِد في المتَأَخِّرين من انبسط في دَعْوَى المحبَّة حَتَّى أخرجه ذَلِك إِلَى نوع من الرعونة والدَّعْوَى الَّتِي تنَافِي العُبُودِيَّة، وتُدْخل العَبْد في نوع من الربوبية الَّتِي لَا تصلح إِلَّا لله، فيدعي أحدُهم دعاوى تتجاوز حُدُودَ الأَنْبِيَاء والْمُرْسلِينَ! أَو يطْلب من الله مَا لَا يصلح بِكُل وَجه إِلَّا لله، لَا يصلح للأنبياء وَلَا للمرسلين. وهَذَا باب وقع فِيهِ كثير من الشُّيُوخ.

يصبر على الألم الذي يؤلمه لا في الدنيا ولا في الآخرة، فالواجب أن يسأل ربه العافية والسلامة من المؤذيات والمؤلمات، وهو لا يستغني عن ذلك بحال من الأحوال، لا يستغني عن كونه يعمل على دفع المؤذي المؤلم، وجلب المنعم الملذ، هذا أمر ضروري.

ثم لا بد أن يفعل السبب، سبب الدفع وسبب الجلب، جلب هذا ودفع هذا، أن تأتي بالسبب في السعي لدفع المؤلم المؤذي، وتأتي بالسبب لجلب المنعم الذي تتنعم به وتلتذ به، فهناك سبب ومسبب للجانبين لهذا وهذا.

وهذه الأمور كلها بيد الله، ليست بيد العبد، فلا بد للعبد من اللجوء إلى الله جل وعلا، وأن يُنزل به حاجاته، فهو الذي ينجيه من المؤلمات، وهو الذي جل وعلا يمنّ عليه بتحصيل الملذات.

قوله: «**وقع فيه كثير من الشيوخ**» قصده شيوخ التصوف الذين لم يتحلَّوا بالعلم، وإنما اجتهدوا في السلوك وفي العبادة والتقشف وغير ذلك، فصار عندهم شيء من الجهل في هذا، صاروا يدّعون دعاوى ما ادعتها الرسل، من أنهم أهل المحبة، وأنهم أهل لأن يكون أحدهم في مكان كذا، حتى كان أحدهم يقول: سوف أحمي أتباعي أن يقع منهم أحد في النار، وهذا جهل فظيع! نسأل الله العافية.

وسَببه ضعف تَحْقِيق الْعُبُودِيَّة الَّتِي بيّنها الرُّسُل، وحررها الأَمر والنَّهْي الَّذِي جَاؤُوا بِه، بل ضعفُ الْعقل الَّذِي بِهِ يَعرف العَبْد حَقِيقَتَه، وإِذا ضعف العقل، وقل العلم بِالدّينِ، وفي النَّفس محبَّة طائشة جاهلة، انبسطت النَّفس بحمقها فِي ذَلِك، كَمَا ينبسط الإِنْسَان في محبَّة الإِنْسَان مَعَ حمقه وجهله، ويَقُول: أَنا محب، فلَا أواخَذُ بِمَا أَفعلهُ من أَنْوَاعٍ يكون فِيهَا عدوان وَجَهل، فهَذَا عينِ الضلال! وهُوَ شَبيه بقول اليَهُود والنَّصَارَى: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المَائدة: ١٨]، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾ [المَائدة: ١٨].

فإِن تعذيبه لَهُم بِذُنُوبِهِمْ يَقْتَضِي أَنهم غير محبوبين، ولَا منسوبين إِلَيْهِ بِنسَب البُنُوَّة، بل يَقْتَضِي أَنهم مربوبون مخلوقون.

فمن كَانَ الله يُحِبهُ اسْتَعْملهُ فِيمَا يُحِبهُ، ومحبوبه لَا يفعل مَا يُبغضه الحق ويسخطه من الكفْر والفسوق والعصيان، ومن فعل الكَبَائِر وأصر عَلَيْهَا ولم يتب مِنْهَا، فإِن الله يُبغض مِنْهُ ذَلِك، كَمَا

قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ﴾ يعني لو كنتم أحباءه ما عذبكم، هل الله يعذب أحباءه؟

وأما قولهم: ﴿نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ﴾، فما يقصدون حقيقة البُنوّة، وإنما يقصدون أنهم من الذين يتولاهم ويقوم على مصالحهم وعلى ملاذهم وغير ذلك، كما يقوم الأب على ابنه، ومعلوم أن الأب يحاول ألا ينال ابنَه أيُّ عذاب، فهذا مقصودهم، أما أنهم يدّعون أن لله أبناءً، فهذا إذا وقع فهو من قلة منهم، واحد أو ما أشبه ذلك، والذي قال: إن الله فقير، رجل واحد، وكذلك الذين قالوا: إن الله بخيل، ولكن بقيتهم يرضون، ولهذا نسب إليهم عمومًا.

يحب مِنْهُ مَا يَفْعَله من الخَيْر، إِذْ حبه للعَبد بِحَسب إيمَانه وتقواه.

ومن ظن أَن الذُّنُوب لَا تضره لكَون الله يُحِبهُ، مَعَ إصراره عَلَيْهَا، كَانَ بِمَنْزِلَة من زعم أَن تنَاول السم لَا يضرّهُ مَعَ مداومته عَلَيْهِ وعدم تداويه مِنْهُ، لصِحَّة مزاجه! ولَو تدبر الأحمق مَا قصّ الله في كِتَابه من قصَص أنبيائه، ومَا جرى لَهُم من التَّوْبَة والِاسْتِغْفَار، ومَا أصيبوا بِهِ من أَنْوَاع البلَاء الَّذِي فِيهِ تمحيص لَهُم وتطهير، بِحَسب أَحْوَالهم، عَلِمَ بعض ضَرَر الذُّنُوب بأصحابها ولَو كَانَ أرفعَ النَّاس مقَاماً، فإن المحب للمخلوق إذا لم يكن عَارِفاً بمحابّه، ولَا مرِيداً لَهَا، بل يعْمل بِمُقْتَضى الحبّ وإن كَانَ جهلاً وظلماً، كَانَ ذَلِك سَبباً لِبُغْض المحبوب لَهُ، ونفورِه عَنه، بل سَبباً لعقوبته.

وكثير من السالكين سلكوا في دَعْوَى حب الله أنواعًا من أُمُور الجَهْل بِالدّينِ: إِمَّا من تعدِّي حُدُود الله، وإِمَّا من تَضْييع حُقُوق الله، وإِمَّا من ادِّعَاء الدَّعَاوَى البَاطِلَة الَّتِي لَا حَقِيقَة لَهَا، كَقَوْل بَعضهم: أَيُّ مُرِيدٍ لي ترك في النَّار أحدًا فأَنا برِيء مِنْهُ، فقال الآخر: أيُّ مُرِيد لي ترك أحدًا من المؤمِنِينَ يدْخل النَّار فَأَنا مِنْهُ بَرِيء. فالأول جعل مريده يُخرج كل من في النَّار! والثَّانِي جعل مريده يمْنَع أهل الكَبَائِر من دُخُول النَّار!

قول بعضهم: «**أَيُّ مُرِيدٍ لي ترك في النَّار أحدًا فأَنا برِيء مِنْه**» معنى كلامهم أنه حتى فرعون وإبليس ما يريدون أن يكونا في النار، بل يخرجونهما! وهذا جنون، والجنون فنون، قد يتعدى المعقول! كأن النار والجنة بأيديهم يتصرفون فيهما، وهذا لا يكفي أن يقال: إنه جنون، بل هذا خروج عن جنس العقل.

والمريد في لغتهم وفي اصطلاحهم، هو التلميذ الذي يتبع شيخه ويطيعه ويتأدب بآدابه.

ويَقُول بَعضهم: إذا كَانَ يَوْم الْقِيَامَة نصبتُ خَيْمَتي على جَهَنَّم حَتَّى لَا يدخلهَا أحد[١].

وأمثال ذلك من الأقوال التي تؤثر عن بعض المشايخ المشهورين، وهي إما كذب عليهم، وإما غلط منهم.

قول بعضهم: «**نصبت خيمتي**» أيش خيمته! هو يخرج من هذه الدنيا بكفن يُستر به بدنه، ثم يتمزق بسرعة، ويصبح أفقر ما يكون، وسوف يخرج من قبره كيوم ولدته أمه، حافيًا عاريًا لا يملك نعالًا ولا يملك ما يستر به عورته، لا يكون عنده شيء، ولكن هذا جهل وضلال، نسأل الله العافية.

فمثل هذا كيف يسمى شيخًا! ويكون يقتدى به! لولا أن الناس يقعون في جهل فظيع، فيدعي العلم من ليس أهلًا له، ويدعي السلوكَ والأدب مع الله وعبادتَه من هو من أبعد الناس، من هو كإبليس أو أبعد من ذلك، وهكذا الشيطان يضحك ببني آدم، كما أخبرنا ربنا جل وعلا أنه أقسم لله أنه سوف يحتنكن ذرية بني آدم، قال الله تعالى: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسرَاء: ٦٢]، ما معنى يحتنكن؟ أي يجعلهم تحت حنكه يتصرف فيهم كيف يشاء، ويصرّفهم كيف يريد، واستثنى من ذلك عباد الله المخلصين، الذين خلّصهم الله جل وعلا من اتباع الشيطان.

وهؤلاء من أكبر أتباع الشيطان، لأنه يَغتر بهم مَن يغتر، ممن يرون أنهم أولياء. ومن عجائب الإنسان في سلوكه وتصرفه، أنه أحيانًا يتصرف تصرفًا أقبحَ من تصرف الحيوانات، وأقبح من تصرف الكلاب! والله

---

(١) هذا الكلام منسوب لأبي يزيد البسطامي، أخرجه عنه ابن الجوزي بسنده في تلبيس إبليس ص٣٠٢.

ومثل هَذَا قد يصدر في حَال سكر وَغَلَبَة وفناء يَسْقط فِيهَا تَمْيِيز الإِنْسَان، أو يضعف حَتَّى لَا يدْرِي ما قال. والسكر هُوَ لَذَّة مَعَ عدم تَمْيِيز، ولِهَذَا كَانَ مِن هَؤُلَاءِ مَن إِذا صَحا اسْتغْفر من ذَلِك الكَلَام.

ربما تكون الكلاب أحسن منه.

ومن أراد أن ينظر إلى شيء من ذلك فليقرأ بعض الكتب لهم التي يسمونها طبقات الأولياء! ومن العجيب كيف تطبع مطابع المسلمين هذه الكتب وتنشرها بين المسلمين؟ مثل كتب الشعراني وكتب النبهاني، جامع كرامات الأولياء وغيرها، كلها دعوة إلى الشرك والكفر بالله إلا ما شاء الله، حتى يذكر فيها شيئًا يخجل منه الإنسان!

ونذكر هذا من باب التحذير ومن باب العبرة، وإلا فقد يزيغ القلب، ويصبح القبح عنده حسنًا، فهذا الشعراني يقول في بعض سادته وكبرائه من شيوخه، يقول: أحدهم يأتي إلى المسجد يخطب الناس وليس عليه مزعة ثياب، بل كما ولدته أمه، إلا أنه له شعور وله مناظر قبيحة، والنظر إلى الصغير مثلًا قد يكون مستساغًا، أما الكبير فالنظر إليه قبيح جدًّا، فكيف يذكر هذا ويجعله من المناقب؟

ما هو وجه جعله من المناقب عنده؟ يقول: إنه لا يبالي بالقادح والمادح، يعني أصبح لا عقل له، ويذكر من هذا القبيل أشياء كثيرة، كيف مثل هذا الكتاب تنشر به هذه الأشياء، ثم يطبع وينشر ويقرأ، ويقال: إنه طبقات الأولياء، فالواقع أنه طبقات الشياطين، ولكن شياطين من بني آدم، من جنس هؤلاء الذين يذكرهم هنا شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، فهم موجودون في كل بلد، وفي كل وقت، نسأل الله العافية.

قوله: «**حال سكر**» ليس المراد بالسكر هنا سكر الخمر، وإنما سكر عقلي، لأن الشيطان يستولي عليهم، وحين يسمعون الغناء تذهب

والَّذين توسعوا من الشُّيُوخ في سَماعِ القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام، كَانَ هَذَا أصلَ مقصدهم، فإِن هَذَا الجِنْس يُحَرك مَا في القلب من الحبّ كَائِناً مَا كَانَ.

ولِهَذَا أنزل الله محنةً يمْتَحن بهَا المحب، فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١].

فلَا يكون محباً لله إِلَّا من يتبع رَسُولَه، وطَاعَة الرَّسُول ومتابعته

عقولهم، ويصيبهم هذا الذي يسمونه الوجد، فإذا تواجدوا ذهبت عقولهم نهائيًا، فيرقصون ويغنون حتى يستولي الشيطان على قلوبهم، ثم يتصرفون تصرف البهائم، وإلا فالبهائم أحسن منهم، ثم إذا قيل للواحد منهم: إنك فعلت كذا وكذا، ينكر هذا، يقول: ما وقع مني شيء، لأنه قد ذهب عقله عند ذلك.

قوله: «**يُحَرك مَا في القلب من الحبّ كَائِنًا مَا كَانَ**» يحرك حب الشهوات، وإن زعموا أن هذا حب لله، فهو كذب، بل حب للأغاني والنغمات الجميلة، وقد يكون حب للصبيان المردان، وقد يكون حب النسوان، ولهذا يجتمعون جميعًا، وتحصل هذه الأشياء منهم، نسأل الله العافية، فكل ما خالف ما جاء به المصطفى ﷺ لا ينتج عنه إلا الضلال والبعد عن الله جل وعلا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ هذه الآية يسمونها آية المحنة، لأن فيها الامتحان، امتحان الذين قالوا: إنا نحب الله حبًا شديدًا، فأنزل الله جل وعلا هذه الآية، فعلامة محبة الله التمسك بما جاء به المصطفى ﷺ، أما أن يدعي الإنسان أنه يحب الله ويحب الرسول وهو يخالف أمره، فهذه دعوى غير مقبولة وغير مستساغة.

لَا تكون إِلَّا بتحقيق العُبُودِيَّة، وكثير مِمَّن يَدّعِي المحبَّة يخرج عَن شَرِيعَته وسنته ﷺ، ويَدّعِي من الحَالَات مَا لَا يَتَّسِع هَذَا الموضع لذكره، حَتَّى قد يظنّ أحدُهم سُقُوطَ الأمر، وتَحْلِيلَ الحَرَام لَهُ، وغيرَ ذَلِك مِمَّا فِيهِ مُخَالفَة شَرِيعَة الرَّسُول وسنتِه وطاعته.

بل قد جعل الله أساسَ محبتِه ومحبةِ رَسُوله الجِهَادُ في سَبيله، والْجِهَاد يَتَضَمَّن كَمَال محبَّة مَا أَمر الله بِهِ، وكَمَالَ بُغض مَا نهى الله عَنه، ولِهَذَا قال في صفة مَن يُحِبهُمْ وَيُحِبُّونَهُ: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المَائدة: ٥٤].

ولِهَذَا كَانَت محبَّة هَذِه الأمة لله أكملَ من محبَّة مَن قبلهَا، وعبوديتُهم لله أكملَ من عبودية من قبلهم. وأكمل هَذِه الأمة في ذَلِك هم أَصْحَاب مُحَمَّد ﷺ، ومن كَانَ بهم أشبهَ كَانَ ذَلِك فِيهِ أكملَ، فأَيْنَ هَذَا من قوم يدّعونَ المحبَّة؟!

وفِي كَلَام بعض الشُّيُوخ: المحبَّة نَار تُحرق في القلب مَا سوى مُرَاد المحبوب. وأَرَادُوا أَن الكَوْن كُله قد أَرَادَ الله وجودَه، فظنوا أَن كَمَال المحبَّة أَن يحب العَبْد كل شَيْء! حَتَّى الكفْر والفسوق والعصيان!.

وقوله: «**ولِهَذَا كَانَت محبَّة هَذِه الأمة**» ليس مراده كلَّ الأمة، ففي الأمة من يفعل ما ذكره قبل قليل من الأشياء، ولكن مقصوده الذين اتبعوا الرسول ﷺ، واقتدوا به، وأطاعوا أمره، واجتنبوا ما نهى عنه.

قوله: «**أراد الله وجودَه**»، هذه الإرادة الكونية، أي أنه لا فرق عندهم بين الإرادة الكونية والإرادة الدينية، فهم يقولون: نحن في طاعة دائمة لا نخرج عنها، وهذا قصور وضلال بين، فإذن يكون الشيطان أيضًا في طاعة، لأن الله أراد وجوده وأراد كونه.

ولَا يُمكن لأحد أَن يحب كل مَوْجُود، بل يحب مَا يلائمه وينفعه، ويُبغض مَا يُنَافِيهِ ويضره، ولَكِن استفادوا بِهَذَا الضلالِ اتِّبَاعَ أهوائهم، ثمَّ زادهم انغماساً في أهوائهم وشهواتهم، فهم يحبونَ مَا يَهْوَوْنه، كالصُّوَر والرئاسة وفضول المَال والبدع المضلة، زاعمين أَن هَذَا من محبَّة الله! ومِن محبَّة الله بغضُ مَا يُبغضه الله وَرَسُولُه، وجِهَادُ أَهلِه بِالنَّفسِ والمال.

وأصل ضلالهم: أَن هَذَا القَائِل الَّذِي قال: إِن المحبَّة نَار تُحرق مَا سوى مُرَاد المحبوب، قصَدَ بِمُرَاد الله تعالى: الإِرَادَةَ الكونية في كل الموجودات.

أما لَو قال مُؤمن بِالله وكتبه ورُسُله، هَذِه المقَالة، فإِنَّهُ يقْصد الإِرَادَةَ الدِّينِيَّةَ الشَّرْعِيَّة الَّتِي هِيَ بِمَعْنى محبته ورضَاهُ، فكَأَنَّهُ قال: تُحرق من القلب مَا سوى المحبوب لله. وهَذَا معنًى صَحِيحٌ، فإِن من تَمام الحبّ لله أَلّا يحب إِلَّا مَا يُحِبهُ الله، فإِذا أَحْبَبْتَ مَا لَا يحب كَانَت المحبَّة نَاقِصَة.

وأمّا قَضَاؤُهُ وقدرُه فَهُوَ يُبغضه ويكرهه ويسخطه وَينْهى عَنه، فإِن لم أوافقه في بغضه وكراهته وسخطه، لم أكن محبّاً لَهُ، بل محبّاً لما يُبغضه.

قوله: «**وأما قضاؤه وقدره فهو يبغضه ويكره ويسخطه**»، أي لا يلزم أن يكون القضاء كله محبوبًا، لأن القضاء والقدر قد يتفق مع الأمر، فإذا كان متفقًا فهو يحبه، أما إذا كان مخالفًا للأمر فهو يُبغضه، فالله جل وعلا أراد أن توجد المتضادات حتى يتبين الحق من الباطل، ويتبين المجاهد من غيره، وإلا فلو لم يوجد الكفر ويوجد الشرك لما تبين الذين يجاهدون في إنكاره وفي إزالته، نسأل الله جل وعلا أن يوفقنا للحق ويهدينا إليه.

فاتباع هَذِه الشَّرِيعَة والقِيَام بِالجِهَادِ بهَا من أعظم الفروق بَين أهل محبَّة الله وأوليائه الَّذين يُحِبّهُمْ ويُحِبُّونَهُ، وبَين من يَدّعِي محبَّة الله نَاظراً إِلى عُمُوم ربوبيته، أَو مُتبعاً لبَعض البدع المخَالفَة لشريعته، ...

«**محبة الله**» هي محبة تأله وخضوع وذل، ولا بد أن تشتمل على الخوف والرجاء، يخاف ربه جل وعلا أن يعاقبه بذنوبه، ويرجو ثوابه ورحمته وعفوه، فيكون محبًا لله جل وعلا حبَّ خضوع وذل وعبادة، وهذا شيء يخص الله، لا يجوز أن يشاركه المخلوق فيه.

أما المحابّ الأخرى فهي ـ كما سبق ـ تكمّل محبة الله، لأنها تكون محبةً له ومحبة فيه، مثل محبة الرسول ﷺ، ومحبة من يطيع الله.

ثم دليل هذه المحبة امتثال أمره واجتناب نهيه، فإذا رأيت الرجل حريصًا على فعل ما أمره الله جل وعلا به، ومجتنبًا لما نهاه الله عنه، فهذا عنوان ودليلُ محبته لربه جل وعلا، وإذا رأيته متساهلًا متهاونًا لا يبالي، فتكون المحبة ضعيفة أو قد تكون معدومة لا وجود لها، والناس يتفاوتون في هذا تفاوتًا عظيمًا.

فالمقصود: أن المحبة لها دليل، ودليلها مثل ما قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٣١]، فالآية تدل على أن الذي لا يتبع الرسول ﷺ فإن الله لا يحبه، وهذا جاء التصريح به في آيات عدة، يقول الله جل وعلا: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النِّسَاء: ٨٠]، ويقول جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٦٥]، وتحكيمه يكون في كل شيء، في العقائد وفي الأعمال وفي كل ما يقع الإنسان فيه، ولهذا قال: ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النِّسَاء: ٦٥]، ومعنى شجر أي ما حصل الخلاف فيه.

فإذا لم يحكّم الرسول ﷺ في الاتباع وفي الخلاف وفي العقائد وفي

فإن دَعْوَى هَذِه المحبَّة لله من جنس دَعْوَى اليَهُود والنَّصَارَى المحبَّة لله، بل قد تكون دَعْوَى هَؤُلَاءِ شرّاً من دَعْوَى اليَهُود والنَّصَارَى، لما فيهم من النِّفَاق الَّذين هم بِهِ في الدَّرك الأَسْفَل من النَّار، كَمَا قد تكون دَعْوَى اليَهُود والنَّصَارَى شرّاً من دَعوَاهُم إِذا لم يصلوا إِلَى مثل كفرهم.

وفي التَّوْرَاة والإِنْجِيل من التَّرْغِيب في محبَّة الله مَا هم متفقون عَلَيْهِ، حَتَّى إن ذَلِك عِنْدهم أعظم وَصَايَا الناموس.

ففي الإِنْجِيل، أعظمُ وَصَايَا المسِيح: «أَن تحب الله بِكُل قَلْبك وعقلك ونفسك»، والنَّصَارَى يدّعونَ قيامهم بِهَذِهِ المحبَّة، وأَن مَا هم فِيهِ من الزّهْد والعِبَادَة هُوَ من ذَلِك، وهم بُرَآءُ من محبَّة الله، إِذْ لم يتبعوا مَا أحبه، بل ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محَمَّد: ٢٨].

الأعمال كلها، فهو لم يحب ربه جل وعلا الحبَّ الواجب الذي به ينجو من عذاب الله.

ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «**فإن دعوى هذه المحبة لله من جنس دعوى اليهود والنصارى**»، لأن اليهود والنصارى قالوا ـ كما أخبر الله جل وعلا عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المَائدة: ١٨]، فردّ عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المَائدة: ١٨]، أي لو كنتم أحباب الله لما عذبكم، ولكنكم عصيتم الله فعذبكم بذنوبكم، فالدعوى غير مقبولة حتى يكون لها دليل.

ثم ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ أن من هذه الأمة من يكون أشر من اليهود والنصارى، فهم يدّعون دعاوى مجردة عن الفعل وعما يكون في القلوب من أعمال مثل الخوف والرجاء والخشية والإنابة وغير ذلك، التي هي أصل الأعمال.

والله يُبغض الكَافرين ويمقُتهم ويلعنهم، وهُوَ سُبْحَانَهُ يحبّ من يُحِبهُ، لَا يُمكن أَن يكون العَبْد محباً لله، والله تعالى غير محب لَهُ، بل بِقدر محبَّة العَبْد لرَبه يكون حب الله لَهُ، وإِن كَانَ جَزَاءُ الله لعَبْدِهِ أعظمَ، كَمَا في الحَدِيث الصَّحِيح الإلهي عن الله تعالى أَنه قال: **«من تقرّب إِلَيّ شبْراً تقربتُ إِلَيْهِ ذِرَاعاً، ومن تقرب إِلَيّ ذِرَاعاً تقربت إِلَيْهِ باعاً، ومن أَتَانِي يمشي أَتَيْتُه هرولة»**[(١)].

ثم يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «**والله يُبغض الكافرين ويمقتهم ويلعنهم**»، يعني أن من خالف أمر الله جل وعلا وعصى رسله فإنه يُبغضه، والمقت هو أشد البغض.

ثم يقول شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: «**وهو سبحانه يحب من يحبه**»، ولكن يحبه بفعله، باتباع رسوله وامتثال أمره واجتناب نهيه.

ثم ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ الحديث الإلهي، والإلهي نسبة إلى الله، أي أنه قول منه جل وعلا، ويسمى أيضًا الحديث القدسي، فهو ما أضيف إلى الله قولًا ومعنًى، بخلاف الحديث النبوي فإنه ما أضيف إلى النبي ﷺ قولًا ولفظًا، ومعناه يكون من الله، لأن الله جل وعلا يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النّجم: ٣-٤]، فأخبر أن كل ما ينطق به الرسول ﷺ فهو وحي، ولكن الحديث الإلهي لفظه ومعناه من الله جل وعلا.

وقول الله تبارك وتعالى: «**من تقرب إلي شبرًا تقربت إليه ذراعًا..**»، هذا الحديث اختلف بعض العلماء في معناه، مع أنه ظاهر وواضح، فمنهم من يثبت هذه الأشياء لله جل وعلا أنه يتقرب إلى عبده بالمسافات

---

(١) أخرجه البخاري (٧٥٣٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وأخرجه البخاري (٧٤٠٥) ومسلم (٢٦٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقد أخبر الله سُبْحَانَهُ أَنه يحب المتَّقِينَ، والمحسنين، والصَّابِرِينَ، و﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢].

وبالمشي وبالهرولة، وهذا بعيد، لأن قوله: «**من تقرب إلي ذراعًا.. تقرب إلي شبرًا.. أتاني يمشي**»، من المعلوم أن العبد يتقرب إلى الله بالطاعة، وليس بالمسافات والأذرع والأشبار والجري والمشي، وإنما هذا عبارة عن السرعة في فعل الطاعة والانقياد لها بالقوة أو بالضعف، على حسب ما يقوم في قلب الإنسان.

وهذا القدر المتعلق بالعبد متفقون على معناه، أن العبد يتقرب إلى الله بالطاعة وليس بالمسافات والأذرع وغيرها، ولما كان الناس يتفاوتون في هذا، منهم من يكون انقياده وطاعته كاملة، فيكون كالذي يجري بسرعة، ومنهم من يكون أقل من ذلك.

ثم إذا جاؤوا إلى المقابل الذي أضيف إلى الله اختلفوا في معناه! والحق أن المقابل لما يقوم بالعبد مثل الذي يقوم به، فإذا كان العبد يتقرب إلى ربه جل وعلا بالطاعات، فالله يتقرب إليه بما يناسب ذلك، يعني بالقبول والإثابة، وإسراع قبول التوبة وغيرها، فلا يكون فيه إثبات مشي ولا هرولة ولا غيره، وهذا هو ظاهر قول الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ الطهارة نوعان: معنوية وحسية.

والطهارة المعنوية مقدمة على الطهارة الحسية، فهو جل وعلا يحب المتطهرين من الحدثين: الحدث الذي هو مخالفة الله جل وعلا ومخالفة رسوله، والتطهر من ذلك بالتوبة والرجوع إلى الله.

ويحب المتطهر من الأحداث التي تعنّ للرجل فتمنعه من الصلاة ونحوها، يكون التطهر بالمياه من وضوء وغسل ونحو ذلك.

بل هُوَ يحبّ مَنْ فَعَلَ ما أَمر بِهِ من وَاجِب ومستحب، كَمَا في الحَدِيث الصَّحِيح: «**لَا يزَال عَبدِي يتَقرَّب إِلَيّ بالنوافل حَتَّى أحبه، فإِذا أحببتُه كنت سَمعَه الَّذِي يسمع بِهِ، وبصرَه الَّذِي يُبصر بِهِ**» الحَدِيث[1].

وهذا الحديث أيضًا أشكل على بعض الناس، فقوله: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل**»، أي بعد أداء الفرائض، لأنه في الحديث: «**إن الله لا يقبل من العبد النوافل حتى يؤدي ما افترض عليه**»، وفي الحديث الآخر «**أحب ما يتقرب به العبد ما افترض الله عليه**»، فيجب أن يعتنى بالفرض أكثر من النوافل.

أما من يعتني بالنوافل ويقصر في الفرائض فهذا إما من قلة فهمه وفقهه، أو أنه بحيث لا يبالي بذلك، بل يفعل الأشياء حسب فراغه وحسب ميوله، فهذا يكون مقصرًا في العلم وفي العمل.

والنافلة هو كل عمل صالح لم يفترض عليه، وهذا أنواع، لأن أبواب الخير واسعة وكثيرة جدًّا، من الصلاة والصدقات والذكر وتلاوة القرآن، وإرشاد الناس وتعليمهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، حسب ما أمر الله جل وعلا به.

وقد قال النبي ﷺ في حديث معاذ: «**ألا أدلك على أبواب الخير**»، قال له: بلى! قال: «**الصوم جنة**»، ومراده نوع الصوم، ومعنى جنة: ستر تستتر به، ووقاية تتقي بها عذاب الله جل وعلا، ثم قال: «**والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار**»، فهذا نوع آخر، ثم قال: «**وصلاة المرء في جوف الليل**»، أي أنها تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار.

ثم قال له: «**ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه**»، قلت:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

. . . .

بلى! قال: «**رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد**»، ثم قال: «**ألا أخبرك بِمِلاكِ ذلك كله**»، ومِلاك الشيء هو الذي تستطيع به أن تملك هذه الأبواب وتسيطر عليها، قلت: بلى! فأخذ بلسان نفسه فقال: «**كُفَّ عليك هذا**»، فقلت: أنؤاخذ بما نتكلم به؟ قال: «**ثكلتك أمك! وهل يكب الناس على مناخرهم ـ أو قال ـ على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم**»[1]، لأن هذا يدخل في الأبواب كلها، فإذا رأيت الرجل يراعي كلامه ولا يتكلم إلا بالشيء الذي ينفع، فمعنى ذلك أنه مالك لأمره، ومراع لأعماله، ومحاسب لنفسه، ومراقب لربه جل وعلا، أما إذا كان يُطلق لسانه في كل شيء، فقد يقع في أشياء كثيرة فيها غوائل تغتاله.

فالمقصود أن قوله: «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**»، صريح في أن الله يحب العبد، ولكن يحب من يطيعه، وكلما كثرت الطاعة ازداد حب الله له.

يقول الله: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به..**»، وفي هذا الحديث إشكال عند بعض الناس، كيف يكون اللهُ جل وعلا السمعَ؟ ويكون البصرَ؟ ويكون اليدَ؟ ويكون الرِّجْلَ؟، ثم كيف يتردد؟

ونقول: إن الرسول ﷺ إذا تكلم بشيء فهو يتكلم ببيان واضح لا إشكال فيه، ولكن يجب أن يُحقق، ولا يحمل على الشيء الذي يصطلح عليه الناس، ويتعارفونه فيما بينهم فقط، بل ننظر إلى لغة الرسول ﷺ، فمعنى قوله: «**كنت بصره الذي يبصر به**»، أي أنه يصبح بصرُه لله، فإذا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠١٦)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

وكثير من المخطئين الَّذين ابتدعوا أَشْيَاءَ في الزّهْد والعِبَادَة، وَقَعُوا فِي بعض مَا وَقع فِيهِ النَّصَارَى، من دَعْوَى المحبَّة لله، مَعَ مُخَالفَة شَرِيعَته، وترك المجاهدة في سَبيله، ونَحْو ذَلِك، ويتمسكون في الدِّين الَّذِي يَتَقَرَّبُون بِهِ إِلَى الله بِنَحْوِ مَا تمسك بِهِ النَّصَارَى من الكَلَام المتَشَابه، والحكايات الَّتِي لَا يُعرفُ صدقُ قَائِلِهَا، ولَو صدق لم يكن قَائِلُهَا مَعْصُوماً، فيجعلون متبوعيهم شارعين لَهُم دِيناً كَمَا جعل النَّصَارَى قِسِّيسيهِم ورُهْبَانَهمْ شارعين لَهُم دِيناً.

نظر فهو ينظر لله إما مفكِّرًا ومعتبِرًا بمخلوقات الله جل وعلا، وإما جالبًا بنظره طاعة الله، ولا ينظر إلى معصية، وكذلك السمع يستمع ما ينفعه، وهذا كله بتوفيق الله، فإذا كان العبد هكذا صار نظره طاعة، وبصره طاعة، وصار عطاؤه وأخذه بيده طاعة لله، ومشيه برجله طاعة لله، فتصبح تصرفاته كلها طاعة، فهذا معنى قوله تعالى: كنت سمعه وبصره ويده ورجله.

ثم إن التردد فسر في نفس الحديث، فلا نقول كما يقول بعض الناس: إن من صفات الله صفة التردد! هذا لا يجوز أن يقال، بل فسره ربنا جل وعلا بقوله: «**يكره الموت وأنا أكره مساءته ولا بد له منه**»، فهذا معنى التردد المذكور، يعني أن يفعل الشيء الذي يكرهه، ولكن لا بد من فعله، لأن هذه الحياة ليست بمقر، بل هي ممر، ولا بد من الموت ومقدماته من مرض وغيره، فهو واضح وليس فيه إشكال.

وقوله: «**وقعوا في بعض ما وقع فيه النصارى**» يعني أن بعض الكلمات التي يقولونها ويدّعونها لا تدل على الحقيقة، بل يكون فيه كذب، كالذي يقول: أنا لا أعبد الله خوفًا من النار ولا طمعًا في الجنة، وإنما أعبده حبًا له، وآخر يقول: إن كنت أعبد الله جل وعلا لأجل الجنة أو خوفًا من النار، فهو يسأل الله أن يُحرقه بالنار!

. . . .

وهذا في الواقع كذب ظاهر، فكلٌّ يعرف أنه كذب، فمثلًا لو وضع الإنسان في النار لما استطاع أنه يصبر، بل إذا أصيب بألم تجده يسرع بطلب الشفاء، وأخذ العلاج، وبدعاء الله أن يشفيه.

فالإنسان ضعيف، ولكن الدعاوى عريضة، قد يدّعي دعاوى هو فيها كاذب مثلما ذكرنا، وإلا فلو كان الأمر كما يقول، فلماذا ربنا جل وعلا يكثر من ذكر الجنة والنار، والنعيم والعذاب؟ حتى يكون هذا مانعًا من اقتراف المعاصي وداعيًا للطاعات، فهو ترغيب وترهيب، والإنسان محتاج إلى هذا، وهو في أمس الحاجة إلى ذلك.

فعلى العبد العاقل أن يسأل ربه العافية دائمًا، في الدنيا والآخرة، قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، علمني شيئًا أسأله الله عز وجل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**سل الله العافية**»، فمكثت أيامًا، ثم جئت فقلت: يا رسول الله، علمني شيئًا أسأله الله، فقال لي: «**يا عباس، يا عم رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة**»[(١)]، فالإنسان يسأل الله أن يعافيه من الألم ومن الفتنة ومن غير ذلك، والإنسان ضعيف لا بد له من العمل والسبب الذي يقيه من المؤذيات والمؤلمات، ولا بد له من الشيء الذي يفرح به ويتنعم به، وإلا هلك.

فالمقصود أن الإنسان ظلوم جهول، يجهل الأشياء، ثم هو يظلم نفسه، يجهل ربه، كما قال الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦﴾ [الانفطار: ٦]، فهو غرور جهول وظلوم، ومعلوم أنه إذا اجتمعت هذه الصفات في الإنسان فإنها قد تهلكه إن لم يتداركه الله جل وعلا برحمة منه.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٦٦، ١٧٨٣)، والترمذي (٣٥١٤)

ثمَّ إِنَّهُم ينتقصون العُبُودِيَّة، ويدّعونَ أَن الخَاصَّة يتعدَّوْنها، كَمَا يَدّعِي النَّصَارَى في المسِيح والقساوسة، ويُثبتون لخاصتهم من المشَاركَة في الله من جنس مَا تثبته النَّصَارَى في المسِيح وأمِّه والقسيسين والرهبانِ، إِلَى أَنْوَاعٍ أُخَرَ يطول شرحها في هَذَا الموضع.

وإِنَّمَا الدِّين الحق هُوَ تَحْقِيق العُبُودِيَّة لله بِكُل وَجه، وهُوَ تَحْقِيق محبَّة الله بِكُل دَرَجَة، وبقدر تَكْمِيل العُبُودِيَّة تكمل محبَّة العَبْد لرَبه، وتكمل محبَّة الرب لعَبْدِهِ، وبقدر نقص هَذَا يكون نقص هَذَا، وكلما كَانَ في القلب حب لغير الله، كَانَت فِيهِ عبودية لغير الله بِحَسب ذَلِك.

قوله: «**ويدّعونَ أَن الخَاصَّة يتعدَّوْنها**» يقصد بهذا أنهم يقسمون الشرع إلى ظاهر وإلى باطن، فيقولون مثلًا: العبادات الظاهرة مثل الصلاة والصوم والحج وما أشبه ذلك، هي مهمة الناس الذين يأخذون بالظاهر، وهي طريقة العوام، وأما الخواص فهم من وراء ذلك كله يأخذون بالبواطن والأمور التي يفسرونها بأنها هي الخلاصة والأصل.

والشرع ليس فيه ظاهر وباطن، فالرسول ﷺ أخبرنا أن دخول الجنة يترتب على شهادة أن لا إله إلا الله، أو عبادة الله وحده لا شريك له، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان والحج، هذه الأمور الخمسة من قام بها فهو من أهل الجنة، ولم يذكر الأمور التي يجعلونها هي الأساس، فهم في الواقع مخالفون للشرع وما جاء به الرسول ﷺ، مخالفة ظاهرة.

قوله: «**وبقدر تَكْمِيل العُبُودِيَّة تكمل محبَّة العَبْد لرَبه**» سبق أن العبودية فرض على كل عاقل، كل مكلف، وأن العبودية لا تكون إلا بما جاء به الرسول ﷺ، فإذا تعبد الإنسانُ بغير ما جاء به المصطفى ﷺ فهو مبتدع ضال، والبدع كلها ضلال، فلا تقبل من العبد، بل يكون طريقه وسلوكه مما هو سبب لعذابه وبُعدِه عن الله، وإن ادعى أنه يحب الله، لأن

وكلّ محبَّة لَا تكون لله فَهِيَ بَاطِلَة، وكل عمل لَا يُرَاد بِهِ وَجه الله فَهُوَ بَاطِل، فالدُّنْيَا ملعونة، مَلْعُون مَا فِيهَا إِلَّا مَا كَانَ لله[١]، وَلَا يكون لله إِلَّا مَا أحبه الله وَرَسُوله، وهُوَ المَشْرُوع.

الدعوى لا تقبل إلا بدليل كما سبق.

قوله: «**مَلْعُون مَا فِيهَا**» يعني أن الملعون ما كان مخالفًا لدين الله وشرعه، فالله جل وعلا شرع لعباده الشرائع وأمرهم بعبادته، فيكون الملعون الكفر والبدع والمخالفات، فليس في هذا متمسَّكًا لمن يزعم بأن الملعون المال والملعون التعلق بالدنيا وغيرها مما قد يَشغَل ويُلهي، لأن هذا أباحه الله لنا، ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، فهي خالصة للمؤمنين يوم القيامة، أما في هذه الدنيا فيشاركهم فيها الكفار، وهي ليست خالصة لهم، ولهذا إذا تغلب عليهم المؤمنون أخذوا الأموال وهي حل لهم، ويسمى هذا فيئًا، إذا تركوه خوفًا من المسلمين، والفيء هو الرجوع، يعني رجع إلى محله، فحين كان المال في يد الكفار كان عند من لا يستحق، لأنهم يأكلون نِعَمَ الله ويتقوَّون بها على معاصيه، وعلى الكفر به.

فالمقصود: أن هذا لا يشمل الأمور المباحة التي أباحها الله جل وعلا، كما يقوله بعض الذين لا يفهمون خطاب الله وخطاب رسوله ﷺ، فاللعن هو الطرد والإبعاد عن الرحمة والخير، فالدنيا الملعونة هي الكفر والبدع والضلالات التي فيها، أما ما كان يقصد به الآخرة، مما شرعه الله ومما أباحه الله، فلا يدخل في هذا.

ولهذا فمن السنن التي أمرنا بها وهي مستحبة، أن نسأل ربنا نقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وابن ماجه (٤١١٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

فكل عمل أُرِيد بِهِ غير الله، لم يكن لله، وكل عمل لَا يُوَافق شرع الله، لم يكن لله، بل لَا يكون لله إِلَّا مَا جمع الوصفين: أَن يكون لله، وأَن يكون مُوَافقاً لمحبة الله ورَسُوله.

[البَقَرَة: ٢٠١]، ومن الأمور الواجبة أن نطلب الرزق، ونطلبه من الله، ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ [العَنكبوت: ١٧]، كيف قدّم الرزق على العبادة؟ لأن طلب الرزق عبادة، فإذا أهمل الإنسان الواجب عليه من الغذاء له أو لأبنائه ومن تحت يده، فهو مسؤول عن هذا وظالم، سوف يسئل عن ذلك، **«كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت»**[1]. وطلب الرزق مما فطر الإنسان عليه، لذلك يجب على الإنسان أن يكون عنده نية وقصد حسن، حتى يثاب على هذا، فإذا طلب الرزق وأكل فعليه أن ينوي أنه يتقوى بهذا على طاعة الله، ويكف نفسه عن التطلع لما في أيدي الناس، فإذا كانت هذه نيته وهذا مقصوده صار أكله حسنات يثاب عليه.

وكذلك النوم، إذا نام ينوي بذلك أنه يتقوى على أداء الفرض وهو صلاة الفجر، يقوم بنشاط ويؤديها، ويكف سمعه وبصره عن النظر إلى ما لا يجوز، فإذا كانت هذه نيته، فيكون نومه عبادة، أما إذا غفَل عن ذلك صار النوم والأكل مباحًا، والمباح ليس لك ولا عليك، فلا تؤاخذ به ولا تثاب عليه.

فالمقصود أن لعن الدنيا قد يشكل على بعض الناس، وهو لا يدخل في الأمور المباحة التي أباحها الله جل وعلا، وأمر أن نطلبها منه جل وعلا، بل قد تكون هذه واجبة، وقد تكون مباحة فقط.

قَوله: **«وأن يكون موافقًا لمحبة الله ورسوله»** يعني يكون موافقًا للشرع الذي جاء به الرسول، هذا في العبادات كلها، وكل فعل أو قول أو عمل

---

(١) أخرجه أبو داود (١٦٩٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وهو الواجب والمستحب، كَمَا قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

فلَا بُد من العَمَل الصَّالح ـ وهُوَ الوَاجِب والمسْتَحب ـ، ولَا بُد أَن يكون خَالِصاً لوجه الله تعالى، كَمَا قال تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴿١١٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١١٢]، وقال النَّبِي ﷺ: **«من عمل عملاً لَيْسَ عَلَيْهِ أمرُنَا فهُوَ رَدٌّ»**[1]. وقال ﷺ: **«إِنَّمَا الأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ، وإِنَّمَا لكل امْرِئ مَا نوى، فمن كَانَت هجرته إِلَى الله ورَسُوله، فهجرَته إِلَى الله ورَسُوله، ومن كَانَت هجرته لدُنْيَا يُصِيبهَا أَو امْرَأَة يَتَزَوَّجهَا، فهجرَته إِلَى مَا هَاجر إِلَيْهِ»**[2].

أو اعتقاد لا يوافق ما جاء به الرسول فهو مردود.

قوله: «**وهو الواجب والمستحب**» أما المباح فلا يدخل في هذا إلا بالنية، فإذا نوى الإنسان الخير حصل له.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ العمل الصالح هو ما وافق الشرع، والشرط الثاني ألّا يشرك بعبادة ربه أحدًا.

قوله ﷺ: «**من عمل عملاً**»، وقوله: «**إنما الأعمال بالنيات**» يقول العلماء: هذان الحديثان اشتملا على كل ما جاء به الرسول ﷺ. فالأول ميزان للأعمال الظاهرة التي تعمل بالجوارح، والثاني للأعمال الباطنة التي هي أصل الأعمال كلها، فكل عمل لا بد أن يكون أصله النية، فالنية هي أعمال القلوب ومراداتها، ولهذا قال جل وعلا: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

. . . .

ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥ ـ ١٦].

وهذا الحديث يُذكر له سبب، وكثير من الأحاديث له أسباب، وسببه ـ فيما يقال ـ أن رجلًا خطب امرأة يقال لها: أم قيس، فأَبَتْ عليه وقالت: حتى تهاجر، فإن هاجرْتَ فلا بأس، وإن لم تهاجر فلا، فهاجر، فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فقال هذا الحديث[1].

ففي قوله: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»، جعل الأعمال كلها معتبرة بالنيات، وصحتها بالنيات، واعتبارها شرعًا بالنية، لهذا قال: «**فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله**»، يعني أنه تحصَّل على مراده ومقصوده، «**ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**»، يعني ليس له من الأجر والثواب إلا ما نوى.

فالمقصود: أن الأعمال الظاهرة مبناها على الأعمال الباطنة التي في القلب، لأن القلب هو الذي يبعث الجوارح، ولهذا سماه الرسول ﷺ ملك الأعضاء[2]، والملك هو الذي يأمر الجنود ويمتثلون لأمره، فالأعضاء جنود للملك، والمقصود عقل الإنسان وفكره الذي يدعوه إلى العمل، ولا بد للعاقل من ذلك، كما سبق، أن الذي يبعث على العمل هو النية، وإذا قام الإنسان يتوضأ، الذي أقامه نية الوضوء، وإذا جاء إلى

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩/١٠٣)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٨٠١٤).

(٢) أخرج البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «**ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صَلَحت صَلَح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».

وهَذَا الأَصْل هُوَ أصل الدِّين، وبحسب تَحْقِيقه يكون تَحْقِيق الدِّين، وبِهِ أرسل الله الرُّسُل، وأنزل الكتب، وإِلَيْهِ دَعَا الرَّسُول، وعَلِيهِ جَاهد، وبِه أَمر، وفِيه رغب، وهُوَ قطب الدِّين الَّذِي تَدور عَلَيْهِ رحاه.

المسجد، فمجيئه الذي جاء به هو النية أولًا سبقت الفعل.

ولهذا قال العلماء: النية محلها القلب، والتلفظ بها بدعة، فلا يتلفظ بها كما يقول بعض الناس إذا قام ليصلي قال: اللهم إني نويت أن أفعل كذا وكذا، فهذا قوله نويت أيريد أن يُعلِم ربه بما في قلبه! هذا مخالف لشرع النبي ﷺ.

فالمقصود أنه لا بد للإنسان في العمل أن يكون عمله على وفق الشرع، وأن يكون خالصًا لله جل وعلا، وهذان شرطان في كل عمل يعمله، ولا يقبل العمل بدون ذلك.

قوله: «**وهو قطب الدين**» القطب هو ما يجعل في وسط الرحى لتدور عليه، أو ما يسمى بالغِيّة، التي تركز في الأرض ثم يُجعل فيها حبل طويل، وتربط الدابة بهذا الحبل، فترعى مما حولها وهي تدور على هذه الغِيّة، وهي القطب، ولهذا يسمى الفلك التي تدور عليه بقية الأفلاك يسمى قطبًا، والأفلاك الظاهرة التي تشاهد في السماء تدور على قطبين، قطب يمين وقطب شمال، وهي مشاهدة، إلا أن الذي جهة الجنوب بعيد لا نشاهده، أما جهة الشمال فهو قريب لنا ونشاهده، فالنجوم تدور عليه ولهذا يسمى قطبًا.

ومعنى ذلك أن الشرع الذي شرعه الرسول أمره قطب، والنية قطب، أن تكون النية خالصة صالحة، يراد بها وجه الله جل وعلا.

والشرك غَالب على النُّفُوس، وهُوَ كَمَا جَاءَ في الحَدِيث: «**هُوَ في هَذِه الأمة أخْفى من دَبِيب النَّمْل**»(١).

وفي حَدِيث آخر: قال أَبُو بكر: يا رَسُول الله، كَيفَ ننجو مِنْهُ وهُوَ أخْفى من دَبِيب النَّمْل؟ فقال النَّبِي ﷺ: «**أعلمك كلمةً إذا قلتَها نجوتَ من دِقِّه وجِلِّه، قل: اللَّهُمَّ إِنِّي أعوذ بك أَن أشرك بك وأَنا أعلم، وأستغفرك لما لَا أعلم**»(٢).

وكَانَ عمر يَقُول في دُعَائِهِ: «اللَّهُمَّ اجْعَل عَمَلي كُلَّه صَالحاً، واجعله لوجهك خَالِصاً، ولَا تجْعَل لأحد فِيهِ شَيْئاً»(٣).

وكَثِيراً مَا يخالط النُّفُوسَ من الشَّهَوَات الخفية مَا يُفْسد عَلَيْهَا تَحْقِيقَ محبتها لله، وعبوديتَها لَهُ، وإخلاص دينِها لَهُ، كَمَا قال شَدَّاد

قوله: «**والشرك غالب على النُّفُوس**» ولهذا كثر الشرك في الناس، في الأمم السابقة وفي هذه الأمة، وهو أنواع كثيرة جدًّا، ولهذا أخبر أن منه ما هو خفي، حتى مثّل بما هو أخفى شيء، وهو دبيب النمل على الصفا وفي ظلمة الليل، من يشعر بهذا؟ هذا خفي جدًّا، وهو شرك النيات والمقاصد، لأن هذا يطلع عليه رب العالمين جل وعلا.

قوله ﷺ: «**أعلمك كلمةً إذا قلتَها..**» ويجب أن يقول هذا مع صدق في قلبه، وامتثال لأمر ربه، ولجوء صادق إلى ربه جل وعلا، حتى يعيذه من ذلك، أما مجرد قول وهو يفعل المخالفات فهذا لا ينفع.

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد (١٩٦٠٦).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦)، وأبو يعلى في مسنده (٥٨، ٦٠، ٦١)، من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أحمد في الزهد ص١١٨.

ابن أَوْس: يا نعايا العَرَب! يا نعايا العَرَب! إِن أخوف مَا أَخَاف عَلَيْكُم الرِّيَاءُ والشهوة الخفية[١].

وقوله: «**الشهوة الخفية**» الشهوة الخفية هي حب الرياسة والعلو على الناس والترؤس عليهم، والحظية بمدحهم والثناء عليه وإشارتهم إليه، فلان فيه كذا، وفلان فيه كذا، وهو الذي يحسن كذا، فهذا من الشهوات الخفية، ولهذا السبب نهى رسول الله ﷺ عن المدح في الوجه، بل المدح مطلقًا، لأن الإنسان قد يغتر بالمدح، قال: «**احثوا التراب في وجوه المداحين**»[٢]، لأن المدح في الغالب يكون كذبًا، وإذا مدحت في وجهك بما ليس فيك، فاعلم أن الذي مدحك سوف يذمك في غيبتك، ولهذا من الحِكَم التي تناقلها العلماء: من تكلم في حضرتك بما ليس فيك، فسيتكلم في غيبتك بما ليس فيك.

والمقصود: أن طبيعة الإنسان وما جبل عليه أنه يحب الترؤس والترفع على الناس، ويحب أن يثني عليه الناس ويمدحوه، حتى تحظى نفسه بالتقديم في المجالس وفي الكلام وفي غير ذلك، فهذا مما تحبه النفس وتميل إليه، حتى إن الإنسان قد يغالط نفسه، فإذا جاءه من يثني عليه ويمدحه، وهو يعلم أنه يُمدَح بما ليس فيه، فربما تجده يقول في نفسه: لعلي كما يقولون، ثم يميل إلى قولهم، فالإنسان ضعيف، وكل هذا من شهوات النفوس التي لا تنفع، بل تضر، ويترتب عليها مفاسد كثيرة، ولهذا فالنفس تحتاج إلى جهاد، فإن لم تجاهَد ويعرف الإنسان قدر النفس وخفاياها وغوائلها يقع في تلك المفاسد وهو لا يشعر.

ولهذا لما سمع الرسول ﷺ رجلًا يثني على آخر قال: «**ويلك! قطعتَ**

---

(١) أخرجه أبو داود في الزهد (٣٥١)، ويعقوب بن سفيان في المعرفة والتاريخ (١/ ٣٥٦).
(٢) أخرجه مسلم (٣٠٠٢) من حديث المقداد بن عمرو رضي الله عنه.

وقيل لأبي دَاوُد السجسْتاني: ومَا الشَّهْوَة الخفية؟ قال: حب الرِّئَاسَة[١].

وعَن كَعْب بن مَالك، عَن النَّبِي ﷺ أَنه قال: «**مَا ذئبانِ جائعان أُرسلا في زريبةِ غنم بأفسدَ لَهَا من حرصِ المرء على المال والشرف لدِينِه**»، قال التِّرْمِذِيّ: حَدِيث حسن صَحِيح[٢].

عنقَ صاحبك»! يقوله مرارًا، ثم قال: «**إن كان أحدكم مادحًا لا محالة فليقل: أحسب كذا وكذا، والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا**»[٣].

قوله: «**حب الرِّئَاسَة**» المراد بالرئاسة هنا الترفع على الناس مطلقًا، ولا يعني أن يكون رئيسًا كبيرًا فقط، بل يشمل ما إذا كان مقدمًا عند قوم ولو كانوا جماعة قليلة، فهذا يدخل فيه.

قوله: «**زريبة غنم**» هي ما تجتمع الغنم فيه، مثل الحظائر التي تبنى إما بشجر أو بما يمنعها من الذهاب، فإذا اجتمعت وجاءها ذئبان جائعان فلا يتركان فيها شيئًا، لأن طبيعة الذئب أنه لا يقتل الشيء الذي يكفيه ليأكله فقط، بل يقتل الغنم كلها، ليتركها لنفسه فيما بعد ويتردد عليها، حتى يقتاتها في أوقات طويلة، وهذا شيء مجرب، إذا وجد الذئب الغنم ليس معها أحد أفسدها فقتلها كلها. فإذا كان ذئبان جائعان فالمعنى أنهما يحيطان بالغنم، ولا يندّ منها شيء.

والشرف هو الرئاسة، والمال قد يستولي حبّه على النفس فيترك ما وجب عليه، فيجب أن يكون طلب هذا كله باعتدال، وباتباع لأمر الله جل وعلا. وهذا الحديث شرحه الإمام ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ برسالة مستقلة،

---

(١) أخرجه الخطيب في تاريخ بغداد (٩/٥٨)، وابن عساكر في تاريخ دمشق (٢٢/٢٠٠).
(٢) أخرجه أحمد (١٥٧٨٤)، والترمذي (٢٣٧٦).
(٣) أخرجه البخاري (٢٦٦٢) ومسلم (٣٠٠٠) من حديث أبي بَكْرة الثقفي رضي الله عنه.

فبيّن ﷺ أَن الحِرْص على المَال والشرف في إِفْسَاد الدِّين، لَا ينقص عَن إِفْسَاد الذئبين الجائعين لزريبة الغنم، وذَلِكَ بيِّن، فإِن الدِّين السَّلِيم لَا يكون فِيه هَذَا الحِرْص، وذَلِكَ أَن القلب إِذا ذاق حلاوة عبوديته لله ومحبته لَهُ، لم يكن شَيْءٌ أحبَّ إِلَيْهِ من ذَلِك حَتَّى يقدمَه عَلَيْه، وبِذَلِك يُصرَفُ - عَن أهل الإِخْلَاص لله - السوءُ والفحشاء، كَمَا قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: ٢٤].

وهي رسالة جيدة ينبغي أن تقرأ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ تقدم الكلام على هذه الآية، وفي كلمة ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ قراءتان، بكسر اللام، وبفتحها، وكلاهما حق، فالمخلِص بكسر اللام، اسم فاعل، وهو الذي أخلص لله جل وعلا أعماله، وصارت خافية خالصة ليس فيها شيء لغيره، والإخلاص هو المنجي، حتى إن الكفار المشركين كانوا إذا وقعوا في شدة أخلصوا لله فنجّاهم، كما قال الله جل وعلا: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: ٦٥].

فالإخلاص هو المفزَع الذي يفزع إليه العقلاء إذا وقعوا في أمر عظيم، ومن هذا حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فانطبقت عليهم الصخرة، فدعوا الله بأعمالهم الصالحة الخالصة لله، فنجاهم الله جل علا[(١)].

والقراءة الأخرى ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، بفتح اللام، اسم مفعول، وهم الذين اختارهم الله جل وعلا وجعلهم خلاصة الناس والعباد، فهم من اختيار الله وجل علا، وهاتان القراءتان تنطبق على يوسف عليه السلام.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله مَا يمنعهُ عَن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله مَا يمنعهُ عَن محبَّة غَيره، إِذْ لَيْسَ عِنْد القلب السَّلِيم أحلى ولَا ألذُّ ولَا أطيبُ ولَا أسرُّ ولَا أنعمُ من حلاوة الإِيمَان المتضمنِ عبوديتَه لله، ومحبتَه لَهُ، وإخلاصَ الدِّين لَه.

وذَلِكَ يَقْتَضِي انجذاب القلب إِلَى الله، فيصير القلب منيباً إِلَى الله، خَائفاً مِنْهُ، رَاغِباً رَاهِباً، ....

والسوء يكون عامًّا في كل ما يسوء الإنسانَ عاقبتُه، والذنوب كلها عاقبتها تسوء الإنسان، أما الفحشاء فالغالب أنها تطلق على الزنا وما يجلب إليه، لأنه فحش في نفوس أهل الاستقامة، فهو من أقبح الأشياء وأفحشها، قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢]، لأن سبيله سبيل سيئ خبيث.

قوله: «**فإن المخلص لله ذاق من حلاوة عبوديته لله مَا يمنعهُ عَن عبوديته لغيره**» وهذا في الدنيا، فالإنسان إذا كانت عبادته خالصة وصادقة، يجد لذة وراحة، وكان بعض السلف الذين يَعرفون هذه الأمور ويتحققون بها، يقول: أكرهُ شيء إليه أن يطلع الصبح، لأنه يتعبد ويتهجد ويخلو بربه، فيود أن الليل يمتد ويطول، حتى تطول صلته بربه وخلوته به، وكان بعضهم يقول عن مثل هذه اللذة والراحة: إذا كان أهل الجنة في مثل هذا النعيم فهم في نعيم عظيم.

وهذا هو الذي يشير إليه بعض العلماء الذين يتعبدون بالحق بقوله: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، ومقصوده بالجنة التلذذ بطاعة الله جل وعلا والأنس به وبقربه وعبادته، ولهذا كان بعضهم ينكر أن تكون العبادات تكاليف، يقول: ليست تكاليف، بل هي نعيم، نعيم القلوب، ولكن ما كلّ أحد يدرك هذا.

كَمَا قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾ [ق: ٣٣].

إِذِ المحب يخَاف من زَوَال مَطْلُوبه أَو عدم حُصُول مرغوبه، فَلَا يكون عبدُ الله ومحبُّه إِلَّا بَين خوف ورجاء، كَمَا قال تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ الإنابة هي كمال الطاعة والانقياد، أي ينقاد إلى ربه انقيادًا كاملًا، والخشية تتضمن الخوف والرجاء، وجعل هذه الخشية لله، ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [ق: ٣٣]، بالغيب يعني أن الله لا يشاهد، وإنما بالأخبار التي جاءت منه، فسمعها واتبعها.

قوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ الآية تدل على أن التنافس في الطاعة مطلوب، والوسيلة ليس معناها التعلق بالمخلوق، أو سؤال المخلوق، كما يظن بعض الناس، بل هذا شرك، فلا يكون وسيلة إلى الله، بل يكون هذا قاطعًا عن الله، وإنما الوسيلة: الطاعات التي تقرب إلى الله، فكل طاعة أمر الله بها وجاء بها الرسول ﷺ فهي الوسيلة التي توصل إلى مرضاة الله جل وعلا وإلى ثوابه.

وقوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ يعني كل واحد يريد أن يكون أقرب إلى الله من الآخر، فهذا الذي يدل على المنافسة في الطاعة، ينبغي أن نتنافس فيها، فلا يكون فلان أعلى منك درجة، بل ينبغي أن تسعى وتعمل وتنافس في درجة الآخرة، بخلاف الدنيا فإن التنافس فيها مذموم، لأنه يُلهي عن الآخرة، ويقطع عن العمل الذي يكون فيه رفعة العامل عند الله جل وعلا غالبًا.

وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ هذا لا بد منه في التعبد، ولهذا يسمى الرجاء والخوف ركنَي العبادة، ويجب أن يكون الأمر

وإذا كَانَ العَبْدُ مخلصاً لله اجتباه ربه، فأحيا قلبه، واجتذبه إِلَيْهِ، فيَنْصَرِف عَنهُ مَا يضادّ ذَلِك من السوء والفحشاء، ويخَاف من حُصُول ضد ذَلِك، بِخِلَاف القلب الَّذِي لم يخلص لله، فإن فِيهِ طلباً وإِرَادَةً وحبّاً مُطلقاً، فيَهْوَى مَا يسنح لَهُ، ويتشبث بِمَا يهواه، كالغصن، أَيُّ نسيم مر بِهِ عطفه وأماله، فتَارَة تجتذبه الصُّوَرُ المحرمَة وغير المحرمَة، فيبقى أَسِيراً عبداً لمن لَو اتَّخذهُ هُوَ عبداً لَهُ لَكَانَ ذَلِك عَيْباً ونقصاً وذمّاً.

متعادلًا أو الرجاء أرجحَ، فلا يجوز أن يكون الخوف أزيَدَ، لأن الخوف يجب أن يكون مانعًا من ترك الواجب واقتراف المحرم فقط، ولا يزيد عن هذا، فإن زاد عن هذا صار يأسًا، وصار مذمومًا، ولا يجوز أن يفعله الإنسان، لأن رحمة الله جل وعلا أوسع من غضبه.

ولا يخاف الإنسان أن يحيف الله عليه أو يمنعه شيئًا يستحقه، وإنما يجب أن يخاف من ذنوبه فقط، والمقصود أن حدّ الخوف أن يمنع الإنسان من ترك ما وجب عليه، أو فعل ما حرم عليه، ولا يزيد على ذلك.

قوله: «**فتَارَة تجتذبه الصور المحرمَة**» الصور المحرمة أي الشيء الممنوع منه، كالمرأة الأجنبية أو غير المرأة، أما الصور غير المحرمة فكالزوجة مثلًا، فلا يجوز أن تصده عن طاعة الله، وأن تلهيه عما أوجب الله عليه، فإن كانت كذلك فهذا مذموم، فيكون أسيرًا وعبدًا لذلك الذي اتخذه واستولى على قلبه وصار عمله تبعًا لذلك، أو تنقص عبادته حسب ما قام بقلبه من النقص في عبودية الله جل وعلا، وطاعته واتباع أمره واجتناب نهيه، لأنه إذا كانت هذه الأشياء تجذبه وتستولي على شيء من قلبه، فلا بد أن يترك شيئًا من الواجب، ويفعل شيئًا من المحرمات.

وتارَة يجتذبه الشّرف والرئاسة، فترضيه الكَلِمَة، وتُغضبه الكَلِمَة، ويستعبده من يُثني عَلَيْهِ ولَو بِالبَاطِلِ، ويعادي من يذمه ولَو بِالحَقِّ.

وتارَة يستعبده الدِّرْهَم والدِّينَار، وأمثال ذَلِك من الأُمُور الَّتِي تستعبد القُلُوب، والقلوب تهواها، فيتخذ إِلَهه هَوَاهُ، ويتبع هَوَاهُ بِغَيْر هدًى من الله.

ومن لم يكن خَالِصاً لله عبداً لَهُ قد صَار قلبه معبَّداً لِرَبه وَحده لَا شريك لَهُ، بِحَيْثُ يكون الله أحبَّ إِلَيْهِ من كل مَا سواهُ، ويكون ذليلاً لَهُ خاضعاً.

وإِلَّا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشَّيَاطِين، وكَانَ من الغاوين إخْوَانِ الشَّيَاطِين، وصَارَ فِيهِ من السوء والفحشاء مَا لَا يُعلمهُ إِلَّا الله، وهَذَا أَمر ضَرُورِيّ لَا حِيلَة فِيه.

قوله: «**ومن لم يكن خالصًا لله عبدًا له قد صار قلبه**»، فقوله: «**قد صار قلبه..**» هذا تابع للكلام الأول، وما ينبغي وضع فاصلة بعد قوله: «**عبدًا له**»، لأن الفاصلة تجعل الكلام غير متصل، بل هو من تمام الكلام، ولم يأت الخبر بعد.

قوله: «**وإلّا..**» هذه هي جملة الخبر، أي وإن لم يكن كذلك استعبدته الكائنات، أي المخلوقات كلها، سواء كانت مما حل أم مما حرم، ومعلوم التفاوت في هذا.

قوله: «**ضروري**» أي أن الناس ما يخرجون عن هذا، فإما أن يكون الإنسان عبدًا لله خالصًا له، أو يكون عنده عبودية لله، وعنده عبودية لغير الله، فهو لما استولى عليه، أو يكون عبدًا لغير الله تمامًا، لهواه أو لشياطين الإنس والجن، أو للمَظاهر التي حوله من أموال وغيرها، فهو لا ينفك عن هذا.

فالقلب إن لم يكن حَنيفاً مُقبلاً على الله، مُعرضاً عَمَّا سواهُ، كَانَ مُشْركاً، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الروم: ٣٠ ـ ٣٢].

وقد جعل الله سُبْحَانَهُ إِبْرَاهِيمَ وآلَ إِبْرَاهِيم أَئِمَّةً لِهَؤُلَاء الحنفاء المخلصين أهلِ محبَّة الله وعبادته وإخلاص الدِّين لَه، كَمَا جعل فِرْعَوْنَ وآلَ فِرْعَوْن أَئِمَّةَ المشْركين المتبعين أهواءهم، قال تعالى في إِبْـرَاهِـيـم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنبياء: ٧٢-٧٣].

وهذا من سنة الله، فمن لم يعبد الله عَبَدَ غيره ولا بد، لأن الإنسان خُلق عبدًا، لا يمكنه أن يتخلص عن هذا، حتى الملاحدة الذين يقولون: إنهم لا يعبدون شيئًا، هم لا ينفكون عن العبادة، فهم يعبدون شهواتهم، يعبدون بطونهم وفروجهم، أو يعبدون رؤساءهم، أو يعبدون رئاساتهم ولا بد، فالأمر في هذا واضح.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ هذا ولده، ويعقوب هو النافلة لأنه حفيده، ﴿وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾ يعني من أبنائه، وهذا استجابة لدعوته حينما دعا ربه جل وعلا، ولهذا جعل النبوة والكتاب في ذريته، فأيّ نبي بعث بعده هو من ذرية إبراهيم، وكذلك الكتاب، أي الكتب التي أنزلت على الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾، هذا الثناء هو الذي ينفع، أن

وقال في فِرْعَوْن وقومه: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القَصص: ٤١-٤٢].

ولِهَذَا يصير أَتبَاع فِرْعَوْن أَولاً إِلَى أَلّا يميزوا بَين مَا يُحِبهُ الله ويرضاه، وبَين مَا قدر الله وقضاه، بل ينظرُونَ إِلَى المشِيئَة المطلقَة الشاملة، ثمَّ في آخر الأَمر لَا يميزون بَين الخَالِق والمخلوق، بل يجْعَلُونَ وجودَ هَذَا وجودَ هَذَا!

ويَقُول محققوهم: الشَّرِيعَة فِيهَا طَاعَة ومعصية، والحقيقة فِيهَا مَعْصِية بِلَا طَاعَة، والتَّحْقِيق لَيْسَ فِيهِ طَاعَة ولَا مَعْصِية. وهَذَا تَحْقِيق مَذْهَب فِرْعَوْن وقَومه الَّذين أَنْكَرُوا الخَالِق، وأنكروا تكليمه لعَبْدِهِ مُوسَى وَمَا أرْسلهُ بِهِ من الْأَمر وَالنَّهْي.

يكونوا عابدين لله جل وعلا، وليس لنفوسهم ولأهوائهم، ولا لعباد الله الذين يكونون نظراءهم، فكان أن ميزهم الله لذلك، فصاروا أئمة يقتدى بهم ويُهتدى بهديهم، ويأمرنا الله جل وعلا أن نقتدي بهم.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ﴾ [النحل: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [المُمتَحنَة: ٤]، من هم الذين معه؟ هم كل الأنبياء الذين جاؤوا بهذا الدين الذي هو عبادة الله وحده، وهم أتباع الأنبياء الذين استجابوا لهم واتبعوهم.

قوله: «**بل ينظرون إلى المشيئة المطلقة الشاملة**» المقصود: الإرادة الكونية، فالإرادة قسمها أهل السنة إلى قسمين، إرادة قدرية كونية خَلقية، أي أن الله خلق الخلق بها، وهي التي يقول جل وعلا للشيء بها: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فكل شيء لا يخرج عنها، سواء كان محبوبًا أم

....

مكروهًا مذمومًا، وهذه لا يلزم أن يكون مرادُها محبوبًا لله، ومرضيًّا له، فقد يكون محبوبًا، وقد يكون مكروهًا مُبغَضًا، كوجود السحر والكفر والمعاصي، فلا توجد إلا بإذن الله ومشيئته، وإن كان المسؤول عنها هو الفاعل لها.

والإرادة الثانية: الإرادة الدينية العمَلية الشرعية، وهذه التي يحب الله أن تمتثل وتفعل، ويأمر بذلك، ولكن محبة الله لذلك وأمره بأن تمتثل، لا يلزم منه أن توجد، ولهذا أكثر الناس عصوا أمر الله، لأن الله أمرهم بطاعته وخلَقهم لعبادته، فصاروا لا يعبدونه، بل يعبدون الشياطين شياطين الجن والإنس.

فالفرق بين الإرادتين، أن الإرادة الكونية تتعلق بتكوين الأشياء ووجودها، وهي عامة شاملة لا يخرج عنها شيء، أما الإرادة الدينية فهي تتعلق بالأمر فقط، بأمره ودِينه فقط، ولا يمتثلها إلا أهل الطاعة.

فإذا وقعت الطاعة لله، فهذه اتفقت فيه الإرادتان، وإذا وقعت المعصية من رجل مكلف، فقد تخلفت الإرادة الدينية ووُجدت الإرادة الكونية القدرية، فهذا يدل على أن مراد الإرادة الدينية محبوب مأمور به، يحبه الله، يحب الله كونه ووجوده، ولا يلزم أن يوجد، والإرادة القدرية لا بد من وجود مرادها، ولا يتخلف، ولكن لا يلزم أن يكون محبوبًا لله، قد يكون مكروهًا لله، كوجود المعاصي ووجود الكفر ووجود الشياطين وغير ذلك، فلولا الإرادة الكونية ما وجدت هذه، لأن الله جل وعلا هو المتصرف في الكون كله، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

فهذا التقسيم لا بد منه، دل عليه كتاب الله، وأحاديث رسوله، وكذلك الواقع، يقول الله جل وعلا: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ

....

صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وفي الأمر الديني يقول الله جل وعلا في الصوم: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، اليسر هنا التخفيف والتسهيل على العباد، فعند المتكلمين من أشاعرة وغيرهم لا يقسمون هذا التقسيم، فيقعون في مشاكل يستشكلونها كثيرًا ولا يستطيعون أن يتخلصوا منها.



فصل

في الفرق بين الخالق والمخلوق

وأمَّا إِبْرَاهِيمُ وآلُ إِبْرَاهِيمَ الحنفاء، من الأَنْبِيَاء والمؤمنِينَ بهم، فهم يعلمُونَ أَنه لَا بُد من الفرق بَين الخَالِق والمخلوق، ولَا بُد من الفرق بَين الطَّاعَة والمعْصِيَة، وأَن العَبْد كلما ازْدَادَ تَحْقِيقاً لهَذَا الفرق، ازدادت محبته لله وعبوديتُه لَهُ، وطاعتُه لَهُ، وإعراضُه عَن عبَادَة غَيره ومحبةِ غَيره وطَاعَةِ غَيره.

وهَؤُلَاء المشْركُونَ الضالون يُسوُّون بَين الله وبَين خلقه، والخليل يَقُول: ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ۝٧٦ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ [الشُّعَرَاء: ٧٦-٧٧]، ويتمسكون بالمتشابه من كَلَام المشَايِخ، كَمَا فعلت النَّصَارَى.

مِثَال ذَلِك: اسْم «الفناء»، فإِن الفناء ثَلَاثَةُ أَنْوَاع:

نوع للكاملين من الأَنْبِيَاء والأولياء.

ونَوع للقاصدين من الأَوْلِيَاء والصَّالِحِينَ.

ونَوع لِلمُنَافِقين الملْحِدِينَ المشبِّهين.

فأَما الأول: فهُوَ الفناء عَن إِرَادَة مَا سوى الله، بِحَيْثُ لَا يحب إِلَّا الله، ولَا يعبد إِلَّا إِيَّاه، ولَا يتوكل إِلَّا عَلَيْه، ولَا يطْلب من غَيره، وهُوَ المعنى الَّذِي يجب أَن يُقْصد بقول الشَّيْخ أبي يزِيد حَيْثُ

. . . .

قال: «أُرِيدُ ألّا أُرِيدَ إِلَّا مَا يُرِيد» أَي المُرَاد المحبوب المرضيّ، وَهُوَ المُرَاد بالإرادة الدِّينِيَّة.

وكَمَال العَبْد أَلّا يُرِيدَ ولَا يحب ولَا يرضى إِلَّا مَا أَرَادَهُ الله ورضيه وأحبه، وهُوَ مَا أمر بِهِ أَمر إِيجَاب أَو اسْتِحْبَاب، ولَا يحب إِلَّا مَا يُحِبهُ الله، كالملائكة والأنبياء والصَّالِحِينَ، وهَذَا معنى قَوْلهم في قَوْله: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴿٨٩﴾﴾ [الشُّعَرَاء: ٨٩]، قالُوا: هُوَ السَّلِيم مِمَّا سوى الله، أَو مِمَّا سوى عبَادَة الله، أَو مِمَّا سوى إِرَادَة الله، أَو مِمَّا سوى محبَّة الله، فالمعنى وَاحِد، وهَذَا المعنى إِن سُميَ فنَاءً أَو لم يُسمَّ هُوَ أولُ الإِسْلَام وآخرُه، وباطن الدِّين وظَاهره.

وأما النَّوْع الثَّانِي: فهُوَ الفناء عَن شُهُود السوى، وهَذَا يحصل لكثير من السالكين، فإِنَّهُم لفرط انجذاب قُلُوبهم إِلَى ذكر الله وعبادته ومحبته، وضعفِ قُلُوبهم عَن أَن تشهد غير مَا تعبد، وترى غير مَا تقصد، لَا يخْطر بقلوبهم غيرُ الله، بل ولَا يَشْعُرُونَ إِلَّا بِهِ، كَمَا قيل في قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القَصَص: ١٠]، قَالُوا: فَارغاً من كل شَيْء إِلَّا من ذكر مُوسَى. وهَذَا كثيراً مَا يَعرِض لمن دهمه أَمر من الأُمُور، إِمَّا حب، وإِمَّا خوف، وإِمَّا رَجَاء، يبْقى قلبه منصرفاً عَن كل شَيْء إِلَّا عَمَّا قد أحبه أَو خافه أَو طلبه، بِحَيْثُ يكون عِنْد استغراقه في ذَلِك لَا يشْعر بِغَيْرِهِ.

فإِذا قوي على صَاحب الفناء هَذَا، فَإِنَّهُ يغيب بموجوده عَن وجوده، وبمشهوده عَن شُهُوده، وبمذكوره عَن ذكره، وبمعروفه عَن مَعْرفَته، حَتَّى يفنى من لم يكن، وهِي المخْلُوقَات، العَبْد فمن سواهُ،

قوله: «**الفناء**» هذا الاصطلاح الذي ابتدعه الصوفية، وهو الفناء، ثم

ويبقى من لم يَزَل، وهُوَ الرب تَعَالَى.

والمرَاد فناؤها في شُهُود العَبْد وذكره، وفناؤه عَن أَن يُدْرِكهَا أَو يشهدها، وإِذا قوي هَذَا ضعفَ المحب حَتَّى يضطرب في تَمْيِيزه، فقد يظنّ أَنه هُوَ محبوبه، كَمَا يُذكر أَن رجلاً أَلْقى نَفسَه في اليم، فألْقى محبُّه نَفسَه خَلفه، فقال: أَنا وقعتُ، فمَا أوقعك خَلْفي؟ قال: غبتُ بك عني، فظَنَنْتُ أَنَّك أَنِّي.

وهَذَا الموضع زلت فِيهِ أَقوام، وظنوا أَنه اتِّحَاد، وأَن المحب يتحد بالمحبوب حَتَّى لَا يكون بَينهمَا فرق فِي نفس وجودهما، وهَذَا غلط، فإِن الخَالِق لَا يتحد بِهِ شَيْء أصلاً، بل لَا يُمكن أن يتحد شَيْء بِشَيْء، إِلَّا إذا استحالا وفسدت حَقِيقَةُ كل مِنْهُمَا وَحصلِ من اتحادهما أمرٌ ثَالِث لَا هُوَ هَذَا ولَا هَذَا، كَمَا إِذا اتَّحد الماء واللَّبن، والماء والْخمر، ونَحْو ذَلِك.

ولَكِن يتحد المُرَاد والمحبوب، والمرَاد والمَكْرُوه، ويتفقان في نوع الإِرَادَة والكَرَاهَة، فيحب هَذَا مَا يحب هَذَا، ويُبغض هَذَا مَا يُبغض هَذَا، ويرضى مَا يرضى، ويسخط مَا يسْخط، ويكرهُ مَا يكره، ويوالي من يوالي، ويعادي من يعادي.

وهَذَا الفناء كُله فِيهِ نقص، وأكابر الأَوْلِيَاء ـ كَأبي بكر وعمر والسابقين الأَوَّلين من المهاجِرين والأَنْصَار ـ لم يقعوا في هَذَا الفناء، فضلاً عَمَّن هُوَ فَوْقهم من الأَنْبِيَاء، وإِنَّمَا وَقع شَيْء من هَذَا بعد الصَّحَابَة.

تقسيم الفناء إلى كذا وكذا، لا حاجة إليه، ولو أن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ أعرض عنه لكان أولى وأحسن، وأبينَ وأصلح، لأن مقصود شيخ الإسلام بالفناء هو الإخلاص، أن يكون الإنسان مخلصًا لله جل وعلا

....

محبًّا له، ومريدًا لما يريده الله، ومبغضًا لما يُبغضه الله، ومُعاديًا لأعداء الله، فأنْ يقال: إنه يوالي الله، ويحب لله، ويعمل لله، ويترك لله، أوضحُ وأحسن وأقرب للحق من أن يقول: الفناء، وأنه فناء بكذا وفناء بكذا.

على كل حال هو اصطلاح صوفي، فما عرف إلا من قبل الصوفية، ثم إن التقسيم خطأ، لأن المسلمين بالنسبة للأمر والنهي والعبادة أمرهم واحد، ما قُسِّموا إلى خاصة وعامة، وأنه يفنى فيه أهل السوى ويفنى في كذا، ولا يقصد تقسيم شيخ الإسلام، فتقسيم شيخ الإسلام حسب ما ذكر الله ﷻ، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ [فاطر: ٣٣].

وهذه الاصطلاحات الحادثة المبتدعة ما تأتي بخير، وإنما تأتي بشر، وتأتي بأمور قد تكون مشكلة على بعض الناس، فيقع في إشكالات بسببها، ولاسيما إذا تكلم بذلك مثل شيخ الإسلام والعلماء الكبار المعروفين، فيأتي بعض الناس يطلب المعنى ويجتهد فيه، وقد يخطئ في ذلك ولا يدري.

فمقصوده بالفناء كما ذكرنا، أن يكون مرادُ الإنسان مرادَ ربه جلا وعلا، وما يُبغضه الله يكون مبغَضًا عنده، وما يحبه الله محبوبًا عنده، وهذا هو الإخلاص لله جل وعلا، وهل الناس يختلفون في هذا؟ لا يختلفون إلا اختلاف المعرفة التي تقوم بقلوبهم، ثم يتبع ذلك العمل، لأن العمل تبع للعلم والمعرفة التي تقوم في القلب، وهذا أمر ظاهر وجلي ومعروف عند المسلمين، أن الناس في الإيمان والعمل ليسوا سواءً.

وأما كونه يفنى بمحبوبه عن نفسه، فهذا من الجنون، الذي هو نقص

وكَذَلِكَ كل مَا كَانَ من هَذَا النمط مِمَّا فِيهِ غَيبَة العقل وعدم التَّمْيِيز لما يَرِدُ على القلب من أَحْوَال الإِيمَان، فإِن الصَّحَابَة ﷺ كَانُوا أكملَ وأقوى وأثبت في الأَحْوَال الإيمانية من أَن تغيب عُقُولهم، أَو يحصل لَهُم غشي أَو صعق، أَو سكر أَو فنَاء، أَو وَلَهٌ أَو جُنُون.

لا يكون عند أهل العقل وأهل العلم، ولهذا كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ: هذا لا يوجد في الصحابة ولا في أولياء الله، وإنما وجد فيما بعد لما كثرت الأفكار وكثرت المناهج التي جاء بعضها من غير دائرة إسلام، وإنما اكتسبت من أديان أخرى، وأرادوا أن يلصقوها بالإسلام، ويجعلوا لها أسماءً واصطلاحاتٍ قد يعسر فهمها على كثير من الطلاب، فكثير من الناس إذا قيل له: ما هو الفناء؟ الفناء معروف أنه انعدام عن الشيء، ومقصودهم بالفناء الاصطلاح الذي اصطلحوا عليه.

قولهه: «**أَن تغيب عُقُولهم**» إذا وقع الإنسان في المخالفات، مثل أن يقول: أنا الله! فهل يجوز أن نعذره؟ أو أن يقول: أنا فنيت في ربي عن نفسي، وتكلم في هذا الكلام يريد به الحق.

نقول: هذا لا يجوز، ولا يجوز أن نعذره في ذلك، وهذا وقع فيه من وقع، وكان بعضهم يقول: ما في الجبة إلا الله! يعني أنه غاب عن نفسه وغاب عن شهوده فيما يزعم، وأنه يحب الله جل وعلا فلا يشعر بما حوله. فهذا إذا كان صحيحًا فهو نقص وعيب، نقص في العقل، ونقص في السلوك.

فالأمور المبتدعة لا تأتي بخير، لا تأتي إلا بشر، ومثله المثال الذي ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ، أنه سقط محبوبه في البحر، فأسقط نفسه خلفه! فقال له: أنا سقطت بدون إرادتي، فما الذي أسقطك؟ قال: ذبت عن نفسي فيك، فظننت أنك أنا، ما هذه العقول؟! هذا إذا وقع فهو نقص

وإِنَّمَا كَانَ مبادئُ هَذِه الأُمُور في التَّابِعين من عباد البَصْرَة، فإِنَّهُ كَانَ فيهم من يُغشى عَلَيْهِ إِذا سمع الْقُرْآن، ومِنْهُم من يَمُوت، كَأبي جهير الضَّرِير ﷺ[1] وزرارة بن أَوفَى قَاضِي البَصْرَة.

ظاهر جدًا وجنون.

قوله: «**فإِنَّهُ كَانَ فيهم من يُغشى عَلَيْهِ إِذا سمع الْقُرْآن**» هذا شيء آخر، إذا كان يغشى عليه إذا سمع القرآن أو سمع المواعظ، فمعناه أن الوارد على قلبه يكون قويًا، فلا يحتمله وقد يموت، وقد وقع هذا من بعض التابعين وأتباع التابعين، إذا سمع المواعظ وسمع بعض الآيات التي فيها التخويف سقط وأغشي عليه وقد يموت، مثل قاضي البصرة زرارة بن أوفى، فإنه تقدم ليصلي بالناس صلاة الفجر، فقرأ سورة المدثر، فلما جاء إلى قوله: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدَّثر: ٨]، فأغشي عليه وسقط، فحركوه فإذا هو ميت[2].

فمثل هذا ما وجد في الصحابة، وما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه الجواب الكافي والدواء الشافي، أن عمر كان يقرأ الآية ثم يمرض ويعاد، فهذا ليس صحيحًا، نعم كان يقرأ ويبكي، لكن لم يرد أنه يسقط ويمرض فيُعاد، فهذا لم يقع من الصحابة، لأن إيمان الصحابة قوي، وعقولهم قوية، وإيمانهم كالجبال.

أما الذين جاؤوا من بعدهم فنعم قد وقع فيهم ما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ، وقد يحصل هذا في وقتنا الحاضر، والسبب كون الوارد على القلب قويًا ومؤثرًا كثيرًا فلا يحتمله قلبه ثم يغمى عليه، وهذا من النقص وليس من الكمال، فحالة الصحابة أكمل وأتم.

---

(١) روى قصته الخطيب البغدادي في الزهد والرقائق ٢/ ٣٦ (١١٩).

(٢) ذكره الترمذي (٤٤٥).

وكَذَلِكَ صَار في شُيُوخِ الصُّوفِيَّة مَن يَعرِض لَهُ من الفناء والسكر مَا يضعُف مَعَه تَمْيِيزه، حَتَّى يَقُول فِي تِلْكَ الحَال من الأَقْوَال مَا إِذا صَحا عرف أَنه غالط فِيهِ.

كَمَا يحْكى نَحْو ذَلِك عَن مثل أبي يزِيد، وأبي الحُسَيْن النوري، وأبي بكر الشبلي، وأمثالهم.

قوله: «**ما يضعف معه تمييزه، حَتَّى يَقُول فِي تِلْكَ الحَال من الأَقْوَال مَا إِذا صَحا عرف أَنه غالط فِيهِ**».

ذُكر هذا في قصص الزهاد والوعاظ، وبعضه قد يكون صحيحًا، وبعضه غير صحيح، وبعضه قد يكون فيه مبالغات، والله أعلم، ولكن كل هذا ليس مطلوبًا، ولا ينبغي أن يثنى على الإنسان في ذلك.

كقوله: «**وأبي بكر الشبلي، وأمثالهم**» أبو بكر الشبلي وردت عنه أشياء كثيرة، وغيره كذلك، ولكن أبا يزيد البسطامي ذكر عنه كلام سيئ جدًّا، كان يقول: رأيت الله، وقالوا له: لو رأيت فلانًا، قال: لرأيت من هو كذا وكذا، كلام ما ينبغي أن يذكر.

وشيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ يؤول له كلامه على هذا التأويل، فيقول: إنه يغيب عن عقله في هذه الأمور لضعف المورود عليه، وهو يحب أمر الله، ويحب وعده أو يتأثر به، ثم يتكلم كلامًا لا يشعر به، بدليل أنه إذا عوتب فيما بعد ينكر ويقول: ما قلت هذا الشيء ولا خرج مني، يقول شيخ الإسلام: وهذا دليل على أنه يغيب عقله وشعوره، فيكون معذورًا في ذلك، لكن الذي يكون معذورًا أيكون مثل المأجور؟! لا يستويان.

وكان الشبلي يقول ـ على حسب ما يروى عنه، والله أعلم هل يصح أم لا ـ يقول: أنا لا أعبد الله شوقًا لجنته أو إرادة لجنته، أو خوفًا من ناره، وإنما أعبده حبًّا له، فابتلي بحبس البول، وكان يعلم الصبيان،

بخلاف أبي سليمان الداراني، ومعروف الْكَرْخِي، والفضيل بن عِيَاض، بل وبِخِلَاف الجُنَيْد وأَمْثَاله مِمَّن كَانَت عُقُولهمْ وتمييزهم يصحبهم في أحوالهم، فلَا يقعون في مثل هَذَا الفناء والسكر وَنَحْوه.

فصار يذهب إليهم ويقول: استغفروا لشيخكم الكذاب.

فهو ما استطاع أن يتحمل هذا المرض الذي أصيب به، صار يصيبه الألم، فإذا كان لا يتحمل هذا كيف يتحمل النار؟ يقول: لو أحرقني بالنار، لصرت أسبح وأكبر وأهلل، وأرى أني في نعيم! هذه كلها رعونات وكلام لا يجوز أن يُغترَّ به، فالإنسان مسكين لا يتحمل عذاب الله، لا يتحمل عذاب الدنيا، فكيف بعذاب الآخرة، ولهذا يجب أن تسأل ربك العافية في الدنيا والآخرة، فعذاب الدنيا مؤلم وشديد ويحتاج إلى صبر، ويحتاج إلى قوة تحمّل وقد لا توجد.

ومثل ذلك يروى أيضًا عن رابعة العدوية وعن غيرها، ولكن نقول: إذا صحت هذه الروايات فلا يجوز أن يقتدى بهم في أحوالهم، فهم قالوها من باب اجتهادهم وتصورهم بأنهم على هذه الحالة، ولكن إذا وقعوا في العذاب يختلف الأمر، إذا مسهم العذاب يعلمون أنهم ضعفاء، وأنهم لا يتحملون ذلك.

«**والفضيل بن عياض**»، لما مات ابنه وقيل له: ابنك مات، ضحك، فقيل له في ذلك، فقال: إن الله أحب أمرًا، فأحببت ما أحب الله[1]، فيقولون: إن هذا يدل على الرضا، وأنه راض بالقدر، فهل هذا يكون أكمل من الرسول ﷺ، لما مات ابنه إبراهيم صارت تذرف عيناه، ويقول: «**تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا**

(١) أخرج قصته ابن أبي الدنيا في الرضا بقضاء الله (٩٠) ومن طريقه أبو نعيم في حلية الأولياء (٨/ ١٠٠).

بل الكمّل تكون قُلوبهم لَيْسَ فِيهَا سوى محبَّة الله وإرادته وعبادته، وعِنْدهم من سَعَة العلم والتمييز ما يشْهدُونَ الأُمُور على مَا هِيَ عَلَيْهِ، بل يشْهدُونَ المَخْلُوقَات قَائِمَةً بِأَمْر الله، مُدبَّرَةً بمشيئته، بل مستجيبةً لَهُ، قانتةً لَهُ، فيكون لَهُم فِيهَا تبصرةٌ وذكرى، ويكون مَا يشهدونه من ذَلِك مؤيِّداً ومُمِدّاً لما في قُلُوبهم من إخلاص الدِّين، وتَجْرِيد التَّوْحِيد لَهُ، والعِبَادَة لَهُ وَحده لَا شريك لَهُ.

وهَذِه هِيَ الحَقِيقَة الَّتِي دَعَا إِلَيْهَا القُرْآن، وقَامَ بهَا أهل تَحْقِيق الإِيمَان، والكمّلُ من أهل العرْفَان، ونَبِينا ﷺ إِمَام هَؤُلَاءِ وأكملُهم، ولِهَذَا لما عُرج بِهِ إِلَى السَّموَات، وعاين مَا هُنَاكَ من الآيَات، وأوحي إِلَيْهِ مَا أوحِي من أَنْوَاع الْمُنَاجَاة، أصبح فيهم وهُوَ لم يتَغَيَّر حَالُه، ولَا ظهر عَلَيْهِ ذَلِك، بِخِلَاف مَا كَانَ يظْهر على مُوسَى من التغشي، صلى الله عليهم وسلم أَجْمَعِينَ.

بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[1]، هذا أكمل، لأنه كما قال ﷺ: هذه رحمة يرحم بها الضعيف الذي أصيب بهذا الألم الشديد، فالموت ما هو سهل، ويقف عند أمر الله جل وعلا، فكونه ضحك لأنه قدرٌ قدّره الله، فهو يفرح به، هذه حالة، ولكن حالة المصطفى ﷺ أتم وأكمل، وأولى بأن تتبع، ولا تتبع حالات الناس الآخرين.

قوله: «**بِخِلَاف مَا كَانَ يظْهر على مُوسَى من التغشي**» موسى عليه السلام شاهد أمرًا هائلًا، وهو تدكدك الجبل، فصعِق، وأما الرسول ﷺ فما شاهد مثل هذا الشيء حتى يقول: إنه بقي على طبيعته وما حصل له شيء، ثم ما ندري ماذا حصل له فوق السموات، لما رأى سدرة المنتهى وغشيها من أمر الله ما غشيها، والله جل وعلا أخبر أنه رأى من آياته

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٠٣) ومسلم (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وأما النَّوْع الثَّالِث مِمَّا قد يُسمى فنَاءً: فهُوَ أَن يشْهد أَنْ لَا مَوْجُود إِلَّا الله، وأَنّ وجود الخَالِق هُوَ وجود المخْلُوق، فلَا فرق بَين الرب والعَبْد!.

الكبرى، والله أعلم ما هي الآيات التي رآها، ولكن ليس مثل تدكدك الجبل الذي شاهده موسى بعد أن طلب من ربه جل وعلا أن يراه.

ولهذا يخبرنا الله جل وعلا أن الصعقة تصيب الناس إذا فوجئوا بأمر فظيع، فيصعق الإنسان ويذهب عقله، ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزُّمَر: ٦٨]، وهذا من شدة النفخة، بل أخبرنا الله بما هو أقل من هذا بكثير، فالله أخبرنا عن قوم صالح أن جبريل صاح بهم صيحة ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [الحِجر: ٧٣]، وهي صيحة جبريل وصوته، صاح بهم فسقطوا أمواتًا، كأنهم نفس واحدة.

فإذا جاء الإنسان شيء فوق طاقته ما يثبت، بل يموت وينتهي، فموسى عليه السلام رأى من هذا النوع، فغشي عليه، ، يعني تبت عن أن أسأل مثل هذا السؤال، لأن رؤية الله مما لا يحتمله الإنسان في هذه الحياة.

قوله: «**فهو أن يشهد أن لا موجود إلا الله**» وهذا الشهود كفر بالله جل وعلا، لأن معناه لا يميز بين خالق ومخلوق، فيصير كل شيء عنده شيئًا واحدًا، وهم بهذا يقعون في الكفر، وقد يشعرون وقد لا يشعرون، فيقول أحدهم: أنا دائمًا في طاعة، إن عصيتُ أمره الشرعي أطعتُ أمره القدري، ويقول أحدهم: أصبحت منفعِلًا لما يُراد بي، ففعلي كله طاعات! وهذا يزعم أنه حتى الزنى والسرقة والتعدي، يزعم أنه طاعة! لأنه موافق للأمر الكوني! أي لا يقع شيء في الكون إلا بإرادة الله الكونية القدرية، وهذا معناه أنه انسلاخ من الشرع، واتباع للشيء الذي يراه ويتصوره أنه طاعة وهو معصية، فهل يقبل مثلًا أن يترك الإنسان الصلاة ويقول: هذه طاعة؟ لأن هذا مقدر؟ هذا لا يمكن أن يستساغ أبدًا.

فهَذَا فنَاء أهل الضلال والإلحاد، الواقِعِينَ في الحُلُول والاتحاد، وهَذَا يُبرَّأُ مِنْهُ المشَايخ.

قوله: «**وهَذَا يُبرَأُ مِنْهُ المشَايِخ**» لما كان شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وقت كثر فيه هذه الأنواع وغيرها من الأمور المخالفات، صار يتكلم في حالاتهم، ثم يتلمس لبعضهم الأعذار، بأن هذا يكون بخلاف إرادتهم.

ولكن الذي يخالف الشرع، ويخالف هدي الرسول ﷺ، يستحق أن يعاقب، ويستحق أن يقاطع، وأن يحذر منه، وأن يُخبَر الناس بأن طريقته غير سليمة، وأنه مخالف لما جاء به المصطفى ﷺ، حتى لا يَغتر به الناس، أما هو في نفسه فقد يعذر لأنه اجتهد في هذا، ووصل للشيء الذي رآه باجتهاده، إن كان مثل المشايخ.

والمفترض أن المشايخ يعرفون الحق من الباطل، والإلحاد الذي هو الحلول أو الاتحاد، فالحلول كما قالت النصارى: إن الإنسان حل في الإله، إن اللاهوت حل في الناسوت، وهذا يقوله بعضهم وليس كلهم، قالوا: إن عيسى هو الله، أي أن الله حل به، وكذلك قال اليهودي الخبيث الماكر الذي جاء لإفساد دين المسلمين ابن سبأ، قال: إن إلهنا حل في علي، فعليّ هو إلهنا.

فالحلول معناه أن يحل الإله في الإنسان أو في المخلوق أو في أي شيء، سواء كان المخلوق حيوانًا أم إنسانًا أو غيره، وبعضهم إذا رأى من يعجبه صورته من امرأة أو أمرد أو ما أشبه ذلك يقول: هذا إلهنا والله حل فيه، هذا كفر بالله جل وعلا وإلحاد، وضلال بيّن وظاهر.

أما الاتحاد فهو جنون، وإهدار للعقول نهائيًا، لأنهم يقولون: الله هو المخلوق، وليس هناك اثنان، يقولون: لا يجوز أن تقول: خالق ومخلوق، بل كل شيء هو الخالق، ولهذا يقول بعضهم: أنا الله،

إذا قَالَ أحدهم: مَا أرى غير الله، أَو لَا أنظر إِلَى غير الله، ونَحْو ذَلِك، فمرادهم بذلك: مَا أرى رَبّاً غَيره، ولَا خَالِقاً ولَا مُدبراً غَيره، ولَا إِلَهاً لي غَيره، ولَا أنظر إِلَى غَيره محبَّة لَهُ، أَو خوفاً مِنْهُ، أَو رَجَاءً لَهُ؛ فإِن العين تنظر إِلَى مَا يتَعَلَّق بِهِ القلب، فمن أحب شَيْئاً أَو رجاه أَو خافه، الْتفت إِلَيْهِ، وإِذا لم يكن في القلب محبَّة لَهُ، ولَا رَجَاءٌ لَهُ، ولَا خوفٌ مِنْهُ، ولَا بُغضٌ لَهُ، ولَا غير ذَلِك من تعلق القلب لَهُ، لم يقْصد القلب أَن يَلْتفت إِلَيْهِ، ولَا أَن ينظر إِلَيْهِ، ولَا أَن يرَاهُ، وإِن رَآهُ اتِّفَاقاً رُؤْيَةً مُجَرّدَة كَانَ كمن لَو رأى حَائِطاً ونَحْوه مِمَّا لَيْسَ في قلبه تعلق بِهِ.

ويصرح بهذا، ويقول: إذا صليت، صليت لنفسي، وإذا سبحت، سبحت لنفسي، وإذا جاء رسول فهو مني إليّ، فليس هناك فرق بين خالق والمخلوق.

ولما قيل لمثل هذا: كلامك هذا يقتضي أنه لا فرق بين الماء والخمر، ولا بين الزوجة والأم! فقال: وهو كذلك، ولكن المحجوبون قالوا بالفرق، فقلنا: عليكم، أما نحن فلا فرق. فهل هذا يوصف بأنه ضلال فقط؟! هذا إهدار للعقول وإهدار للشرع، وضلال متناهٍ.

فالمقصود الفرق بين الحلول والاتحاد، فالاتحاد اتحد الخالق بالمخلوق فصارا شيئًا واحدًا، والحلول: حل الخالق جل وعلا بالمخلوق ودخل فيه، فكله كفر بالله جل وعلا، فهل هذا وجد في الأمم السابقة؟ ما نعرف أن هذا وجد في الأمم السابقة، إلا ما قالت النصارى فقط، ولكنه في هذه الأمة قوم يزعمون أنهم هم العارفون، يطلقون على أنفسهم العارفين أو الأولياء، وكل هذا الاشتغال فيه وذكره لا فائدة فيه ولا خير فيه أصلًا، لأنه ضلال متناهٍ، وليس بعده ضلال.

والمشايخ الصالحون ﷺ يذكرُونَ شَيْئاً من تَجْرِيد التَّوْحِيد وتَحْقِيق إخلاص الدِّين كُله، بِحَيْثُ لَا يكون العَبْد ملتفتاً إِلَى غير الله، ولَا نَاظراً إِلَى مَا سواهُ، لَا حبّاً لَهُ، ولَا خوفاً مِنْهُ، ولا رجاءً له، بل يكون القلب فَارغاً من المخْلُوقَات، خَالِياً مِنْهَا، لَا ينظر إِلَيْهَا إِلَّا بِنور الله.

فبالحق يسمع، وبالحق يبصر، وبالحق يبطش، وبالحق يمشي. فيحب مِنْهَا مَا يُحِبهُ الله، ويُبغض مِنْهَا مَا يُبغضه الله، ويوالي مِنْهَا مَا وَالَاهُ الله، ويعادي مِنْهَا مَا عَادَاهُ الله، ويخَاف الله فِيهَا، ولَا يخافها في الله، ويرجو الله فِيهَا، ولَا يرجوها في الله، فهَذَا هُوَ القلب السَّلِيم الحنيف الموحد المسلم المؤمن المحَقق، العَارِف بِمَعْرِفَة الأَنْبِيَاء والمرسلِينَ وتحقيقهم وتوحيدهم.

قوله: «**والمشايخ الصالحون يذكرُونَ شَيْئاً من تَجْرِيد التَّوْحِيد**» هذا بينه الرسول ﷺ غاية البيان، وأما هؤلاء المشايخ فكلامهم يجب أن يعرض على كلام الرسول ﷺ، فإن وافقه قُبل لأنه وافق كلام رسول الله ﷺ، وإن خالفه يجب أن يرمى به وجوههم ولا يبالى به مهما كان، ولا يكون العبد عبدًا لله جل وعلا إلا بتجريد المتابعة لرسول الله ﷺ، وإخلاص العمل لله جل وعلا، ومثل هذا ما يحتاج إلى أن يبينه فلان وفلان، لأن الرسول ﷺ جاء به واضحًا جليًا، وهو دعوته، بل لب دعوته إلى الله جل وعلا، فأول ما قرع أسماع الناس من قوله، قوله: «قولوا لا إله إلا الله»، وإذا كان الإله هو الله وحده، ولا يجوز أن يُؤَلَّه غيره ويتجه إليه ويعبد غيره، فهذا هو الإخلاص، وهو الذي بينه ﷺ ووضحه.

قوله: «**فهَذَا هُوَ القلب السَّلِيم الحنيف..**» سبق أن القلب السليم، الذي سلم من التعلق بغير الله، وقد أخبر الله جل وعلا أنه لا ينجو من عذابه إلا من أتى الله بقلب سليم، فهو سالم من أن يكون عنده شيء من

....

الشرك صغيره وكبيره، أما إذا صار عنده شيء من الشرك، سواء كان من الشرك الخفي، أم من الشرك الجلي، الكبير أم الصغير، فإنه لم يسلم، فقد يناله شيء من العذاب.

ولكن القلب لِمَا غلب عليه، كما أن العبد لِما غلب عليه من العبودية، ولهذا صار كثير من المسلمين يُلقَون في النار، فيتفاوتون فيها على قدر مخالفاتهم، فإذا كان أصل الإيمان موجودًا عندهم، مستقرًّا في قلوبهم، فهم يطهرون من هذه التعلّقات التي تعلقوا بها من غير الله جل وعلا.

وإذا مات الإنسان سالمًا قلبه من التعلق بالمخلوق الذي هو تعلق التأله والعبادة، فإنه لا يناله عذاب، وهو الذي أخبر الله جل وعلا أنه لا خوف عليه ولا هو يحزن، والخوف يكون من الأمور المستقبلة المتوقعة، والحزن يكون على الأمور الفائتة، فهو لا يحزن على ما يفوته من الدنيا، ولا يخاف فيما يستقبله من أمور الآخرة، لأنه صار عبدًا لله مخلصًا له العمل.

وهذا أمر واضح لا خفاء فيه، وهو دعوة الرسل من أولهم إلى آخرهم، فكل رسول يأتي يقول: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [هُود: ٥٠]، والإله هو الذي يألَهُه القلب، عبادةً وتعلقًا ورجاءً وخوفًا، ولهذا قال قوم هود له لما دعاهم إلى هذا: ﴿أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعرَاف: ٧٠]، فهم فهموا تمام الفهم أن العبادة لله، وأن كل ما يعبد من دون الله يجب أن يترك ويجتنب، وهذا هو الإخلاص، وهو الذي إذا تحلى به الإنسان ومات عليه فقد جاء ربه بقلب سليم.

فهَذَا النَّوْع الثَّالِث ـ الَّذِي هُوَ الفناء في الوُجُود ـ هُوَ تَحْقِيقُ آل فِرْعَوْن ومعرفتُهم وتوحيدُهم كالقرامطة وأمثالهم.

وأما النَّوْع الَّذِي عَلَيْهِ أَتبَاع الأَنْبِيَاء، فهُوَ الفناء المحْمُود، الَّذِي يكون صَاحبُه بِهِ مِمَّن أثنى الله عليهم، من أوليائه المتَّقِينَ، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين.

ولَيْسَ مُرَادُ المشَايِخ والصَّالِحِينَ بِهَذَا القَوْل، أَن الَّذِي أرَاهُ بعيني، هُوَ رب الأَرْض والسَّموَات! فإن هَذَا لَا يَقُوله إِلَّا من هُوَ في غَايَة الضلال والفساد، إِمَّا فَسَاد العقل، وإِمَّا فَسَاد الِاعْتِقَاد، فهُوَ مُتَرَدّد بَين الجُنُون والإلحاد.

قوله: «**هو تحقيق آل فرعون ومعرفتهم وتوحيدهم**» وهذا هو عبادة المخلوق في الحقيقة بكل ما في معنى الكلمة من العبادة، واجتناب عبادة الله جل وعلا.

قوله: «**فهو الفناء المحمود..**» يجب أن نسمّيَه الإخلاص لله جل وعلا، وأما اصطلاحات الصوفية التي فيها الخفاء، فما ينبغي أن ننشرها وأن نتكلم فيها، لأنها لا تزيد الأمر إلا تعمية، وإن عدولهم عما قاله الرسول ﷺ إلى شيء يصطلحون عليه هو نقص، فلماذا ننشر كلامهم ونعتني به.

وأما ذكر شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ له فلأن هناك أناسًا يتبعونهم ويفتنون بهم، وكثير من الناس صار كلام هؤلاء أرغبَ عندهم من كلام الله وكلام رسوله، ويتمسكون باصطلاحاتهم غاية التمسك، فلهذا صار شيخ الإسلام يتكلم في ذلك من أجل أن يبين لهم.

قوله: «**وليس مراد المشايخ والصالحين بهذا القول..**» لكن ينبغي أن نعرف أن الكلام الذي يصدر من المشايخ ومن غيرهم، ونحتاج إلى أن

وكل المشَايِخ الَّذين يُقْتَدى بهم في الدِّين متفقون على مَا اتّفق عَلَيْهِ سلف الأمة وأئمتها من أَن الْخَالِق سُبْحَانَهُ مباين للمخْلُوقَات، ولَيْسَ في مخلوقاته شَيْء من ذَاته، ولَا في ذَاته شَيْء من مخلوقاته، وأَنه يجب إِفْرَاد القَدِيم عَن الحَادِث، وتمييز الخَالِق عَن المخْلُوق، وهَذَا في كَلَامهم أكثر من أَن يُمكن ذكره هُنَا.

وهم قد تكلمُوا على مَا يعرض للقلوب من الأَمْرَاض والشبهات، فإن بعض النَّاس قد يشْهد وجود المخْلُوقَات، فيظنه خَالق الأَرْض وَالسَّموَات، لعدم التَّمْيِيز والفرْقَان في قلبه، بِمَنْزِلَة من رأى شُعَاع الشَّمْس، فظن أَن ذَلِك هُوَ الشَّمْس الَّتِي في السَّمَاء.

نؤوله حتى يتفق مع ما جاء به الرسول ﷺ، هل يكون هذا كمالًا أم يكون نقصًا؟ هذا من النقص في الواقع، فالحق أن العدول عن الأمور الواضحة التي جاء بها الرسول ﷺ هو نقص وليس كمالًا.

لكن ماذا يُصنع بالناس إذا كانوا على هذه الطريقة؟ لا بد من إرجاعهم إلى الحق، وبيان الحق الذي يجب عليهم أن يسلكوه ويقولوه، ثم نأتي إلى قولهم، وإن كان فيه غموض وكان فيه خفاء، إذا كان له محمل من المحامل الصحيحة التي تتفق مع ما جاء به المصطفى ﷺ حمل على ذلك، وإن كان ما جاء به الرسول ﷺ من القول والفعل أولى وأكمل، وأتم وأبين، وأقرب إلى الفهم.

ولكن إذا فتن الناس بذلك، فلا بد من بيانه، ولا بد من الكلام فيه، فهذه حالة شيخ الإسلام التي يتكلم بها، وإلا فكثير من الناس يُشكل عليه الفناء، ما هو الفناء؟ هل الرسل جاءت بالفناء؟ تفنى بكذا، وتقسيم الفناء إلى كذا وكذا، مما اصطلحوا عليه!.

وهم قد يَتَكَلَّمُونَ في الفرق والجمع، ويدخل في ذَلِك من العبارَات المختلفة نظير ما دخل في الفناء.

فإن العَبْد إذا شهد التَّفْرِقَة والكَثْرَة في المخْلُوقَات يبْقى قلبه مُتَعَلقاً بهَا مشتتاً نَاظراً إِلَيْهَا، وتعلقه بهَا إِمَّا محبَّة، وإِمَّا خوفاً، وإِمَّا رَجَاء.

قوله: «**وهم قد يَتَكَلَّمُونَ في الفرق والجمع**» وهذا أيضًا اصطلاح ثان من كلام الصوفية واصطلاحاتهم: الفرق والجمع، نحن نعلم الفرق بين الحق والباطل، والجمع بينهما، ولكن هم لهم اصطلاح غير هذا، ولا يجوز عندهم أن يكون الإنسان منهم يخفى عليه هذا، ولهذا هم يأتون بالكلام يزعمون أنه لا يفهمه إلا هم، ويقولون: نحن في أمور تخفى على عامة الناس وعلى علماء الظاهر، يسمون العلماء إما علماء الظاهر أو علماء الشريعة، ويقولون: نحن علماء الحقيقة وعلماء الأمر الباطن!.

فهل الشرع جاء بتقسيم الناس إلى عالم حقيقة وعالم شريعة؟ أو عالم ظاهر وعالم باطن؟ أو أنه سالك لهذا ولهذا؟ هذا كله من الأمور المبتدعة المخترعة التي صار فيها تفرقة، وصار فيها أيضًا اشتباه، وصار فيها لكثير من الناس مداخل للشيطان.

قوله: «**فإن العبد إذا شهد التفرقة والكثرة في المخلوقات**»، المخلوقات كثيرة ومتفرقة، ولكن ليس المراد هذا، المراد تعلق القلب ورجاؤه وحبه وخوفه، هذا يجب أن يكون لله جل وعلا وحده، والمخلوقات كلها فقيرة إلى الله جل وعلا محتاجة إليه، والإنسان ميزه الله جل وعلا على سائر المخلوقات بالعقل والفكر، وكذلك جعله محلًا للأمر والنهي، وليس كذلك المخلوقات، فالمخلوقات فُطرت على هذا خِلقة، أما الإنسان فكلّفه الله، وأمره ونهاه، وأعطاه الاختيار.

فإذا انْتقل إِلَى الجمع اجْتمع قلبه على تَوْحِيد الله وعبادته وَحده لَا شريك لَهُ، فالْتَفت قلبه إِلَى الله بعد التفاته إِلَى المخلوقين، فصَارَت محبته إِلَى ربه، وخوفه من ربه، ورجاؤه لرَبه، واستعانته بربه، وهُوَ في هَذَا الحَال قد لَا يسع قلبَه النّظرُ إِلَى المخْلُوق، ليفرق بَين الخَالِق والمخلوق، فقد يكون مجتمعاً على الحق، معرضاً عَن الخلق، نظراً وقصداً، وهُوَ نَظِير النَّوْع الثَّانِي من الفناء.

ولَكِن بعد ذَلِك الفرق الثَّانِي، وهُوَ أَن يشْهد أَن المخْلُوقَات قَائِمَةٌ بِالله، مدبَّرةٌ بأَمْره، ويشْهد كثرتَها مَعْدُومَةً بوحدانية الله ﷻ، وأَنه سُبْحَانَهُ ربُّ المصنوعات وإلهها، وخالقها ومالكها، فيكون ـ مَعَ اجْتِمَاع قلبه على الله إخلاصاً ومحبة وخوفاً ورجاءً، واستعانةً وتوكلاً على الله، وموالاةً فِيهِ ومعاداة فِيهِ، وأمثالَ ذَلِك ـ نَاظراً إِلَى الفرق بَين الخَالِق والمخلوق، مُمَيِّزاً بَين هَذَا وهَذَا، يشْهد تفرقَ المخْلُوقَات وكَثْرَتهَا، مَعَ شَهَادَته أَن الله رب كل شَيْء ومليكه وخالقه، وأَنه هُوَ الله لَا إِلَه إِلَّا هُوَ.

وهَذَا هُوَ الشُّهُود الصَّحِيح المُسْتَقيم، وذَلِكَ وَاجِب في علم القلب وشهادته وذكرِه ومعرفته، وفي حَال القلب وعبادته وقصده وإرادته ومحبته وموالاته وطاعته.

وذَلِكَ تَحْقِيق شَهَادَة أَن لَا إِلَه إِلَّا الله، فإِنَّهَا تَنْفِي عَن قلبه ألوهيةَ مَا سوى الحق، وتُثبت في قلبه ألوهية الحق. فيكون نافياً لألوهية كل شَيْء من المَخْلُوقَات، مُثبتاً لألوهية رب العَالمين، ورب الأَرْض والسَّموَات، وذَلِكَ يَتَضَمَّن اجْتِمَاع القلب على الله، وعَلى مُفَارقَة مَا سواهُ، فيكون مفرِّقاً في علمه وقصده، في شَهَادَته وإرادته، في

مَعْرِفَته ومحبته: بَين الخَالِق والمخلوق، بِحَيْثُ يكون عَالماً بِاللَّه تَعَالَى، ذَاكِراً لَهُ، عَارِفاً بِهِ، وهُوَ مَعَ ذَلِك عَالم بمباينته لخلقه، وانفراده عَنْهُم، وتوحده دونهم، ويكون محبّاً لله، مُعظِّماً لَهُ، عابداً لَهُ، راجياً لَهُ، خَائفاً مِنْهُ، محبّاً فِيهِ، موالياً فِيهِ، معادياً فِيهِ، مستعيناً بِهِ، متوكلاً عَلَيْهِ، مُمْتَنعاً عَن عبَادَة غَيره والتوكلِ عَلَيْهِ، والاستعانةِ بِهِ، والْخَوْف مِنْهُ والرجاءِ لَهُ، والموالاةِ فِيهِ والمعاداةِ فِيهِ، والطَّاعَة لأمره، وأمثالِ ذَلِك مِمَّا هُوَ من خَصَائِص إلهية الله ﷻ.

وإِقْرَارُه بألوهية الله تَعَالَى دون مَا سواهُ، يَتَضَمَّن إِقْرَاره بربوبيته، وهُوَ أنه رب كل شَيْء ومليكه، وخالقه ومدبره، فَحِينَئِذٍ يكون موحداً لله.

ويبين ذَلِك أَن أفضل الذّكر: لَا إِلَه إِلَّا الله، كَمَا رَوَاهُ التِّرْمِذِيّ وابْن أبي الدُّنْيَا وغيرهما مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «**أفضل الذّكر: لَا إِلَه إِلَّا الله، وأفضل الدعاء: الحَمد الله**»[1].

قوله ﷺ: «**أفضل الذكر: لَا إِلَه إِلَّا الله**» وجاء في الحديث أيضًا ما هو أوضح من هذا، قال: «**أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له**»[2].

والسبب في فضل هذه الكلمة: أنها تدل على الإخلاص والتوحيد، في الباطن وفي الظاهر، ومعلوم أن الإنسان لا يكون ناجيًا وعابدًا على الحقيقة إلا إذا كان عمله خالصًا لله، ومقصودًا به وجهه جل وعلا فقط، وهذه الكلمة تدل على هذا، فهي واضحة في ذلك، ولكن كثير من الناس لا يفهمها، والسبب في عدم فهم هذه الكلمة: بعدهم عن اللغة العربية

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣) والنسائي في الكبرى (١٠٦٦٧) وابن ماجه (٣٨٠٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، وأخرجه مالك في الموطأ (٥٧٢، ١٢٧٠)، من حديث طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز مرسلًا.

....

وعن معناها، فتراهم يزاولون في حياتهم أمورًا تناقض معنى هذه الكلمة.

ولهذا تجد مثلًا أحدهم يقول: لا إله إلا الله، ويذهب يستنجد بصاحب القبر، ويسأله مثل ما يُسأل الله جل وعلا، وإذا أنكرت عليه ذلك قال: أنا أقول: لا إله إلا الله، وأنا أصلي، فكيف تقول لي: إن هذا شرك، وإن الرسول ﷺ يقول: «**ما من عبد قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة**»[1]، وما أشبه ذلك من الأمور التي يتشبثون بها وهي ضلال بين.

لأنه ليس المقصود قول لا إله إلا الله باللفظ دون المعنى، بل يجب أنه إذا قال: لا إله إلا الله يفهم معناها ويعمل بمدلولها، وإلا فلا فائدة في مجرد كلام يتلفظ به فيكون مثل كلام السكران، أو الذي يهذي بشيء لا يدري ما هو ولا ينفعه.

فالمقصود أن فضل الذكر بها، هو لأجل أنها إخلاص وتوحيد لله جل وعلا، وكلما كان الإنسان مخلصًا لله جل وعلا، فإن عمله أحب لله جل وعلا من غيره وإن قل، فالمهم الإخلاص، وأن يكون العمل موافقًا للشرع.

أما كثرة العمل وهو على غير إخلاص فلا فائدة فيه ولا عبرة به، ويكون الإنسان يظن أنه على خير، وهو يتقرب إلى النار، كما قال الله جل وعلا: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤﴾ [الغاشية: ٢ ـ ٤]، هي عندها عمل، تكد وتتعب وتنصب في ذلك، وفيها خشوع، فكيف يكون فيها خشوع وعمل ونصب، ثم النتيجة أنها تصلى نارًا حامية؟ إما لأنها غير مخلصة لله جل وعلا،

---

(١) أخرجه البخاري (٥٨٢٧) ومسلم (٩٤) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

. . . .

أو أنها على بدع وضلال، ليست على دين الرسول ﷺ، ولا يكون إلا هذا أو هذا فقط.

فلهذا نقول: كون كلمة لا إله إلا الله ذات فضل، لأنها هي الأصل في العبادة، الأصل أن يكون تعلقه وتألهه بربه وحده، ولا يجوز أن يتعلق قلبه خوفًا ورجاءً وتألهًا بمخلوق من المخلوقات، والناس منهم من يستكثر في هذا، ومنهم من يستقل.

لهذا أقول: هذا هو أصل الدين الذي خلق الله جل وعلا الجن والإنس له، جُمع بقولك: لا إله إلا الله، وهذه كانت دعوة الرسل، فكل رسول يأتي إلى قومه، فأول ما يتكلم به عندهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]، لا يقول لهم أولًا: صلوا وتصدقوا وكذا وكذا، فهذا لا يكون إلا من بعد.

والرسول ﷺ بقي ثلاث عشرة سنة في مكة يدعو إلى التوحيد فقط، مع أنهم عندهم قتل، وعندهم زنًى، وعندهم سرقات، وعندهم ظلم، فما منعهم من هذا، ولا يعني أن هذا ليس بإثم ولا محرم، ولكن حتى لو انتهوا فلا فائدة يجنونها من وراء ذلك، إلا إذا قالوا: لا إله إلا الله، وعبدوا الله بذلك.

وبهذا الأمر أيضًا كان الرسول ﷺ يرسل الدعاة، كما في الصحيحين، لما أرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل إلى اليمن قال: «**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب**»، وهم اليهود والنصارى، وكلاهما كان موجودًا في اليمن، «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أجابوك إلى ذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة**»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٥) ومسلم (١٩) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

....

فقوله: «**فإن هم أجابوك إلى ذلك**»، مفهومه أنهم إن لم يقولوا لا إله إلا الله فلا يُدعون إلى الصلاة، ولا فائدة في الصلاة منهم أصلًا، لأن الأصل الذي يبنى عليه العمل كله قول لا إله إلا الله، فلا بد منها، ولا بد من فهمها والعمل بما دلت عليه.

فهذا مثل ما يقول الرسول ﷺ أيضًا فيما بعد، صار في جميع أحواله يقول: «**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم، إلا بحقها، وحسابهم على الله**»[(١)].

فالدين الواجب كله من حقها، كل الواجب والمستحب من حق لا إله إلا الله، كما فهم ذلك أبو بكر ومَن معه من الصحابة رضي الله عنهم.

فالمقصود: أن هذا الذي يجب أن يركز عليه ويفهم تمام الفهم، فإذا جاء مثل هذا الحديث: «**أفضل الذكر لا إله إلا الله**»[(٢)]، فليس هذا بغريب، فإن هذا هو أصل الدعوة، وأصل الدين، وأصل العبادة، فكل عبادة ترجع إليه.

ولكن لو سألت كثيرًا من المسلمين: ما معنى الإله؟ يمكن يحسن الجواب، وربما لا يحسن، والغالب أنهم لا يحسنون، فكثير منهم لا يدري ما معنى الإله؟ وكثير منهم يقول: معنى الإله الرب، أو المتصرف، أو الخالق، حتى خفي هذا على بعض العلماء من المتكلمين!

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٩٩) ومسلم (٢٠) من حديث أبي هريرة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وأخرجه البخاري (٢٩٤٦) ومسلم (٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣) والنسائي في الكبرى (١٠٦٦٧) وابن ماجه (٣٨٠٠) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

فاشتبه معنى الرب بمعنى الإله عندهم، ولهذا قال الفخر الرازي في تفسيره عند قول الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الأعراف: ١٣٩] الآية، قال: «والله أعلم أنه من المستحيل أن يقول العاقل لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة وخالقاً ومدبراً، لأن الذي يحصل بجعل موسى وتقديره لا يمكن أن يكون خالقاً للعالم، ومدبراً له» إلى آخر كلامه[(١)].

قوله: «**فاشتبه معنى الرب بمعنى الإله عندهم**»، والأشعري رَحِمَهُ اللَّهُ على كبره وكثرة علمه، لما جاء إلى الكلام في هذا قال: الإله هو القادر على الاختراع[(٢)] وما ذكره هو معنى الرب، هو الذي يخترع ويوجد ويخلق، أما الإله فهو الذي يُؤله ويُعبد ويُقصد بالعبادة.

فالمقصود: أن العامة إذا جهلوا هذا فليس غريبًا، والسبب هو الإعراض عما جاء به المصطفى ﷺ، والاشتغال بكلام الناس وكلامِ المشايخ أهل التصوف وغيرها، فيبتعد الإنسان عما جاء به النبي ﷺ، ثم قد يأخذ اصطلاحات ويسير عليها!!

ثم العبادة، لو سألت كثيرًا من المسلمين الآن: ما هي العبادة؟ ما مفهوم العبادة؟ فيقول لك: العبادة الصلاة والصوم والحج، وهذا معنًى قاصر، فالعبادة تشمل كل ما تعلق الإنسان به طلبًا للنفع أو دفعًا للضر، فالعبادة أشمل من أن تكون صلاة وصومًا وحجًا فقط، فكل ما كلف به

---

(١) تفسير الرازي (١٤/٢٢٣)، وكلام الرازي فيه خلط بين معنى الرب الخالق المدبر وبين معنى الإله المألوه المعبود، وهذا لا يجوز أن يجهله آحاد المسلمين فضلاً عن العلماء، وهكذا أكثر المتكلمين كل كلامهم أو معظمه في معنى الرب، أما الإله فلا يتكلمون فيه الذي هو مبدأ الإسلام ونهايته.

(٢) حكاه عنه عبد القاهر البغدادي في أصول الدين (ص١٢٣).

....

الإنسان تكليفًا من الله ومن رسوله ففِعلُه أو تركه عبادة، فالعبادة يدخل فيها الفعل، ويدخل فيها الترك، ويدخل فيها العقيدة، ويدخل فيه الفعل بالجوارح والقول وغير ذلك، وسبق تعريف شيخ الإسلام للعبادة.

ولهذا لما عرف علماء السلف الإيمان قالوا: الإيمان عقيدة، قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، ومن المؤسف الآن أن كثيرًا من طلبة العلم مختلفون في تعريف الإيمان، حتى يوجد في الرسائل التي تكتب في الجامعات، يتساءلون هل العمل شرط في الإيمان؟ أو أن العمل جزء من الإيمان؟ أو كذا أو كذا؟!.

وهذا عجيب! فالإيمان الذي جاءه به الرسول ﷺ هو أمر قطعي لا يجوز أن يُختلف فيه، ثم كيف يكون العمل شرطًا، والإيمان يتقدم على العمل؟ فالفقهاء لما ذكروا الشروط قالوا: شروط الصلاة تتقدم عليها، فهل الشروط توجد في الماهية أم قبلها؟ هي قبل الماهية، فكيف يكون العمل شرطًا للإيمان؟! أي مقدّمًا قبله؟!

فهذا كله بسبب أنهم أعرضوا عن ألفاظ الرسول ﷺ، وعن المعاني التي جاء بها الرسول ﷺ، على وضوحها وجلائها.

والسلف أيضًا في تعريفهم، يقولون: الإيمان يتكون من هذه الأمور الثلاثة، فإذا فقد واحد منها فقد الإيمان، وهذا يذكرونه بالإجماع، وممن ذكر الإجماع على هذا الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، يقول: اتفق العلماء على أن من اعتقد صحة الإيمان وعمل بذلك ولكن لم يتكلم ولم يقل: أشهد أن لا إله إلا الله، فهو من أهل النار، وأنه كافر، وما جاء بالإيمان.

فلا بد أن يتكلم أولًا يشهد أن لا إله إلا الله، وهذا القول يتبعه الأقوال الأخرى، ثم يعمل بمقتضى هذا، ولا بد أن يكون في قلبه

وفي الموطَّأ وغَيره عَن طَلْحَةَ بن عبيد الله بن كَريز أَن النَّبي ﷺ قال: «**أفضل مَا قلت أنا والنبيون من قبلي: لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ، لَهُ الملك، وله الحَمد، وهُوَ على كل شَيْء قدير**»[1].

ومن زعم أَن هَذَا ذكرُ العَامَّة، وأَنّ ذِكْرَ الخَاصَّة هُوَ الِاسْم المُفْرد، وذِكْرَ خَاصَّة الخَاصَّة هُوَ الِاسْم المُضمر، فهم ضالون غالطون.

اعتقاد صحة هذا الشيء، ويكون عالمًا به أنه حق جاء به المصطفى ﷺ، فمجموع هذه الأمور الثلاثة هي الإيمان، وإذا فقد واحد منها فقد الإيمان.

قوله: «**وذِكْرَ خَاصَّة الخَاصَّة هُوَ الِاسْم المُضمر**» الاسم المضمر «**هو**»، هكذا كما تبتدعه الصوفية، يقولون: الله لا إله إلا هو، هذا ذكر العامة الذين لا يفهمون شيئًا، أما ذكر الخاصة فهوَ «**هو**»، ولهذا ينبحون كالكلاب: «**هو.. هو**»! فقولهم «**هو**» ليس ذكرًا، ولا ينفع، لأنه ليس جملة مفيدة، فالذكر لا بد أن يكون جملة مفيدة، فهل هذا يكون ذِكْرَ خاصة الخاصة! الله المستعان.

وابن عربي ألف كتابًا سماه كتاب الهو، فهل هذا يكون كتاب علم، فإذا اجتمعوا وجدتهم لا تفرِّق بين ذِكْرِهم وبين نبح الكلاب، وربما يكون نبح الكلاب أحسن، لأن هذا بدعة ـ والبدعة قبيحة ـ بل من أقبح ما يكون.

وهذه الأمور مشكلة! حتى بعض العلماء الذين يرمقون ويشار إليهم، يقسّمون الدين والأمور إلى خاص، وإلى عام، وإلى خاصة الخاص!

---

(١) موطأ مالك (٥٧٢، ١٢٧٠) من حديث طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز مرسلًا.
وأخرجه الترمذي (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

واحتجاج بَعضهم على ذَلِك بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعَام: ٩١]، من أبين غلط هَؤُلَاءِ.

فإِن الِاسْم «الله» مَذْكُور في الأَمر بِجَوَاب الِاسْتِفْهَام في الآيَة

فمثلًا يقول الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ: التوحيد أقسامه ثلاثة، توحيد العامة، وتوحيد الخاصة، وتوحيد خاصة الخاصة، ثم بعد ذلك يقول: ما وحّد الواحد من واحد، إذ كل من وحده فهو لاحد، إلى آخره، فما هو مفهوم الكلام هذا؟!

هل هذا الذي يفسر التوحيد ويبينه لنا يقسمه هذا التقسيم؟! وهل الرسول ﷺ دعا الناس إلى أقسام ثلاثة، فقال: عامة المسلمين لهم توحيد، وخاصتهم لهم توحيد، وخاصة الخاصة لهم توحيد؟! كله بدع وخلاف ما جاء به الرسول ﷺ.

نعم الناس يتفاوتون في العلم، وفي معرفة الله جل وعلا، وكلما كان الإنسان أفقه في صفات الله وأسمائه، وأعلم بذلك، فيجب أن يكون أتقى، ويكون أقرب إلى الله جل وعلا، وليست الأمور بالكثرة، بل الأمور بالاتباع وبالإخلاص لله جل وعلا، فالإخلاص هو المنجي وإن قل، وأما كثرة الأعمال إذا كانت على غير هدًى وعلى غير الشرع، فمهدرة، وكثير من الناس يعمل أعمالًا يحسب أنه مهتدٍ، وهو في عمًى وفي ضلال.

قوله: «**واحتجاج بَعضهم على نلك..**» يفسرون قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أي أنك تقتصر في ذكرك على «الله»، فتقول: «الله..الله»! فإذا قلت: «الله» فهل هذا ذكر؟ لا، ليس ذكرًا، لأنه لا يفيد، فالذكر لا بد أن يكون جملة مفيدة، فكيف إذا قال: «هو»! وبعضهم يقول: أنا أخشى أن أموت قبل أن أكمل «الله»، فأنا أقول: «هو»! وهذا كلام من أبطل الباطل.

قبله، وهو قوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ﴾ [الأنعام: ٩١]، أي: الله هُوَ الَّذِي أنزل الكتاب الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، فالاسم «الله» مُبْتَدأ، وخَبره قد دلّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَام، كَمَا في نَظَائِر ذَلِك؛ تَقول: من جَاره؟ فيَقُول: زيد.

وأما الِاسْم المُفْرد مُظْهراً أَو مضمراً، فلَيْسَ بِكَلَام تَامّ، ولَا جملَة مفيدة، ولَا يتَعَلَّق بِهِ إِيمَان ولَا كفر، ولَا أمر ولَا نهي.

ولم يذكُر ذَلِك أحدٌ من سلف الأمة، ولَا شَرع ذَلِك رَسُول الله ﷺ، ولَا يُعْطي القلبَ بِنَفسِهِ معرفَةً مفيدة، ولَا حَالاً نَافِعاً، وإِنَّمَا يُعْطِيهِ تصوراً مُطلقاً، ولَا يُحكم عَلَيْهِ بِنَفْي ولَا إِثْبَات، فإِن لم يقْتَرن بِهِ من معرفَة الْقلب وحاله مَا يُفِيد بِنَفسِهِ وَإِلَّا لم يكن فِيهِ فَائِدَةٌ، والشريعة إِنَّمَا تَشرع من الأَذْكَار مَا يُفِيد بِنَفسِهِ، لَا مَا تكون الفَائِدَة حَاصِلَةً بِغَيْرِهِ.

قوله: «**فالاسم الله مُبْتَدأ، وخَبره قد دلّ عَلَيْهِ الِاسْتِفْهَام**» هذا أمر واضح، ولكن شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ يريد أن يبطل كلامهم هذا، هم يقولون: إن ذكرنا «الله» يكفي، وبعضهم يدعي أنه من الخاصة فلا يقول «الله»، بل يقول «هو»، لأنه صار عارفًا بالله جل وعلا، فلا يريد أن يجري على لسانه إلا «الله» فقط، فإذا قال: «هو» يقصد به «الله» فهو خاصة الخاصة.

نقول أولًا: هذا غير صحيح في الكلام، ثانيًا: إن هذا بدعة، وكل بدعة ضلالة، ثالثًا: إن هذا قالوه لأجل الوزن في الرقص! لما صاروا يرقصون ويغنون فيصير موزونًا في كلامهم، فالعجيب أن الرقص صار عبادة، وترديد الكلام الذي يريدون منه فقط الوزن ليتفق مع إيقاعاتهم في الرقص، صار ذكرًا! فالله المستعان.

وقد وَقع بعض من واظب على هَذَا الذّكر في فنون من الإِلْحَاد، وأنواع من الِاتِّحَاد، كَمَا قد بسط فِي غير هَذَا الموْضع.

ومَا يُذكر عَن بعض الشُّيُوخ من أنه قال: أَخَاف أَن أَمُوت بَين النَّفْي والإِثْبَات، حَالٌ لَا يُقْتَدى فِيهَا بصاحبها، فإن في ذَلِك من الغَلَط مَا لَا خَفَاءَ بِه، إِذْ لَو مَاتَ العَبْد في هَذِه الحَال، لم يمت إِلَّا على مَا قَصده ونواه، إِذِ الأَعْمَال بِالنِّيَّاتِ، وقد ثَبت أَن النَّبِي ﷺ أَمر يتلقين المَيِّت لَا إِلَه إِلَّا الله، وقال: «**من كَانَ آخر كَلَامه: لَا إِلَه إِلَّا الله، دخل الجنَّة**»[1]، ولَو كَانَ مَا ذكره محذوراً، لم يُلقن المَيِّت كلمةً يُخَاف أَن يَمُوت في أَثْنَائِهَا موتاً غيرَ مَحْمُود، بل كَانَ يُلقن مَا اخْتَارَهُ من ذكر الِاسْم المُفْرد.

والذكر بِالِاسْم المُضمر المُفْرد أبعدُ عَن السّنة، وأدْخل في البِدْعَة، وأقرب إِلَى ضلال الشَّيْطَان.

قوله: «**أبعد عن السّنة، وأدخل في البدعة**» ما ينبغي أن نقول: إن الذكر المفرد أبعد عن السنة وأقرب من البدعة، بل يجب أن نقول: إنه بدعة محضة وضلالة، فما هو قريب من البدعة فقط، بل هو بدعة، وليس هو من السنة في شيء، فالسنة ما سنه الرسول ﷺ، ولم يأت عن الرسول ﷺ ذكرُ المفرد أن نقول: الله، الله.

قد يحتج محتج بقول الرسول ﷺ: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله، الله**»[2]. وليس معنى قوله: «الله، الله» أن هذا ذكر، بل مقصوده أنهم لا يعرفون الله جل وعلا، ولا يذكرونه، وليس هذا تشريعًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٢٠٣٤)، وأبو داود (٣١١٦)، من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٠٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

فإن من قال: يا هُوَ، يا هُوَ، أو: هُو هُو، ونَحْوَ ذَلِك، لم يكن الضَّمِير عَائِداً إلَّا إلَى مَا يصوره قلبه، والقلب قد يَهْتَدِي، وقد يضل.

وقد صنف صَاحب الفصوص كتابا سَمَّاهُ كتاب الهو!

وزعم بَعضهم أَن قَوْله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ٧]، مَعْنَاهُ: ومَا يعلم تَأْوِيلَ هَذَا الِاسْم الَّذِي هُوَ «الهو»! وإِن كَانَ هَذَا مِمَّا اتّفق المسلمُونَ بل العُقَلَاء على أنه من أبين الباطل، فقد يظن

قوله: «هُو هُو» لا حول ولا قوة إلا بالله! قولهم «هو هو» والله هذا ما يفهم منه إلا نبح الكلاب!

والحقيقة أنه لا يوجد أعجب من بني آدم، لو تفكرت في المخلوقات ما تجد أعجب من بني آدم في أفكاره ونِحَله وسلوكياته، فما شيء إلا من الضلال إلا وتجده في بني آدم، والحيوانات لا تفعل هذا ولا قريبًا منه، ولهذا يكون الإنسان الضال من أقبح خلق الله.

إذا رأيت مثلًا إنسانًا عاريًا يمشي في الشارع أمام الناس، بماذا نحكم على هذا؟ مناظر قبيحة كريهة، لا ذوق ولا عقل ولا حياء ولا دين، الحيوانات خلقت على هذا ولا يضر، فلها قبول في مثل هذا، وأما الإنسان فبعد نزول آدم إلى الأرض فإن الله أول ما ذكر أنه امتن علينا قال: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [الأعراف: ٢٦].

ثم يأتي من يزعم أنه عاقل، وأنه مميز، ويجرد نفسه من اللباس، ويمشي عاريًا أمام الناس، فهل هذا مثل الحيوان، بل أقبح من الحيوان بكثير، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التِّين: ٥]، أسفل سافلين في خَلقه وخُلقه وسلوكه، أسفل من الحيوانات، نسأل الله العافية.

ذلك من يظنه من هؤلاء! حَتَّى قلتُ مرّة لبَعض من قال شَيْئاً من ذَلِك: لَو كَانَ هَذَا مَا قلتَه لكُتِبَتِ الآيَةُ: ومَا يعلم تَأْوِيلَ «هُوَ» مُنْفَصِلَةً.

ثمَّ كثيراً مَا يذكر بعض الشُّيُوخ أَنه يَحْتَج على قَول القَائِل: «الله» بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١]، ويَظن أن الله أَمر نبيه بِأَن يَقُولَ الِاسْمَ المفرَدَ، وهَذَا غلط بِاتِّفَاق أهل العلم، فإن قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٢١] مَعْنَاهُ: الله الَّذِي أنزل الكتاب الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، وهُوَ جواب لقَوْله: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ قُلِ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ٩١]، أي: الله الَّذِي أنزل الكتاب الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى، ردَّ بذلك قولَ مَن قَالَ: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١]، فقَالَ: ﴿مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ﴾ [الأنعام: ٩١]، ثمَّ قَالَ: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ [يونس: ٢١] أنزلهُ، ثمَّ ذَر هَؤُلَاءِ المكذبين ﴿فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

ومِمَّا يبين مَا تقدم، مَا ذكره سِيبَوَيْهِ وغَيرُه من أَئِمَّة النَّحو: أَن العَرَبَ يحكون بالقَوْل مَا كَانَ كلَاماً، لَا يحكون بِهِ مَا كَانَ قولاً، فالقَوْلُ لَا يُحْكى بِهِ إِلَّا كَلَامٌ تَامّ، أَو جملَةٌ اسمية، أَو جملَة فعلية، ولِهَذَا يكسرون «إِنّ» إِذا جَاءَت بعد القَوْل، فالقَوْل لَا يحْكى بِهِ اسْم؛ والله تَعَالَى لَا يَأْمر أحداً بِذكر اسْم مُفْرد، ولَا شُرع للمسلمين.

والِاسْمُ المجَرّد لَا يُفِيد شَيْئاً من الإِيمَان بِاتِّفَاق أهل الإِسْلَام، ولَا يُؤمر بِهِ في شَيْء من العِبَادَات، ولَا في شَيْء من المخاطبات.

. . . .

ونَظِير من اقْتصر على الِاسْم المفرَد: ما يذكر أَن بعض الأَعْرَاب مر بمؤذن يَقُولُ: «أشهد أَن مُحَمَّداً رسولَ الله» بِالنّصب، فقَالَ: مَاذَا يَقُول هَذَا؟ هَذَا الِاسْم، فأَيْنَ الخَبَرُ عَنهُ الَّذِي يتم بِهِ الكَلَام؟

ومَا في القُرْآن من قَوْله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾﴾ [المُزّمل: ٨]، وقَوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، وقَوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: ١٤-١٥]، وقَوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقِعَة: ٧٤]، ونَحْوِ ذَلِك، لَا يقتضي ذكره مُفرَداً.

بل في السّنَن أنه لما نزل قَوْله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ [الواقِعَة: ٧٤]، قالَ: «**اجْعَلُوهَا في ركوعكم**»، ولما نزل قَوْله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ [الأعلى: ١]، قالَ: «**اجْعَلُوهَا في سُجُودكُمْ**»[(١)].

قوله: «**فأين الخبر عنه الذي يتم به الكلام**» يعني أن الكلام الذي اصطلح عليه هو مركب مفيد من جملة اسمية أي مبتدأ وخبر، أو جملة فعلية أي فعل وفاعل، فالكلام لا يتم إلا بذلك، فإذا كان مفردًا فلا يسمى كلامًا، والكلمة تطلق على الشيء المفيد، بخلاف القول، فالقول قد يطلق على حرف، وقد يطلق على أي شيء يتلفظ به.

قوله: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾﴾ ليس المقصود أن تقول: سبحان اسم ربي، بل: سبحان ربي، ولهذا فسرها قال: سبحان ربي العظيم، لأن التسبيح يكون باسمه، وكذلك الدعاء يكون باسمه، يدعى باسمه، ويسبَّح باسمه تعالى، تقول: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم،

---

(١) أخرجه أحمد (١٧٤١٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧) من حديث عقبة بن عامر الجهني ﷺ.

فشرع لَهُم أَن يَقُولُوا في الرُّكُوع: «سُبْحَانَ رَبِّي العَظِيم»، وفي السُّجُود: «سُبْحَانَ رَبِّي الأَعْلَى»، وفي الصَّحِيح أنه كَانَ يَقُول في رُكُوعه: **«سُبْحَانَ رَبِّي العَظِيم»**، وفي سُجُوده: **«سُبْحَانَ رَبِّي الأَعْلَى»**، وهَذَا هُوَ معنى قَوْله: **«اجْعَلُوهَا في ركوعكم وسجودكم»**، بِاتِّفَاق المسلمين.

فتسبيح اسْم ربه الأَعْلَى، وذكر اسْم ربه، ونَحْو ذَلِك، هُوَ بالكَلَام التَّام المفيد، كَمَا في الصَّحِيح عَنهُ ﷺ أنه قَالَ: **«أفضل الكَلَام بعد القُرْآن أَربع، وهنّ من القُرْآن: سُبْحَانَ الله، والحَمْد لله، ولَا إِلَه إِلَّا الله، والله أكبر»**[1].

فالرسول فسره هنا، فليس المقصود أن الاسم هو الذي يسبَّح، أو هو الذي يُعبَد، فالاسم لا يعبد، وإنما يدعى به ويُسأل به.

قوله: «**اجْعَلُوهَا في ركوعكم وسجودكم**»، يعني اجعلوا هذه الكلمة - وهي التسبيح - في السجود والركوع، وسبحان ربي العظيم يناسب الركوع، وسبحان ربي الأعلى يناسب السجود، لأن السجود هو وضع الجبهة والأنف على الأرض، والأرض سفلى، والله جل وعلا يجب أن ينزه عن السفل، والركوع تعظيم، وانحناء للعظيم، ولهذا ناسب أن يقول: سبحان الله العظيم.

قوله ﷺ: «**أفضل الكلام بعد القرآن أربع**» وهذا يدل على أن أفضل ما يُذكر به: القرآن، وذكر الإنسان بالقرآن هو تلاوته بالتدبر والعمل، أما مجرد هذرمة من دون تدبر ومعرفة المعنى فالجدوى قليلة، وإنما يقصد به

---

(١) ذكره البخاري معلقًا بصيغة الجزم، كتاب الأيمان والنذور، باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم، وأخرجه أحمد (٢٠٢٢٣)، وابن ماجه (٣٨١١)، من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.

. . . .

أن الله يخاطبنا به، فهل يخاطبنا بشيء لا نفهمه؟ فإذا تصور الإنسان لا يفهم شيئًا، يصبح كأنه يهذي هذيانًا.

ثم لا يجوز أن يكون المقصود بحلاوة الصوت وحسنه، أن يأتي به بأنغام معينة وبأشياء شبه الغناء، فتحسين الصوت مطلوب في القرآن، كما في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ مرَّ عليه بالليل، وإذا هو يقرأ، فوقف يستمع له، فلما أصبح، وأتى إليه أبو موسى قال له: **«لو رأيتَني وأنا أستمع لقراءتك البارحة! لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود»**! فقال له: لو علمت بك لحبّرتُه لك تحبيرًا[1]، أي زيّنته وحسّنته، فدل على أن تزيين الصوت لأجل جذب الناس وتأثرهم به، مطلوب، ولا يكون لأجل أن يمدح ويثنى عليه، فلان قارئ فلان حسن الصوت وما أشبه ذلك، فهذا يدخل في الرياء والسمعة، بل يجب أن يكون مقصوده التأثير في الناس، لأن هذا كلام الله، وكل كلمة فيه تدل على معانٍ، إذا فهمها الإنسان تنفعه وتفيده، في أخراه وفي سلوكه وفي علمه.

فلهذا إذا قرأ يجب أن يحرِص على التدبر والتفهم وماذا يراد، وتصوّر أن الله يخاطبك، هل يسوغ للعاقل أن يرسل له عظيم يخاطبه بخطاب، ثم لا يتأمل خطابه؟ فإذا سئل عن ذلك يقول: ما فهمت! هذا لا يجوز أصلًا، وليس هذا من التعظيم، وليس هذا من التلاوة التي أمر بها.

---

(١) القسم المرفوع أخرجه البخاري (٥٠٤٨) ومسلم (٧٩٣) واللفظ لمسلم.
وأخرجه بنحوه مسلم أيضًا (٧٩٣) من حديث بريدة بن الحصيب ﷺ.
وأما الحديث بتتمة كلام أبي موسى فأخرجه النسائي في الكبرى (٨٠٥٨) من حديث بريدة بن الحصيب ﷺ.
وأخرجه أيضاً أبو عوانة في المستخرج (١٨٠٣)، وابن حبان (٧١٩٧)، والحاكم (٥٩٦٦) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

....

ولله المثل الأعلى، لو أرسل لنا الرئيس أو الملك أو الأمير خطابًا، فأخذنا الخطاب وجعلناه فوق رؤوسنا، ورفعناه وجعلناه في إطار ولوحة وأكرمناه، وفيه أمر ونهي، ثم يأتي إلينا ونحن لم نمتثل الأمر ولم نجتنب النهي، فسألَنا فقلنا: انظر إلى خطابك نحن أكرمناه، هل يكون هذا إلا استهزاء وسخرية!

فلا بد للإنسان أن يتأمل خطاب ربه حسب إمكانه، والله جل وعلا يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ [القَمَر: ١٧]، فالقرآن ميسر لمن يتذكر وينظر، يقول العلماء عند تفسير هذه الآية: ولقد يسرنا العلم لمن يتعلم، فهل من متذكر فيذكر، فهذا معناه، أي أنه ميسر ومسهل، وهو بلغة فصحى وقريبة، وإذا كان الإنسان يعرف اللغة، فلا بد أن يدرك بعض المعاني، ولا يلزم أن يدرك كل شيء، فيكفي الشيء الذي يستطيعه، فهذا هو فضل التلاوة.

أما مجرد تلاوة بلا تأمل، فهذه جدواها قليل، ولهذا سئل بعض السلف فقيل له: يوجد من يقرأ القرآن ولا يفهمه، قال: هذه بدعة، وما كان الناس على هذا، كان إذا قرأ أحدهم يفهم ما خوطب به، لأنه بلغته، ولكن لما فسدت اللغة، كما مر فيمن قال في الأذان: أشهد أن محمدًا رسولَ الله، بالنصب! هذه لا تفيد شيء، لأن رسولَ فيها بدل من محمد، ولهذا لما سمع أعرابي المؤذن يقول: أشهد أن محمدًا رسولَ الله، وقف وقال: ما لَه؟ فهو ينتظر الجواب فلم يأت جواب بعدُ، فإذا قال: أشهد أن محمدًا رسولُ الله بالرفع، تم الجواب.

ومثله ما يذكر أن رجلًا كان يعلم صبيانًا من العرب، والعرب يولدون على لغتهم سليقة وفطرة، ويأخذونها من آبائهم، فلا يلحنون أصلًا، فصار يلقّنهم ويقول لأحدهم: قل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ﴾، فيقول الصبي: تبت

وفي الصَّحِيح عَنهُ ﷺ أنه قَالَ: «**كلمتان خفيفتان على اللِّسَان، ثقيلتان في الميزَان، حبيبتان إِلَى الرَّحْمَن: سُبْحَانَ الله وبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله العَظِيم**»[1].

وفي الصَّحِيحَيْنِ عَنهُ ﷺ أنه قَالَ: «**من قَالَ في يَوْمه مائَةَ مرّة: لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ، لَهُ الملك، وله الحَمد، وهُوَ على كل شَيْء قدير، كَتب الله لَهُ حِرْزاً من الشَّيْطَان يَوْمَه ذَلِك حَتَّى يُمْسِي، ولم يَأْتِ أحد بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا رجل قَالَ مثلَ مَا قَالَ، أَو زَاد عَلَيْهِ. ومن قَالَ في يَوْمه مائَة مرّة: سُبْحَانَ الله وبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله العَظِيم، حُطت عَنهُ خطاياه ولَو كَانَت مثلَ زَبَدِ البَحْر**»[2].

يدانِ، فيضربه، ويقول: قل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ﴾، فسمعه رجل قال: هذا عربي فصيح، فاذكر له المضاف إليه حتى ينطق بها، فلما قال: قل: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١]، نطق بها تمامًا، فما كانوا يعرفون اللحن، وإنما يتكلمون بلغتهم، والجملة تكون مفيدة.

فالمقصود: أن القرآن هو أفضل ما يتقرب به الإنسان بعد أداء ما افتُرض عليه، ولكن يجب أن يفهم، لأن المقصود بالتلاوة العمل، ولهذا ذم الله جل وعلا الذين لا يعلمون من القرآن إلا أمانيَّ، والأمانيّ هي مجرد التلاوة.

قوله: «**كلمتان**» سمى «**سبحان الله وبحمده**» كلمة، و«**سبحان الله العظيم**» كلمة، والمراد بالكلمة الجملة المفيدة.

والحديث الآخر يرد على الذين يقولون: إن أفضل الذكر أن تذكره بالاسم، أي أن تقول: الله الله، أو تذكره بالضمير، أي أن تقول: هو

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٣، ٦٤٠٥) ومسلم (٢٦٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وفي المـوَطَّأ وغَيره عَن النَّبِي ﷺ أنه قَالَ: «**أفضل مَا قلته أَنا والنبيون من قبلي: لَا إِلَه إِلَّا الله وَحده لَا شريك لَهُ، لَهُ الملك، وله الحَمد، وهُوَ على كل شَيْء قدير**»(١).

وفي سنَن ابْن مَاجَه وغَيره عَنهُ ﷺ أَنه قَالَ: «**أفضل الذّكر: لَا إِلَه إِلَّا الله، وأفضل الدُّعَاء: الحَمد لله**»(٢). ومثل هَذِه الأَحَادِيث كَثِيرَة في أَنْوَاع مَا يُقَال من الذّكر والدُّعَاء.

هو، فهذا كله ضلال بيّن ولا يفيد شيئًا، بل هو لعب، وإذا قيل: إن هذا هو الدين وهو أفضل الذكر، فهذا كذب وقول على الله وعلى رسوله ﷺ بلا علم، فلا بد أن يكون الذكر بجمل مفيدة.

قوله: «**الحمد لله**» صار دعاء لأنه ثناء على الله جل وعلا، وأدخل على الحمد «أل»، حتى تكون مستغرقة لجميع الحمد، فهي تدل على حمد الله جل وعلا على الخلق، وعلى الرزق، وعلى كون الإنسان مسلمًا، وعلى كل نعمة أنعمها الله جل وعلا عليه.

ثم الحمد فيه الثناء على الله جل وعلا بنعمه، وفيه كذلك التعظيم والحب، ولا بد، فإذا لم يكن فيه حب فلا يكون ثناء، وكذلك الحمد لا بد أن يكون فيه الحامد مثنيًا ومحبًّا وطالبًا، أما إذا كان مجرد ذكر فقط، وخلا من المحبة والإنابة والطلب والافتقار فيسمى هذا مدحًا، فإذا اشتمل على ذلك فهو الحمد، فلهذا سماه هنا دعاء، لأن في ضمنه الطلب.

وأما الذكر فهو أعم من هذا، فالذكر كل ما تذكر الله جل وعلا به

---

(١) موطأ مالك (٥٧٢، ١٢٧٠) من حديث طلحة بن عبيد الله بن كَرِيز مرسلًا. وأخرجه الترمذي (٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٣٨٣) وابن ماجه (٣٨٠٠) من حديث جابر بن عبد الله ﵄.

وكَذَلِكَ مَا في القُرْآن من قَوْله تَعَالَى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١].

وقَوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [المَائدة: ٤]، إِنَّمَا هُوَ قَول: بِاسْم الله، وَهَذِه جملَة تَامَّة.

من فعل وقول وعمل، فيسمى ذِكْرًا لله جل وعلا، فهو تدخل فيه الأعمال كلها.

قوله: ﴿اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ أي أن يقول: باسم الله، وليس المقصود كلمة «الله» فقط، ولا كلمة «اسم»، فلا بد أن يقول على الذبيحة وعلى الصيد: باسم الله، وكذلك الأكل، يجب أن يقول إذا أراد أن يأكل: باسم الله، كما أنه يجب عليه أن يحمد ربه إذا أكل، وهذا من معاني قول الله جل وعلا: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وهو من معنى الدعاء بأسمائه، وهذا لا ينفك عنه المسلم، ولكنه يجب أن يتأمل ويستحضر ذلك بقلبه حتى يكون على بصيرة.

وقَوله: «**إِنَّمَا هُوَ قَول: بِاسم الله، وَهَذِه جملَة تَامَّة**» يقصد أن قول «باسم الله» هو جملة، فالتقدير أذبح باسم الله، أو أقرأ باسم الله، أو على قول بعضهم: أبتدئ، ولكن ذكر «أذبح» أو «أقرأ» أولى من أبتدئ، لأن فعلك كله باسم الله، وليس ابتداؤه فقط، بل الابتداء والاستمرار أن يكون على اسم الله جل وعلا.

وقد جاء هذا في القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العَلق: ١]، وجاء قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا﴾ [هود: ٤١]، فمجراها مصدر، والمصدر اسم، و﴿اقْرَأْ﴾ فعل، ولهذا قال كل فريق من العلماء بقول، منهم من قدر المحذوف في قولك «**باسم الله**» فعلًا، ومنهم من قدره اسمًا، والمقصود أن هذا مفيد، والشيء المضمر في حكم المذكور، لأن الكلام لا يصح إلا به.

إِمَّا اسمية على أظهر قولي النُّحَاة، أَو فعلية، والتَّقْدِير: ذبحي بِاسم الله، أَو أذبح بِاسم الله.

وكَذَلِكَ قَول القَارئ: بِسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم، فتقديره: قراءتي بِاسم الله أَو أَقْرَأُ باسم الله. ومن النَّاس من يضمر في مثل هَذَا: ابتدائي بِاسم الله، أَو ابتدأت بِاسم الله، والأول أحسن؛ لِأَن الفِعْلَ كُلَّه مفعول باسم الله، لَيْسَ مُجَرّد ابْتِدَائه، كَمَا أظهر المضمر في قَوْله: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، وفي قَوْله: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا﴾ [هود: ٤١]، وفي قَول النَّبِي ﷺ: «**من كَانَ ذبح قبل الصَّلَاة فليذبح مَكَانهَا أُخْرَى، ومن لم يكن ذبح فليذبح باسم الله**»[1].

ومن هَذَا البَاب قَول النَّبِي ﷺ في الحَدِيث الصَّحِيح لربيبه عمر بن أبي سَلمَة: «**يَا غُلَام! سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مِمَّا يليك**»[2]. فالمرَاد أَن يَقُول: باسم الله، لَيْسَ المُرَاد أَن يذكر الِاسْمَ مُجَرداً.

قوله: «**إمَّا اسمية أو فعلية**» إذا قدرت: ذبحي باسم الله، فهي جملة اسمية، وإذا قدرت: أذبحُ باسم الله، فهي جملة فعلية، وكونها جملة فعلية أولى.

قوله: «**سمِّ الله**» أي: قل باسم الله، وليس معناه قل الله، هذا لا يراد، وما عرف أنهم يقولون الله، عند الأكل والدخول وغيره، وإنما يقولون: باسم الله، كما علمهم الرسول ﷺ، ومعروف أن هذا معناه، أفعلُ هذا الشيء الذي أبتدئ به، أفعله باسم الله، فهو للاستعانة وللعبادة أيضًا، وليس للاستعانة فقط.

---

(١) أخرجه البخاري (٩٨٥) ومسلم (١٩٦٠) من حديث جندب بن سفيان رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣٧٦) ومسلم (٢٠٢٢) من حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنهما.

وكَذَلِكَ قَوْله في الحَدِيث الصَّحِيح لِعَدِيٍّ بن حَاتِم: **«إذا أرْسلتَ كلبَك المعلَّمَ، وذكرتَ اسْمَ الله، فَكُلْ»**(١)، وكَذَلِكَ قَوْله ﷺ: **«إذا دخل الرجل منزله فذكر اسْمَ الله عِنْد دُخُولِه وعند خُرُوجه وعند طَعَامه، قَالَ الشَّيْطان: لَا مبيتَ لكم ولَا عشَاء»**(٢).

وأمثال ذَلِك كثير.

قوله: «**لا مبيت لكم ولا عشاء**» هذا لا يؤمن به إلا من يؤمن بما جاء عن الله وعن رسوله، لكن كثيرًا من الناس يقول: لا نرى الشيطان ولا نحس به، فليس معنا شياطين، وهؤلاء الذين لا يؤمنون إلا بالمحسوسات، ثم يرجعون الأمور إلى أفكارهم وعقولهم، وهذا لا يستقيم عند المسلم أبدًا، فلا بد أن يَقبَلَ عن الله وعن رسوله.

والله جل وعلا أخبرنا أن الشيطان يرانا من حيث لا نراه، فالشياطين مثل الإنس لهم إحساس ولهم أعمال، ويأكلون ويشربون، وهم أعداء بني آدم، ويشاركون بني آدم إن لم يتحصنوا بالله، والتحصن بالله منهم هو بذكر اسمه.

فلهذا إذا أراد الإنسان دخول الحمام أنه يسمي ويستعيذ بالله من الشيطان، يقول: باسم الله، اللهم إني أعوذ بك من الخُبُث والخبائث، والخبث هم ذكور الشياطين، والخبائث إناثها، فإذا سمى واستعاذ ودخل كان سترًا بينه وبينهم لا يرونه، وإذا لم يسم ولم يستعذ لعبوا به، وربما أرجعوا إليه النجاسات ونجسوه ولا يحس بهذا.

ومكان القاذورات والأوساخ هي أماكنهم التي يألفونها، ولهذا كثيرًا ما يصاب الإنسان من ملابسات الجن في هذه الأماكن، إما أن يبول

---

(١) أخرجه البخاري (١٧٥) ومسلم (١٩٢٩) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٠١٨) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

....

عليهم أو يؤذيهم أو ما أشبه ذلك، وإن كانت ملابستهم لغير ذلك أيضًا، كما قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: ملابستهم على ثلاثة أقسام، قسم يكون من باب العبث يعبثون بالإنسان، وقسم من باب العشق، وقسم من باب الأذى، وهذا هو أصعبها وأشدها، يؤذيهم لما يبول عليهم أو يصبُّ عليهم من الماء الحار وما أشبه ذلك، فإذا سمى سلم من هذا كله، وإذا لم يسمّ فإنه قد يتعرض لأذاهم أو لنظرهم أو غير ذلك.

فالمقصود أن الله جل وعلا قسم أعداء بني آدم إلى قسمين، عدو يُشاهد ويُرى ويحس، وهو من جنسه، من الناس، وعدو لا يُشاهد ولا يحس، فالذي يشاهد ويحس يقابل بما ذكر الله جل وعلا: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فُصِّلَت: ٣٤]، فهذا العلاج في العدو الظاهر المشاهد. وأما الاحتراز من العدو غير المشاهد فيكون باللجوء إلى الله والاستعاذة به وذكر اسمه، ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فُصِّلَت: ٣٦].

فلا بد أن نمتثل هذه الأمور التي ذكرها الله تعالى وذكرها رسوله ﷺ، حتى نسلم من الشياطين، شياطين الجن والإنس، ولكن شياطين الجن يكونون مع الناس، قد يكونون في البيوت، وقد يكونون في الأسواق، فهذا القول الذي قاله ﷺ: «**إذا دخل الرجل بيته فذكر الله..**».

ولكن هم يألفون الأغاني والصور، يألفونها كثيرًا، فإذا كان البيت محلًّا للأغاني والصور فهو غالبًا مقر للشياطين، ولا يسلم من الشياطين، وقد يداخلونه أو يداخلون أبناءه، أو أهله وما أشبه ذلك، ولهذا كثرت هذه الأشياء في بيوت الناس، وقد يشاركون الإنسان أيضًا في كل ما يفعل حتى في الزوجة.

وكَذَلِكَ مَا شُرِع للمسلمين في صلَاتهم وأذانهم وحجهم وأعيادهم من ذكر الله تَعَالَى، إنَّمَا هُوَ بِالجُمْلَةِ التَّامَّة، كَقَوْل المؤَذّن: «الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لَا إِلَه إِلَّا الله، أشهد أَن مُحَمَّداً رَسُولُ الله»، وقَولِ الْمُصَلِّي: «الله أكبر، سُبْحَانَ رَبِّي العَظِيم، سُبْحَانَ رَبِّي الأَعْلَى، سمع الله لمن حَمده، رَبَّنَا ولَك الْحَمد، التَّحِيَّات لله»، وقَولِ الملبِّي: «لبيْك اللَّهُمَّ لبيْك»، وأمثال ذَلِك.

ولما توعد الشيطان بني آدم أنه سوف يحتنكنهم، قال الله جل وعلا لـه: ﴿ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٣]، يقول العلماء: صوت الشيطان هنا هو الغناء، ولهذا يقول العلماء: لا يمكن أن يجتمع في قلب إنسان حب القرآن وحب الأغاني، لأن هذا قرآن الرحمن، وهذا قرآن الشيطان، فلا يجتمعان في قلب عبد، فتجد الإنسان إذا ألف الأغاني فهو لا يستمع إلى القرآن ولا يحبه، وإنما يحب الأغاني فقط، نسأل الله العافية.

قوله: «**وكذلك ما شرع للمسلمين..**» كل هذا الكلام الذي ذكره جمل مفيدة، ذكره من باب الاستطراد، لإبطال قول الصوفية في ذكرهم الذي اخترعوه، أن الذكر يكون بالضمير أو بالاسم الظاهر، وزعمهم بأن هذا أقرب إلى القلب، وأنه يخشى أن يموت بعد ذكر النفي وقبل الإثبات! وهذا زعم باطل، فمن مات في أثناء ذلك فقد مات بذكر الله.

وقوله: «**لبيك اللهم لبيك**»، لبيك أيضًا مفيد، لأن المعنى جاء مثنى لبي، ومعناه أنه إجابة لك بعد إجابة، أو أنا لازم طاعتك لزومًا بعد لزوم، أي هو مستمر على ذلك، ومنهم من يقول: إنه أخذ من اللب أو اللبة وهي الملازمة، وهذا معناه، وهكذا كل ذكر جاء به الرسول ﷺ فهو جمل مفيدة، لا يكون ضميرًا أو اسمًا لا فائدة فيه، فالله لم يشرع

فَجَمِيع مَا شَرعه الله من الذّكر إِنَّمَا هُوَ كَلَام تَامّ، لَا اسْم مُفْرد، ولَا مظهر، ولَا مُضْمر.

وهَذَا هُوَ الَّذِي يُسمى في اللُّغَة «كلمة»، كَقَوْلِه: **«كلمتان خفيفتان على اللِّسَان، ثقيلتان في الميزَان، حبيبتان إِلَى الرَّحْمَن: سُبْحَانَ الله وبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ الله الْعَظِيم»**(١).

لنا الشيء الذي لا يفيد، وهذا هو الذي يكون فيه معرفة القلب وتأثره، أما مجرد اسم يتردد أو ضمير فهذا لا يعطي أي معنًى.

قوله: **«لا اسْم مُفْرد»** الاسم المفرد مثل الله أو الرحمن، والمضمر مثل «هو»، من الضمائر التي لا بد أن تتعلق بما سبق أو بما يلحق، وكل هذا لا يجدي شيئًا ولا يفيد.

قوله: **«ثقيلتان في الميزَان»** وهذا دلنا على أن الميزان يوضع فيه الكلام، ومعلوم أن الكلام معنًى لا يشاهد ولا يرى، فبعض العلماء يقول: إن الذي يوضع فيه الصحائف، يعني هذه الكلمات تسجل في صحائف ثم توضع، وبعضهم يقول: إنها تجعل أجسادًا يوم القيامة ثم توضع في الميزان، وهذا هو الأقرب، لهذا يقول: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ۝٦﴾ [الزلزلة: ٦]، فهم يرون أعمالهم يوم القيامة.

وكذلك قوله في حديث أبي مالك الأشعري ﵁: **«والحمد الله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماوات والأرض»**، إلى آخره(٢)، فمعناه أنها يوم القيامة تظهر وتكون أجسامًا ترى، والله على كل شيء قدير.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة ﵁.

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣).

وقوله: «**أفضلُ كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: أَلا كل شَيْء مَا خلا اللهَ بَاطِلُ**»[١].

ومِنْه قَوْله تَعَالَى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ [الكهف: ٥] الآيَة، وقَوله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

وقوله: «**أفضلُ كلمة**» المعروف: «أصدق كلمة» وهذا في الصحيحين، وليس «أفضل كلمة»، لأن هذه لا يذكر الله بها. وقد قال بعضهم: إنه يكذب، وليس هذا بكذب؛ لأن الجنة ليست بباطل والنار ليست بباطل، ولكن الباطل يقصد به شيئان، إما أنه يقصد به الشيء الذي لا ينفع، أو يقصد به الشيء الذي لا يؤمر به ولا يُتحصل به ثواب أو أجر أو خير، لهذا جاء في الحديث: «**كل شيء يلهو به الرجل باطل، إلا رمي الرجل بقوسه، وتأديبه فرسَه، وملاعبته زوجته**»[٢]، لأن هذا يراد به غير هذا.

قوله تعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ يراد بها الكلام.

وقوله: ﴿كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني كلامه الذي فيه الأمر والنهي وفيه الخبر والوعد، فكلام الله لا يخلو عن هذا، إما أمر ونهي، وإما خبر، وإما جزاء، ووعدٌ لمن يمتثل أمره، والخبر قد يكون عن نفسه، وقد يكون عن الأمور الماضية من ذكر الخلق وإرسال الرسل وتكذيبهم الرسل وعذابهم، أو إثابتهم، أو يكون في المستقبل، فكل يطلق عليه كلمة الله، وكلام الله كما سبق، ينقسم إلى قسمين، كلام شرعي أمري ديني، وكلام قدري كوني يكون به الأشياء، وكله صدق وحق، وكله تام.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٤١) ومسلم (٢٢٥٦) من حديث أبي هريرة ﷺ، بلفظ: «**أصدق كلمة**»، وفي رواية لهما: «**أصدق بيت**»، وفي رواية لمسلم: «**أشعر كلمة**».

(٢) أخرجه أحمد (١٧٣٠٠)، وأبو داود (٢٥١٣)، والترمذي (١٦٣٧)، والنسائي (٣٥٧٨)، وابن ماجه (٢٨١١)، من حديث عقبة بن عامر الجهني ﷺ.

وأمثال ذَلِك مِمَّا اسْتُعْملِ فِيهِ لفظ «الكَلِمَة» من الكتاب وَالسّنة، بل وسَائِر كَلَام العَرَب، فإِنَّمَا يُرَاد بِهِ الجُمْلَة التَّامَّة، كَمَا كَانُوا يستعملون الحَرْف في الِاسْم فيَقُولُونَ: هَذَا حرف غَرِيب، أَي لفظ الِاسْم غَرِيب.

وقسم سِيبَوَيْهِ الكَلَام إِلَى اسْم، وفعل، وحرف جَاءَ لِمَعْنًى لَيْسَ باسم ولَا فعل، وكل من هَذِه الأَقْسَام يُسمى حرفاً، لَكِن خَاصَّة الثَّالِث أَنه حرف جَاءَ لِمَعْنًى.

وسمى حُرُوفَ الهجاء باسم الحَرْف، وهِي أَسمَاءٌ.

ولَفظ الحَرْف يتَنَاوَل هَذِه الْأَسْمَاءَ وغَيرَهَا، كَمَا قَالَ النَّبِي ﷺ: «من قَرَأَ الْقُرْآنَ فأعرَبَه، فَلهُ بِكُل حرفٍ عشر حَسَنَات، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ: ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولَكِن ألف حرف، ولَام حرف، ومِيم حرف»[1].

قوله: «حرف» يطلق على الاسم، وعلى الجملة المفيدة، ولهذا وضعت كتب الغريب في الحديث، لتفسير المفردات.

قوله: «وحرف جَاءَ لِمَعْنًى» لا بد أن يكون جاء لمعنى، أما إذا قلت: ألف، فما له معنًى، لا بد أن يكون مثل حروف النصب وحروف الجزم، فهذه جاءت لمعنًى، ولهذا يكون معنى الحرف في غيره، وليس معناه فيه.

قوله: «وسمى حُرُوفَ الهجاء باسم الحَرْف..» هذا اصطلاح، فتسميةُ (با تا ثا) بحروف الهجاء اصطلاحٌ اصطلحه العلماء.

قوله ﷺ: «أعربه» أي: قرأه صحيحًا دون لحن.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

وقد سَأَلَ الخَلِيلُ بن أَحْمد أَصْحَابَه عَن النُّطْق بِحرف الزَّاي من زيد، فقالوا: زاي، فقال: جئْتُمْ بِالِاسْمِ، وإِنَّمَا الحَرْف «ز».

ثمَّ إن النُّحَاة اصْطَلحُوا على أَن هَذَا المسَمّى في اللُّغَة بالحرف يُسمى كلمة، وأَن لفظ الحَرْف يخص لما جَاءَ لِمَعْنًى لَيْسَ باسم ولَا فعل، كحروف الجَرّ ونَحْوِها.

وأما أَلْفَاظُ حُرُوف الهجاء، فيعبر تَارَة بالحرف عَن نفس الحَرْف من اللَّفْظ، وتارَة باسم ذَلِك الحَرْف، ولما غلب هَذَا الِاصْطِلَاح صَار يَتَوَهَّم من اعتاده أَنه هَكَذَا في لُغَة العَرَب، ومنهم من يَجْعَل لفظ الكَلِمَة في اللُّغَة لفظاً مُشْتَركاً بَين الِاسْم مثلاً وبَين الجُمْلَة، ولَا يُعْرف في صَرِيح اللُّغَة من لفظ «الكَلِمَة» إِلَّا الجُمْلَةُ التَّامَّة.

والمقصُود هُنَا أَن المشْرُوع في ذكر الله سُبْحَانَهُ هُوَ ذكره بجملة تَامَّة، وهُوَ المسَمّى بالكلَام، والوَاحد مِنْهُ بِالكَلِمَةِ، وهُوَ الَّذِي ينفع القُلُوب، ويحصل بِهِ الثَّوَاب والأَجْر، ويجذب القُلُوب إِلَى الله ومعرفته ومحبته وخشيته، وغيرِ ذَلِك من المطالب العَالِيَة، والمقاصد السامية.

قوله: «**ونحوها**» مثل حروف النصب، وحروف الجزم، وحروف المعاني.

قوله: «**ولَا يعرف في صَرِيح اللُّغَة من لفظ الكَلِمَة إِلَّا الجُمْلَةُ التَّامَّة**» فالنحاة يقولون: كلمة وكلم وكلام، فالكلمة هي اللفظ المفرد، والكلم ما تألف من ثلاث كلمات فأكثر، سواء كان جملة مفيدة، أم غير مفيدة، كقولك: إن قام زيد، فهو غير مفيد، والكلام هو اللفظ المفيد المؤلف من مبتدأ وخبر، أو فعل وفاعل، كما قال ابن مالك، مثل قولك: محمد رسول الله، وضرب زيدٌ عمرًا، واستقم، فهو كلام، لأنه تام.

وأما الِاقْتِصَار على الِاسْم المفْرَد، مُظْهَراً أَو مُضمَراً، فلَا أصل لَهُ، فضلاً عَن أَن يكون من ذكر الخَاصَّة والعارفين، بل هُوَ وَسِيلَة إِلَى أَنْوَاعٍ من البدع والضلالات، وذريعةٌ إِلَى تصورات وأحوالٍ فَاسِدَة منْ أَحْوَال أهل الإِلْحَاد وأهل الِاتِّحَاد، كَمَا قد بسط الكَلَام عَلَيْهِ في غير هَذَا الْموضع.

قوله: «**وأما الِاقْتِصَار على الِاسْم المفْرَد**» يعني مثل أن يقول: إنه هو، فهذا يدل على مذهب خبيث، وهو أن الله حالٌ في خلقه، أو يصف كل ما يقابله ويتصوره بأن الله تعالى حلَّ فيه! تعالى الله وتقدس، فعلى كل حال هذا كله استطراد من شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ على هذا الذكر الذي اتخذه الصوفية شبه اللعب، وزعموا أنه أفضل الذكر، وهو كذب وبدع، وكل بدعة ضلالة.



فصل

وجماع الدِّين أصلان: أَلّا نعْبدَ إِلّا الله، ولَا نعبده إِلّا بِمَا شرع، لَا نعبده بالبدع، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

وذَلِكَ تَحْقِيق الشَّهَادَتَيْنِ: شَهَادَةِ أَن لَا إِلَه إِلّا الله، وشَهَادَةِ أَن مُحَمَّد رَسُول الله.

قوله: «**وجماع الدِّين أصلان**» وهذا هو الأصل في كل ما جاء عن الله وعن رسوله ﷺ، أن تكون العبادة لله وحده، ولا يقصد بها غير الله، لا من حظوظ النفوس، ولا من مقاصد الدنيا التي قد ينتفع بها هو أو غيره.

والثاني: أن تكون العبادة بما جاء به الرسول ﷺ، وبغير ذلك لا تصح عبادة ولا تقبل، فالذكر الذي يقوله الصوفية مردود، لأنه ما جاء به الرسول ﷺ، فجِماع الدين أصلان:

الأول: أن تكون العبادة لله وحده.

الثاني: أن تكون العبادة مشروعة جاء بها الرسول ﷺ، فإذا خرج التعبد عن هذين الأصلين؛ فهو باطل وضلال.

قوله تعالى: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ العمل الصالح هو ما كان على الشرع، وكلمة «أحدًا» في قوله: ﴿وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ نكرة، فيدخل فيه كل شيء، ويدخل فيه الشرك الصغير والكبير.

قوله: «**تحقيق الشهادتين**» التحقيق أي التصفية، وأن تكون خالصة،

ففي الأولى: أَلّا نعْبد إِلّا إِيَّاه، وفي الثَّانِيَة: أَن مُحَمَّداً هُوَ رَسُولُه المبلغ عَنهُ، فعلينا أَن نصدق خَبرَه، ونطيع أمره.

ليس فيها شيء من غيرها، تقول: حققتُ الشيء أي خلصته من غيره وصفيته، فصار خالصًا صافيًا، هذا معنى التحقيق، فتحقيق التوحيد تصفيته وتخليصه من الشرك والبدع والذنوب، ومن حقق التوحيد دخل الجنة بلا حساب، معناه أنه يحققه بأن يصفّيه ويخلّصه، فيكون صافيًا ليس فيه شيء من الشرك ولا من البدع، ولا عنده ذنوب، فمن كان بهذه الحالة ومات عليها دخل الجنة بلا حساب ولا عذاب.

فهذا معنى قوله ﷺ: «**من قال لا إله إلا الله صادقًا بها دخل الجنة**»[(١)]، وقوله ﷺ: «**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه أو نفسه**»[(٢)]، وقوله ﷺ: «**أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة**»[(٣)]، وقوله ﷺ: «**إن الله قد حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**»[(٤)]، فإذا حرم على النار معناه أنه جاء بتحقيق التوحيد ومات عليه.

فتحقيق الشهادتين، هو القيام بهما خالصتين صافيتين ليس فيهما شيء مما ينافيهما، لا من بدع، ولا من التفات لغير الله جل وعلا، ولا من عمل بغير ما جاء به الرسول ﷺ، فهذا هو تحقيق الشهادتين.

قوله: «**فعلينا أَن نصدق خَبرَه، ونطيع أمره**» يعني أن هذا لازم، وإلا فلا تثبت الشهادة، فلو لم تصدقه بما يقول، ولم تطعه فيما يأمر، فأنت

---

(١) أخرجه أحمد (١٩٦٨٩) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٢٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه البخاري (٤٢٥) ومسلم (٣٣) من حديث عِتبان بن مالك رضي الله عنه.

وقد بَيَّنَ لنا مَا نعْبد الله بِهِ، ونهانا عَن محدثات الأُمُور، وأخْبَرَ أَنَّهَا ضَلَالَة، قَالَ تَعَالَى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البَقَرَة: ١١٢].

وكما أننا مأمورون أَلّا نَخَاف إِلَّا الله، ولَا نتوكل إِلَّا على الله، ولَا نرغب إِلَّا إِلَى الله، ولَا نستعين إِلَّا بِاللَّه، وألَا تكون عبادتنا إِلَّا لله، فكَذَلِك نَحن مأمورون أَن نتبع الرَّسُول، ونطيعه ونتأسى بِه، فالحلال مَا حَلَّله، والحرَام مَا حرمه، والدّين مَا شَرعه.

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [التوبَة: ٥٩]، فجعل الإيتاء لله ولِلرَّسُولِ، كَمَا قَالَ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحَشر: ٧].

وجعل التَّوَكُّل على الله وَحده بقوله: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣]، ولم يقل: وَرَسُولُه، كَمَا قَالَ في وصف الصَّحَابَة رضي الله عنهم في الآيَة الأُخْرَى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ [آل عِمرَان: ١٧٣]، ومِثْله قَوْله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤]، أي حَسبُك وحسبُ المؤمنِينَ، كَمَا قَالَ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمَر: ٣٦] - ثمَّ قَالَ: ﴿سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ [التوبَة: ٥٩]، فَجعل الإيتاء لله ولِلرَّسُولِ، وقدَّم ذكر الفضل لله لِأَن ﴿ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾

لم تشهد له بأنه رسول الله، وإن كنت تعلم أنه صادق، ولكن ما تتبعه ولا تطيعه، فلم تقم بالشهادتين، فأبو طالب كان يشهد أنه صادق، وأن ما يقول حق، ومع ذلك فهو مشرك كافر، لأنه لم يطعه ولم يتبعه.

[الحديد: ٢٩]، وله الفضل على رَسُوله وعَلى المؤمِنِينَ، وقَالَ: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبَة: ٥٩]، فجعل الرَّغْبَة إِلَى الله وَحده، كَمَا في قَوْله: ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ [التين: ٧-٨].

وقَالَ النَّبِي ﷺ لِابْنِ عَبَّاس: «**إِذا سَأَلتَ فاسأل الله، وإِذا استعنتَ فاسْتَعِنْ بِاللَّه**»(١)، والقُرْآن يدل على مثل هَذَا في غير مَوضِع.

فجعل العِبَادَةَ والخشية والتَّقوى: لله، وجعل الطَّاعَة والمحبة: لله ورَسُوله، كَمَا في قَول نوح عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣﴾ [نوح: ٣]، وقَوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ۝٥٢﴾ [النور: ٥٢]، وأمثالِ ذَلِك.

فالرسل أَمَروا بِعِبَادَتِهِ وَحدَه، والرَّغْبَةِ إِلَيْهِ والتوكل عَلَيْه، وطاعتِه والطَّاعَة لَهُم، فأضل الشَّيْطَان النَّصَارَى وأشباههم، فأشركوا بِاللَّه وعصوا الرَّسُول، فـ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبَة: ٣١]، فجعلُوا يرغبون إِلَيْهِم، ويتوكلون عَلَيْهِم، ويَسْأَلُونَهُمْ، مَعَ معصيتهم لأمرهم، ومخالفتهم لسنتهم.

وهَدَى الله المؤمِنِينَ المخلصين لله أهلَ الصِّرَاط المسْتَقيم، الَّذين عرفُوا الحق واتبعوه، فلم يَكُونُوا من المغضوب عَلَيْهِم ولَا الضَّالّين، فأخلصوا دينهم لله، وَأَسْلمُوا وُجُوهَهم لله، وأنابوا إِلَى رَبهم، وأحبُّوه ورَجَوْه، وخافوه وسألوه، ورَغِبُوا إِلَيْهِ، وفوضوا أُمورهم إِلَيْهِ، وتوكلوا عَلَيْهِ، وأطاعوا رسله، وعزروهم ووقروهم،

. . . .

(١) أخرجه أحمد (٢٦٦٩)، والترمذي (٢٥١٦) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

وأحبوهم ووالوهم، واتبعوهم، واقتَفَوْا آثَارهم، واهتدوا بمنارهم.

وذَلِكَ هُوَ دين الإِسْلَام الَّذِي بَعث الله بِهِ الأَوَّلين والآخرين من الرُّسُل، وهُوَ الدِّين الَّذِي لَا يقبل الله من أحد ديناً إِلَّا إِيَّاه، وهُوَ حَقِيقَة العِبَادَة لرب العَالمين.

فنسأل الله العَظِيم أَن يثبّتَنا عَلَيْهِ، ويكملَه لنا، ويميتَنا عَلَيْه، وسَائِرَ إِخْوَانِنَا المسلمين، والحَمْد لله وحده، وصلى الله على سيدنَا مُحَمَّد، وَآله وصَحبه وسلم.

هكذا ختم شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ الرسالة بهذين الأصلين الجامعين، وقال: إنهما جماع الدين، ومعنى جماع الدين أن الدين يجتمع في هذين الأصلين، فلا يخرج الدين الذي جاء به الرسول ﷺ عن هذين الأصلين، وهما معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وهذه الشهادة لا بد أن يحققها المسلم، فيقولها صادقًا من قلبه، عالمًا بذلك، ثم يعمل بها، وإلا فمجرد قول وتلفظ بها، كما يتصوره بعض الناس، فهذا لا ينفع إذا لم يأت بمعناها ويقوم به، وهذا معناه أنه لا بد أن يفهم المراد منها.

ولما كان الرسول ﷺ يدعو العرب، اكتفى بذكر لفظها، ولكنه جاء بالمعاني التي تدل عليها، والذين خوطبوا بها حينما يقول لهم: «**قولوا لا إله إلا الله**»، يفهمونها تمامًا، ولهذا عرفوا أنها تُبطل دينهم، الذي هو عبادة الله وعبادةُ غيره معه، فكانوا يعبدون الله، ولكنهم يعبدون غيره معه، وهذا هو الشرك، ولم يكن العرب ممن لا يعبدون إلا الكواكب أو الحجارة أو الأشجار فقط، هذا لا يوجد.

ولكن عبادتهم لها ليست عبادة خضوع وذل وعبادة وخوف ورجاء إلا في بعض الأحيان، وإنما هي عبادة بالتوسط، بطلب التوسط من هذه

. . . .

الأشياء، يطلبون أن تتوسط لهم عند الله، أصل الشرك هو طلب الوساطة التي هي الشفاعة، فهذا هو أصل شرك المشركين، وأصله القياس الفاسد، حينما قاسوا رب العالمين على العظماء عندهم والكبراء، فقالوا: إننا نشاهد الرؤساء والكبراء إذا طُلب منهم حاجة فأنجع للحاجة وأسرع لقضائها أن نأتي بمن يحبونه أو كان مقربًا عندهم، أو له يد عندهم، فنطلب منه التوسط أن يقضي حاجتنا، فتقضى.

قالوا: كذلك إذن طلب الوساطة من هذه الأشياء هي من باب التعظيم، زعموا، وليس من باب التنقص، ولكن الله جعله مسبة له، لماذا؟ لأن هذا معناه أن الله يحتاج إلى من يسأله وينبهه، أو يجعله عاطفًا على عباده، والله جل وعلا علام الغيوب، يسمعهم ويرى مكانهم، وليس بينهم وبينه حجاب حتى يطلب من يكون وساطة يتوسط، ولهذا صار هذا تنقصًا، لأنهم ما قاموا بالشيء الذي يجب أن يقوموا به، فليس بين العبد وبين ربه حجاب ووساطة، بل يطلب منه أينما كان، فالله معه يسمع كلامه ويراه ويعلم حاله، فإذا جعل وساطة فهو تنقص لله جل وعلا.

فالمقصود: أن شركهم هذا أصله، أمّا أنهم يزعمون أن اللات والعزى ومناة وغيرها من معبوداتهم، أو الرجل الصالح أو المَلَك، أو الكواكب أو الشمس أو القمر، أنها أوجدت شيئًا من المخلوقات، أو أنها تحيي وتميت، أو أنها تدبر مع الله، أو أنها تنزل المطر، أو تنبت نباتًا، فهذا لا وجود له، ولا أحد يعتقده، وإنما يطلبون بها، ويسألون الله بها، فهذا هو الشرك.

ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾ [الكافرون: ١-٣]، فدلت الآية

. . . .

على أن الإنسان إذا عَبَدَ الله وعَبَدَ معه غيره، أنه لا يعبد الله، وإنما يعبد ذلك الغير، والله لا يقبل الاشتراك، فمن عَبَده وعَبَدَ معه شيئًا، فإن الله يرد عبادته ولا يقبلها، فهو لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا.

فلا يوجد من يعبد الأصنام فقط، وإنما هؤلاء يزعمون أن المعبودات مقرَّبة، لكن كيف يقولون: إن الشجر والحجارة مقربة؟ يقولون: إنها على الأقل ليست لها ذنوب، وإذا لم يكن لها ذنوب فنطلب منها أن تتوسط لنا.

فإذا كانوا يعلمون أنها لا تستقل بشيء، وإنما هي وسائط، فطلبوا منها، فيكون ذلك هو الذي يحول بينهم وبين فضل الله جل وعلا الذي يعطيه المخلص، ويجعلهم معذبين في جهنم، ومعرضين لعقابه في الدنيا.

فالإنسان لا يتخلص من عذاب الله إلا بإخلاص الدعاء له والعبادة مطلقًا، فهذا أمر واضح، ولهذا كثر ذكر الشفاعة في القرآن وإبطالها، قال جل وعلا: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٢ - ٢٣]، ومعنى الإذن أن يقول: اشفع، فلا بد أن يأمر الشافع أن يشفع، وثمة شرط ثانٍ لوقوع الشفاعة، وهو أن يكون المشفوع له ممن يرضى الله عنه.

وهذه الرسالة كلها خرجت جوابًا لقولهم: ما هي العبادة؟ لأن شيخ الإسلام سئل عن معنى قول الله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾ [البَقَرَة: ٢١]، فعرف العبادة

....

أولًا، وهي كل ما يحبه الله تعالى ويرضاه، من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، وهذا معناه أن الله يحب ويرضى، فإذا كان يحب ويرضى، فيقابل هذا ويفهم منه أنه يُبغض ويكره، وقال: من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، يعني أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد.






فهرس الموضوعات

